الخلاصةُ

في خصائصِ العقيدة الإسلامية

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنَّة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م

ماليزيا

((بهانج – دار المعمور))

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آلـه وصـحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

إن هذه العقيدة – بادئ ذي بدء – هي العقيدة التي ارتضاها الله لنا وأنعم بها علينا:(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً) [المائدة:٣].

وهي من ثَمَّ منهج الحياة الصحيح الذي رسمه الله لنا لنفوز بخير الدنيا والآخرة،ولنكـون محققين لشروط الخلافة التي خلقنا الله من أجلها:(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِـي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة:٣٠].

ولنقوم بعمارة الأرض على الوجه الذي أراده الله:(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْـتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [هود:٦١].

في حدود العبادة لله التي هي غاية الوجود الإنساني كله:(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّـا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:٥٦].[١]

وهذه الصورة المجملة تعطينا لمحة عن خصائص هذه العقيدة،وهي كثيرة ومنوعة.

وقد قسمته على الشكل التالي:

المبحث الأول=مفهوم العقيدة الإسلامية

المبحث الثاني=أهمية العقيدة في حياة الإنسان

المبحث الثالث=أهم هذه الخصائص،وهي إحدى وأربعون خصيصة:

١- إنَّ أولى خصائص هذه العقيدة أنها ربانيةٌ من عند اللهِ.

٢- ومنْ خصائصِ هذه العقيدةِ أنها ثابتةٌ.

٣- ومنْ خصائصِ هذه العقيدةِ واضحة.

٤- فطريةُ العقيدة الإسلامية.

[١] - انظر ركائز الإيمان لمحمد قطب بتحقيقي (ص :٤٢٢)

٥- عقيدةٌ توقيفيةٌ مبرهَنةٌ.

٦-عقيدةٌ ثابتةٌ ودائمةٌ.

٧- إنها عقيدةٌ وسطٌ لا إفراطَ فيها ولا تفريطَ.

٨-أنها تقوم على التسليم لله ـــ تعالى ـــ ولرسوله ـــ ﷺ.

٩- اتصال سندها بالرسول ﷺوالتابعين وأئمة الدين قولاً،وعملاً،واعتقاداً .

١٠- السلامة من الاضطراب والتناقض واللبس .

١١- التكامل .

١٢- العموم والشمول والصلاح .

١٣- أنها سبب للنصر والظهور والتمكين .

١٤- أنها ترفع قدر أهلها .

١٥- العقيدة الإسلامية عقيدة الألفة والاجتماع .

١٦- أنها تحمي معتنقيها من التخبط والفوضى والضياع .

١٧- أنها تمنح معتنقيها الراحة النفسية والفكرية .

١٨- سلامة القصد والعمل .

١٩- الربوبية المطلقة هي مفرق الطريق .

٢٠- تؤثر في السلوك والأخلاق والمعاملة .

٢١- تدفع معتنقيها إلى الحزم والجد في الأمور .

٢٢- تبعث في نفس المؤمن تعظيم الكتاب والسنة .

٢٣- تَكْفُل لمعتنقيها الحياة الكريمة .

٢٤- تعترف بالعقل وتحدد مجاله .

٢٥- تعترف بالعواطف الإنسانية،وتوجهها الوجهة الصحيحة .

٢٦- العقيدة الإسلامية كفيلة بحل جميع المشكلات .

٢٧-الدخول في السلم الحقيقي .

٢٨- الإيمان الحقيقي يدفع صاحبه إلى التضحية والفداء في سبيل الله .

٢٩- استعلاء الإيمان .

٣٠- أنها قد تأتي بالمحار،ولكن لا تأتي بالمحال.

٣١- أنها سبب النجاة يوم القيامة .

٣٢- التميز .

٣٣- تجمع بين مطالب الروح والجسد .

٣٤- تعترف بالعواطف الإنسانية،وتوجهها الوجهة الصحيحة.

٣٥- الجمع بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب.

٣٦- الجمع بين التوسع في الدنيا والزهد بها .

٣٧- الجمع بين الخوف والرجاء والحب.

٣٨- الشهادة على الناس.

٣٩- التوازن.

٤٠- التناسق بين الإيمان والعمل الصالح وبين العمل والإنتاج.

٤١- السهولة واليسر.

وهناك خصائص أخرى لعل غيرنا ينشط لها.

وقد تكلمت عن كل خصيصة منها باختصار ،بما يوضح معناها بشكل جليٍّ.

قال تعالى:{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْـــزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (٩٧) سورة النحل.

نسال الله تعالى أن يتقبل منا ويغفر لنا وأن يثيب كاتبه وقارئه وناشره والدال عليه.

الباحث في القرآن والسنَّة

علي بن نايف الشحود

في ٩ رمضان ١٤٣٠ هـــ الموافق ل ٢٠٠٩/٨/٣٠ م

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

المبحث الأول

مفهوم العقيدة الإسلامية

العقيدة مصدرها في اللغة من "العقد" وهو الشد والربط بقوة وإحكام،فكل أمر ذي بال يسمى عقيدة،ولذلك تسمى العهود والمواثيق "عقدا" فإجراء النكاح يسمى عقدا،وإجراء البيع يسمى عقدا،وهنا من باب أولى ما بين العبد وربه،فما بين العبد وربه من الأمور التي يجب أن يتصورها ويؤمن بها تسمى عقيدة.

المفهوم الاصطلاحي للعقيدة:

هي الإيمان الجازم الذي لا يتطرق إليه الشك لدى معتقده،هذا على جهة العموم.

أما العقيدة الإسلامية: فهي الاعتقاد الجازم بأركان الإيمان وأصول الدين وثوابته وكل ما ثبت عن الله –تعالى– وعن رسوله –صلى الله عليه وسلم– من الأمور القلبية والعلمية،والقولية،وأيضاً مناهج الحياة،بل ويشمل ذلك جانب التعامل مع الآخرين،وهذه نقطة مهمة؛ لأن كثيرا من الذين يتناولون أمر العقيدة يغفلون أو ربما يذهلون عن أن ثمرة العقيدة هي التعامل الظاهر.

مصادر العقيدة الإسلامية:

مصادر العقيدة هي مصادر الدين عقيدةً وفقهاً وهي الكتاب والسنة،وليس هناك مصادر غير ذلك،لكن بعض العلماء يذكر مصدر ثالث،وهو الإجماع ،وهو ليس مصدر مستقل،بل عبارة عن حصيلة فهم النصوص،فأحياناً ينبني الإجماع على نص،أو على مجموعة نصوص،وأحياناً ينبني الإجماع على قاعدة أو قواعد أخذت من نصوص وأحياناً ينبني الإجماع على فهوم صحيحة سليمة من قِبَل الراسخين في العلم من النصوص،فعلى هذا الإجماع قد يعتبر مصدرا ثالثا،وقد يقال أنه مصدر تابع،ولا مشاحة في الاصطلاح.[٢]

[٢] – ملخص من دروس العقيدة في الأكاديمية الإسلامية المفتوحة للمستوى الثالث، تأليف: أ.د/ ناصر بن عبد الكريم العقل، عن المصدر: http://islamacademy.net بتصرف.

فالعقيدة الإسلامية هي: مجموعة من الأسس والمبـادئ المتعلقـة بالخـالق عـز وجـل والنبوات،وما أخبر به الأنبياء من الأمور الغيبية،مثل الملائكة والبعث واليوم الآخر وغيرها من الأمور التي أخبر بها الرسل بناءاً على ما أوحَى الله عز وجل إليهم،ومن ثمَّ دعوا الناس إلى الإيمان الجازم بها مع اعتقاد بطلان كلِّ ما يخالفها.

ما يدخل في مفهوم العقيدة الإسلامية:

١-ما يتعلق بالله تعالى وكل ما أخبر به عن نفسه تعالى: ذاتا،وصفاتا،وأفعالا.

٢- الرسل الكرام الذين بعثهم الله تعالى برسالاته إلى البشر،وما يتعلق بأولئـك الرسـل عليهم السلام من صفات،وما يجب في حقهم ،وما يستحيل عليهم،وما هو جائز منهم.

٣- الأمور الغيبية:وهي التي لا يمكن الوصول إلى معرفتها إلا بوحي من الله تعالى،بواسطة رسول من رسله- عليهم السلام- أو كتاب من كتبه.

ويدخل في هذه الأمور:

١- الملائكة: فيجب الإيمان بهم جملة،وبمن علمنا اسمه،ومن علمنا عمله تفصيلاً.

٢- الكتب: فيجب الإيمان بأن لله كتبا أنزلها على رسله عليهم السلام.فنؤمن بما نص عليه تفصيلا كما قال الله تعالى:{..وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} (٥٥) سورة الإسراء،و قوله { إِنَّـا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...} (٤٤) سورة المائدة ،وقوله تعـالى:{وَلْـيَحْكُمْ أَهْـلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ...} (٤٧) سورة المائدة ،كما نؤمنُ بما لم يسمَّ منها إجمالا.

٣- اليوم الآخر: وما يتعلق بوقته وكلٌّ ما أخبرنا به مما يقع فبه مـن البعـث والنشـور والحساب والجنة والنار وغير ذلك.

٤- أخبار بدء الخليقة وما يتعلق بذلك.[3]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[3] - راجع التفاصيل في كتابي ((الواضح في أركان الإيمان))

المبحث الثاني

أهمية العقيدة في حياة الإنسان

ترجع أهمية العقيدة إلى أهمية الدين في حياة الإنسان،وأهمية الدين معلومة،الدين هو القيمة الحقيقية الأساسية للإنسان في الدنيا والآخرة،الإنسان بلا دين حق لا قيمة له،ولا يمكن أن تتحقق العبادة الحقة إلا بالعقيدة السليمة،لا من حيث منهج العبادة الشرعي،بل حتى من حيث الاعتقاد ابتداءً بالله -عز وجل-،وبأصول الإيمان الأخرى،والاعتقاد بالغيبيات،والاعتقاد بمنهاج الدين جملة وتفصيلاً على قدر مدارك الإنسان،فالإنسان إذا صحت عقيدته صح دينه،وإذا صح دينه صحت صلته بالله -عز وجل-،وإذا وصل إلى هذه الدرجة حقق السعادة المنشودة التي هي السعادة العظمى في الدنيا والآخرة،ولا سبيل إلى تحقيق هذه السعادة الدائمة إلا بسلامة العقيدة.

١-لابد لكل بناءٍ ماديا كان أو معنويا من أساسٍ يقوم عليه.والدين الإسلاميُّ بناءٌ متكامل يشمل جميع حياة المسلم منذ ولادته وحتى مماته،ثم ما يصير إليه بعد موته.وهذا البناءُ الضخم يقوم على أساس متين هو العقيدة الإسلامية التي تتخذ من وحدانية الخالق منطلقا لها،كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (١٦٢) سورة الأنعام.

فالإسلامُ يعنَى بالعقيدة ويوليها أكبر عناية،سواء من حيث ثبوتها بالنصوص ووضوحها،أو من حيث ترتيب آثارها في نفوس معتقديها.لذا نجد أن الرسول ﷺمكث ثلاثة عشر سنة بمكة المكرمة يترل عليه القرآن، وكان في غالبه ينصبُّ على البناء العقدي،حتى إذا ما تمكنت العقيدة في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم نزلت التشريعاتُ الأخرى بعد الهجرة إلى المدينة.

٢- إن العقيدة- أيا كانت هذه العقيدة- تعدُّ ضرورة من ضروريات الإنسان التي لا غنى له عنها،ذلك أن الإنسان بحسب فطرته،يميل إلى اللجوء إلى قوة عليا يعتقد فيها القوة الخارقة،والسيطرةَ الكاملة عليه وعلى المخلوقات من حوله.وهذا الاعتقادُ يحقق له الميل

الفطري للتدين،ويشبع نزعته تلك،فإذا كان الأمر كذلك فإنَّ أولى ما يحقق ذلــك هــو الاعتقادُ الصحيح الذي يوافق تلك الفطرة،ويحترم عقل الإنسان ومكانته في الكون،وهــذا ما جاءت به العقيدة الإسلامية.قال الله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} (٨٢) سورة الأنعام.

٣–لما كان الدين الإسلامي بناء متكاملاً اعتقادا وعبادة وسلوكا،لزم أن يكون هذا البنــاء متناسقا ومنسجما،لذا نجد أن العنصر الأساسي فيه هو العقيدةُ الإســلاميةُ الــتي يقــوم عليها،وهي عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى،مما يكسبها مركزا مهما لفهم الدين الإسلامي فهماً صحيحاً.فالعقائد الإسلامية والعبادات والمعاملات والسلوك كلُّها تتجــهُ لوجهــة واحدة هي إخلاصُ الدين لله تعالى،وهذا الاتجاه المتحد له أهمية قصوى في فهــم الــدين الإسلامي،قال تعالى:{وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِــنٌ واتَّبَــعَ مِلَّــةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} (١٢٥) سورة النساء

٤– إن إخلاص الدين لله تعالى لا يبلغ كماله إلا بإخلاص المحبَّة لله المعبــود ،والمحبــةُ لا تكتمل إلا بتمام المعرفة.والعقيدة الإسلامية تقدم للإنسان كل ما يجب عليه معرفته في حقِّ الله تعالى،وبذلك يبلغ كمال المحبة،وبالتالي يسعى لكمال الإخلاص لله تعــالى ؛لأنــه أتم معرفته به،كما قال ﷺ:(أَنَا وَاللَّهِ أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ،وَأَتْقَاكُمْ لَهُ)[٤]،وعَنْ عَائِشَةَ قَالَــتْ كَــانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – يَأْمُرُهُمْ بِمَا يُطِيقُونَ فَيَقُولُونَ إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَــلَّ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ.فَيَغْضَبُ حَتَّى يُرَى ذَلِكَ فِى وَجْهِهِ.قَالَ ثُمَّ يَقُولُ « وَاللَّهِ إِنِّى لأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ قَلْباً » (أخرجه أحمد)[٥].

٥– إن الإنسان هو خليفة الله تعالى في الأرض[٦]،وقد وكّل إليه إعمارها،كما أمر بعبــادة الله تعالى والدعوة إلى دينه.والمسلمُ في حياته كلها يستشعر أنه يؤدي رســالة الله تعــالى

---

[٤] – المستدرك للحاكم برقم(١٧٤٢) وصحيح ابن خزيمة برقم(٢٧٠٤) وهو صحيح

[٥] – برقم(٢٥٠٢١) وهو صحيح

[٦] – **هناك خلاف في إطلاق هذه اللفظة ، والصواب جوازها انظر** : التحرير والتنوير ـــ الطبعة التونســية – (٢٣ / ٢٤٢) والتفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١ / ٧) وتفسير الشعراوي – (/ ٢٨٨) وتفسير الشيخ المراغى ـــ موافقا للمطبوع – (١ / ٨٠) وتفسير المنار – (٩ / ٢٣٠) وتفسير روح البيان ـــ موافق للمطبــوع – (١ / ٨٦)

بتحقيق شرعه في الأرض،فعقيدته تدفعه إلى العمل الجاد المخلص،لأنه يعلم أنـه مـأمور بذلك دينا،وأنه مثاب على كل ما يقوم به من عمل جلَّ ذلك العملُ أم صغرَ قال تعالى:{ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) [النجم/٣٩-٤١] }.

٦- إن إفراد الله تعالى بالتوجه إليه في جميع الأمور يحقق للإنسان الحريةَ الحقيقيـة الـتي يسعى إليها،فلا يكون إلا عبدا لله تعالى وحده لا شريك له،فتصغر بذلك في عينه جميـعُ المعبودات من دون الله،وتصغر العبودية للمادة والانقياد للشهوات.فإن العقيـدةَ مـا إنْ تتمكنْ من قلب المسلم حتى تطرد منه الخوف إلا من الله تعالى،والذل إلا لله.وهذا التحرر من العبودية لغير الله تعالى هو الذي جعل جنديا من جنود الإسلام – وهو ربعي بن عامر رضي الله عنه[٧] – عندما ذهب لملك الفرس حين سأله عن سبب مجيئهم ،فقـال:""اللَّـهُ ابْتَعَثْنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ،وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سـعَتِهَا،وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ،فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ،فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ قَبِلْنَـا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ،وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ.قَالُوا: وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ ؟ قَالَ: الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى،وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ.فَقَالَ رُسْـتُمُ: قَـدْ سَـمِعْتُ

وجامع لطائف التفسير١-٢٨ - (١ / ٣٠٥) وزهرة التفاسير لأبي زهرة - (١ / ١٣٤٦) ومحاسن التأويـل تفسـير القاسمي - (٦ / ٥٠) وفتاوى الأزهر - (٧ / ٣٥٤) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (٦ / ١٠٥) رقـم الفتـوى ٤٠١١٢ لا حرج في مقولة "الإنسان خليفة الله في الأرض"تاريخ الفتوى : ١٨ رمضان ١٤٢٤ ومجلة مجمـع الفقـه الإسلامي - (٢ / ٧٠٩٧) ومجلة مجمع الفقه الإسلامي - (٢ / ٢٠٩٨٢)

[٧] - ربعي بن عامر بن خالد بن عمرو.قال الطبري: كان عمر أمد به المثنى بن حارثة وكان مـن أشـراف العـرب وللنجاشي الشاعر فيه مديح. ،وقال سيف في الفتوح عن أبي عثمان عن خالد وعبادة قالا: قدم على أبي عبيدة كتـاب عمر بأن يصرف جند العراق إلى العراق وعليهم هاشم بن عتبة وعلي مقدمته القعقاع بن عمرو وعلى مجنبته عمير بـن مالك وربعي بن عامر وفي ذلك يقول ربعي:

أنخنا إليها كورة بعد كورة ... نقصهم حتى احتوينا المناهلا

وله ذكر أيضاً في غزوة نهاوند وكان ممن بني فسطاطاً أمير تلك الغزوة النعمان بن مقرن وولاه الأحنف لما فتح خراسان على طخارستان.

وقد تقدم غير مرة أنهم كانوا لا يؤمرون إلا الصحابة. الإصابة في معرفة الصحابة - (ج ١ / ص ٣٤٩) و تاريخ دمشق - (ج ١٨ / ص ٤٩) ت ٢١٣٦

مَقَالَتَكُمْ،فَهَلْ لَكَمَ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى نَنْظُرَ فِيهِ وَتَنْظُرُوا ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَـــمْ أَحَـــبُّ إِلَيْكُمْ ؟ أَيَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ ؟ قَالَ: لَا،بَلْ حَتَّى نُكَاتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَا وَرُؤَسَاءَ قَوْمِنَا.فَقَالَ: مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُؤَخِّرَ الْأَعْدَاءَ عِنْدَ اللِّقَاءِ أَكْثَـــرَ مِـــنْ ثَلَاثٍ،فَـــانْظُرْ فِـــي أَمْـــرِكَ وَأَمْرِهِمْ،وَاخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ بَعْدَ الْأَجَلِ ""[٨].



[٨] - أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - (١ / ٣٧٣) والمنتظم - (١ / ٤٧٥) والبداية والنهاية لابـــن كـــثير - موافقـــة للمطبوع - (٧ / ٤٦) وتاريخ الرسل والملوك - (ج ٢ / ص ٢٦٨)

المبحث الثالث

أهم هذه الخصائص

١ – إنَّ أولى خصائص هذه العقيدة أنها ربانيةٌ من عند الله

وأنها لم تتغيرْ و لم تتبدلْ،وهذا يطمئنُ النفسَ أنها خيرٌ لأنفسنا،وأنَّ السعادةَ تكمنُ في تنفيذها،وأنَّ الشقاءَ يترتبُ على تركها:

أ.فالخيرُ والبركةُ والسعادةُ ووفرةُ الإنتاج كلُّها من بركاتِ تطبيقِ الشريعة المبنية على هذه العقيدة:

قال تعالى:{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }.(الأعراف:٩٦).

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ تِلْكَ القُرَى آمَنُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ النَّبِيُّونَ،وَصَدَّقُوهُمْ،وَاتَّبَعُوا النُّورَ الذِي جَاؤُوهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ،وَاتَّقَوْا بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ،وَتَرْكِ المُحَرَّمَاتِ،لأَمْطَرَت السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ بِإِذْنِ رَبِّهَا،وَلَفَاضَتِ الأَرْضُ بِالخَيْرَاتِ،وَلكِنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ،فَعَاقَبَهُمُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ،بِإِهْلاَكِهِمْ عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ المَآثِمِ وَالمَحَارِمِ.[٩]

فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب،واتقوا بدل الاستهتار لفتح اللّه عليهم بركات من السماء والأرض..هكذا..«بركات من السماء والأرض» مفتوحة بلا حساب.من فوقهم ومن تحت أرجلهم.والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي ظلال الفيض الغامر،الذي لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات..

وأمام هذا النص – والنص الذي قبله – نقف أمام حقيقة من حقائق العقيدة وحقائق الحياة البشرية والكونية سواء.وأمام عامل من العوامل المؤثرة في تاريخ الإنسان،تغفل عنه المذاهب الوضعية وتغفله كل الإغفال.بل تنكره كل الإنكار!..

[٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ١٠٥١)

إن العقيدة الإيمانية في اللّه،وتقواه،ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة،وعن خط تـاريخ الإنسان.

إن الإيمان باللّه،وتقواه،ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض.وعدا من اللّـه.ومـن أوفى بعهده من اللّه؟

ونحن – المؤمنين باللّه – نتلقى هذا الوعد بقلب المؤمن،فنصدقه ابتداء،لا نسأل عن عللـه وأسبابه ولا نتردد لحظة في توقع مدلوله..نحن نؤمن باللّه – بالغيب – ونصـدق بوعـده بمقتضى هذا الإيمان..

ثم ننظر إلى وعد اللّه نظرة التدبر – كما يأمرنا إيماننا كذلك – فنجد علتـه وسـببه! إن الإيمان باللّه دليل على حيوية في الفطرة وسلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية وصـدق في الإدراك الإنسـاني،وحيوية في البنيـة البشـرية،ورحابة في مجـال الإحسـاس بحقـائق الوجود..وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

والإيمان باللّه قوة دافعة دافقة،تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها،وتتجه بها إلى وجهـة واحدة،وتطلقها تستمد من قوة اللّه،وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارتها،وفي دفع الفساد والفتنة عنها،وفي ترقية الحياة ونمائها..وهذه كذلك من مؤهلات النجـاح في الحياة الواقعية.والإيمان باللّه تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد.وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية للّه،أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة.من العبيد للهوى ولبعضهم بعضا! وتقوى اللّه يقظة واعية تصون من الاندفاع والتـهور والشـطط والغرور،في دفعة الحركة ودفعة الحياة..

وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج،فلا يعتدي،ولا يتهور،ولا يتجاوز حدود النشـاط الصالح.

وحين تسير الحياة متناسـقة بـين الـدوافع والكوابح،عاملـة في الأرض،متطلعـة إلى السماء،متحررة من الهوى والطغيان البشري،عابدة خاشعة للّه..تسير سيرة صالحة منتجـة تستحق مدد اللّه بعد رضاه.فلا جرم تحفها البركة،ويعمها الخير،ويظلها الفلاح..والمسـألة

– من هذا الجانب – مسألة واقع منظور – إلى جانب لطف اللّه المستور – واقع له عللــه وأسبابه الظاهرة،إلى جانب قدر اللّه الغيبي الموعود..

والبركات التي يعد اللّه بها الذين يؤمنون ويتقون،في توكيد ويقين،ألوان شتى لا يفصـــلها النص ولا يحددها.

وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان،النابع من كل مكان،بلا تحديــد ولا تفصيل ولا بيان.فهي البركات بكل أنواعها وألوانها،وبكل صورها وأشكالها،ما يعهده الناس وما يتخيلونه،وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال! والذين يتصورون الإيمــان باللّــه وتقواه مسألة تعبدية بحتة،لا صلة لها بواقع الناس في الأرض،لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة! وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها اللّه – سبحانه – وكفى باللّــه شهيدا.ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس:«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنــا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ.وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ»..

ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمما – يقولون:إنهم مسلمون – مضيقا عليهم في الــرزق،لا يجدون إلا الجدب والمحق!..ويرى أمما لا يؤمنون ولا يتقون،مفتوحا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ..فيتساءل:وأين إذن هي السنة التي لا تتخلف؟

ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال! إن أولئك الذين يقولون:إنهم مســلمون..لا مؤمنون ولا متقون! إنهم لا يخلصون عبوديتهم للّه،ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا اللّه! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم،يتألهون عليهم،ويشرعون لهم – سواء القوانين أو القيم والتقاليد – وما أولئك بالمؤمنين.فالمؤمن لا يدع عبدا من العبيد يتأله عليه،ولا يجعل عبدا من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره..ويوم كان أسلاف هؤلاء الــذين يزعمون الإيمان مسلمين حقا.دانت لهم الدنيا،وفاضت علــيهم بركــات مــن الســماء والأرض،وتحقق لهم وعد اللّه.[١٠]

وقال تعالى:{ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ }.(المائدة:٦٦)

[١٠] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٣ / ١٣٣٨)

وَلَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمَا فِي الكِتَابِ الذي أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ،كَمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ،دُونَ تَحْرِيفٍ وَلا تَبْدِيلٍ،لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إلى اتِّبَاعِ الحَقِّ،وَالعَمَلِ بِمُقْتَضَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ،لأنَّ كُلاً مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ بَشَّرَ بِنَبِيٍّ يَكُونُ مِنْ أَوْلاَدِ إِسْمَاعِيلَ.وَلَوْ أَنَّهُمُ اتَّبَعُوا الحَقَّ،وَآمَنُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ الذي بَشَّرَ بِهِ كِتَابُهُمْ،لَوَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِزْقَهُمْ،وَلأَغْدَقَتِ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مَطَرَهَا وَبَرَكَاتِهَا،وَلأخْرَجَتْ لَهُمْ خَيْرَاتِهَا.وَلَكِنَّ قِلَّةً مِنْهُمْ مُؤْمِنَةٌ مُلْتَزِمَةٌ بِأَحْكَامِ مَا شَرَعَ اللهُ لَهُمْ،وَأَكْثَرُهُمْ طُغَاةٌ مُجَاوِزُونَ لأَوَامِرِ اللهِ،وَسَاءَ عَمَلُهُمْ.[11]

إن هاتين الآيتين تقرران أصلا كبيرا من أصول التصور الإسلامي،ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية.ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل،وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم والعقل البشري،والموازين البشرية،والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج،بإزاء هذا الأمر الخطير..

إن اللّه – سبحانه – يقول لأهل الكتاب – ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب – إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم – وهذا جزاء الآخرة.وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج اللّه الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله اللّه إليهم من التعاليم – كما أنزلها اللّه بدون تحريف ولا تبديل – لصلحت حياتهم الدنيا،ونمت وفاضت عليهم الأرزاق،ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق،ووفرة النتاج وحسن التوزيع،وصلاح أمر الحياة..ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج اللّه – إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها «وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ».

وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج اللّه في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا،لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده – وإن كان هو المقدّم وهو الأدوم – ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا،ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة..وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية..يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله:«لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ»..

---

[11] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ٧٣٦)

وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا.إنما هو طريق واحد،تصلح به الدنيا والآخرة،فإذا تنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة..هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا..

وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب،ولكنه كذلك – وتبعا لذلك – منهج حياة إنسانية واقعية،يقام،وتقام عليه الحياة..وإقامته – مع الإيمان والتقوى – هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية،وفيض الرزق،ووفرة النتاج،وحسن التوزيع،حتى يأكل الناس جميعا – في ظل هذا المنهج – من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلا من الدنيا ولا يجعل سعادة الآخرة بديلا من سعادة الدنيا،ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا..وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية.

لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم.بحيث أصبح الفرد العادي – وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة – لا يرى أن هنالك سبيلا للالتقاء بين الطريقين.ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع..لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحي بهذا..

حقيقة:إن أوضاع الحياة الجاهلية البعيدة الضالة عن اللّه،وعن منهجه للحياة،اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة،وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع،والكسب في مضمار المنافع الدنيوية،أن يتخلوا عن طريق الآخرة وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف،الذي يحض عليه الدين.كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة،والوسائل التي يصل بها الناس في مثل هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع،والكسب في مضمار المنافع،لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق،ولا مرضية للّه

سبحانه..ولكن..تراها ضربة لازب! ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس؟ ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة؟

كلا..إنها ليست ضربة لازب! فالعداء بين الدنيا والآخرة والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة،ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبديل..بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلا.إنما هي عارض ناشئ من انحراف طارئ! إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا.وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان اللّه وثوابه الأخروي..

هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية..ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج اللّه الذي رضيه للناس..فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة،وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وفق شريعة اللّه فريضة.والخلافة عمل وإنتاج،ووفرة ونماء،وعدل في التوزيع يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم،كما يقول اللّه في كتابه الكريم.

إن التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن اللّه،بإذن اللّه،وفق شرط اللّه..ومن ثم يجعل العمل المنتج المثمر،وتوفير الرخاء باستخدام كل مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها – بل الخامات والموارد الكونية كذلك – هو الوفاء بوظيفة الخلافة.ويعتبر قيام الإنسان بهذه الوظيفة – وفق منهج اللّه وشريعته حسب شرط الاستخلاف – طاعة للّه ينال عليها العبد ثواب الآخرة بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات الأرض التي سخرها اللّه له ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجليه،كما يصور التعبير القرآني الجميل! ووفق التصور الإسلامي يعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض،ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له،عاصيا للّه،ناكلا عن القيام بالوظيفة التي خلقه اللّه لها،وهو يقول للملائكة:«إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً».وهو

يقول كذلك للناس:«وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ»،ومعطلا لرزق اللّه الموهوب للعباد..وهكذا يخسر الآخرة لأنه خسر الدنيا! والمنهج الإسلامي – بهذا – يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في توافق وتناسق.فلا يفوّت على الإنسان دنياه لينال آخرته،ولا يفوت عليه آخرته لينال دنياه.فهما ليسا نقيضين ولا بديلين في التصور الإسلامي.

هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة،وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية التي تقوم في الأرض على منهج اللّه..فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف..إذ أن طريق الفرد وطريق الجماعة – في المنهج الإسلامي – لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان..فالمنهج يحتم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والإنتاج وأن يبتغي في العمل والإنتاج وجه اللّه،فلا يظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون،ولا يأكل من سحت،ولا يحتجز دون أخيه المحتاج في الجماعة شيئا يملكه – مع الاعتراف الكامل له بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقها في ماله في حدود ما فرض اللّه وما شرع – والمنهج يسجل للفرد عمله – في هذه الحدود ووفق هذه الاعتبارات – عبادة للّه يجزيه عليها بالبركة في الدنيا وبالجنة في الآخرة..

ويربط المنهج بين الفرد وربه رباطا أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه ليستوثق بهذا الرباط من تجدد صلته باللّه في اليوم الواحد خمس مرات بالصلاة،وفي العام الواحد ثلاثين يوما بصوم رمضان،وفي العمر كله بحج بيت اللّه.وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة..

ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي.إنها تجديد للعهد مع اللّه على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة.وهي قربى للّه يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج،الذي ينظم أمر الحياة كلها،ويتولى شئون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقاتهم وفي خلافاتهم.ويتجدد معها الشعور بعون اللّه ومدده على حمل التكاليف التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل،والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف في الطريق..وليست هذه الشعائر التعبدية أمورا

منفصلة عن شئون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم والقضاء،والجهاد لإقرار منهج اللّه في الأرض،وتقرير سلطانه في حياة الناس..إنما الإيمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج،المعين على أداء شطره الآخر..وهكذا يكون الإيمان والتقوى وإقامة منهج اللّه في الحياة العملية سبيلا للوفرة والفيض.كما يعد اللّه الناس في هاتين الآيتين الكريمتين..

إن التصور الإسلامي،وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه،لا يقدم الحياة الآخرة بديلا من الحياة الدنيا – ولا العكس – إنما يقدمهما معا في طريق واحد،وبجهد واحد.ولكنهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج اللّه وحده في الحياة – دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج اللّه،أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التي لم تضبط بهذا المنهج – ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل.

والتصور الإسلامي – وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه – لا يقدم الإيمان والعبادة والصلاح والتقوى،بديلا من العمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة المادية..وليس هو المنهج الذي يعد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه بينما يدع للناس أن يرسموا لأنفسهم الطريق المؤدي إلى فردوس الدنيا – كما يتصور بعض السطحيين في هذا الزمان! – فالعمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور الإسلامي – والمنهج الإسلامي – فريضة الخلافة في الأرض.والإيمان والعبادة والصلاح والتقوى،تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج في حياة الناس وهذه وتلك معا هي مؤهلات الفردوس الأرضي والفردوس الأخروي معا والطريق هو الطريق،ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم.والتي منها يقوم في أوهام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة،ولا يجمعوا بينهما في تصور أو في واقع..لأنهما لا تجتمعان..!

إن هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس،وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة،وبين العبادة الروحية والإبداع المادي،وبين النجاح في الحياة الدنيا،والنجاح في الحياة الأخرى..إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية! إنما هو ضريبة بائسة فرضتها البشرية على نفسها وهي

تشرد عن منهج اللّه،وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها،معادية لمنــهج اللّــه في الأساس والاتجاه..

وهي ضريبة يؤديها الناس من دمائهم وأعصابهم في الحياة الدنيا،فوق ما يؤدونه منــها في الآخرة وهو أشد وأنكى..

إنهم يؤدونها قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر،من جراء خواء قلوبهم مــن طمأنينــة الإيمان وبشاشته وزاده وريه،إذا هم آثروا اطراح الدين كله،على زعم أن هذا هو الطريق الوحيد للعمل والإنتاج والعلم والتجربة،والنجاح الفردي والجماعي في المعترك العــالمي! ذلك أنهم في هذه الحالة يصارعون فطرتهم،يصارعون الجوعة الفطريــة إلى عقيــدة تمــلأ القلب،ولا تطيق الفراغ والخواء.وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعيــة،أو فلســفية،أو فنية..على الإطلاق..لأنها جوعة النزعة إلى إله..وهم يؤدونها كذلك قلقا وحيرة وشــقاء قلب وبلبلة خاطر،إذا هم حاولوا الاحتفاظ بعقيدة في اللّه ،وحاولوا معها مزاولة الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي يقوم نظامه كله وتقوم أوضاعه وتقوم تصوراته،وتقوم وســائل الكسب فيه ووسائل النجاح على غير منهج اللّه،وتتصادم فيه العقيــدة الدينيــة والخلــق الديني،والسلوك الديني،مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة في هــذا المجتمــع المنكود.

وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء،سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية،أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية..وتتصور – أو يصــور لهــا أعداء البشرية – أن الدين للّه،وأن الحياة للناس! وأن الــدين عقيــدة وشــعور وعبــادة وخلق،والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل! وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة..ضــريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء..لأنها لا تهتدي إلى منهج اللّه الذي لا يفصل بــين الــدنيا والآخرة بل يجمع ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة،بل ينسق..

ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة،في فترة موقوتة،إذ نرى أمما لا تؤمن ولا تتقي،ولا تقــيم منهج اللّه في حياتها،وهي موفورة الخيرات،كثيرة الإنتاج عظيمة الرخاء...

إنه رخاء موقوت،حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت.وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني..والآن تظهر بعض هذه الآثار في صور شتى:

تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم،مما يجعل المجتمع حافلا بالشقاء،وحافلا بالأحقاد،وحافلا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه الأحقاد الكظيمة..وهو بلاء على رغم الرخاء!..

وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعا من عدالة التوزيع واتخذت طريق التحطيم والقمع والإرهاب ونشر الخوف والذعر،لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع..وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام! وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره – إن عاجلا أو آجلا – إلى تدمير الحياة المادية ذاتها.

فالعمل والإنتاج والتوزيع،كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق.والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان! وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم – وبخاصة أشدها رخاء ماديا – مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال.ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج،وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء! وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحا كافيا يلفت الأنظار! وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة في هذا العالم المضطرب الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة..وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية..و لم ينتشر الموت بالسكتة وانفجار المخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء! وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار – وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي – وليس هذا إلا مثلا للآخرين،في فعل الافتراق بين النشاط المادي والمنهج الرباني وافتراق الدنيا والآخرة،وافتراق الدين والحياة أو

اتخاذ منهج للآخرة من عند اللّه،واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس وإيقاع هـذا الفصام النكد بين منهج اللّه وحياة الناس![12]

ب.وما دامتْ ربانيةٌ من الله عز وجلَّ فإنها مبرأةٌ من النقصِ،سالمةٌ من العيب،بعيدةٌ عن الحيفِ والظلم،لأنَّ اللهَ له المثل الأعلى في السماوات والأرض:

قال تعالى:{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (٩٠) سورة النحل.

وقال تعالى:{...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا..} (٣) سورة المائدة.

وقال تعالى:{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} (٨٢) سورة النساء.

ج-.ومادامتْ ربانيةً فهي التي تشبعُ جَوعةَ الفطرةِ للعبادة لا يسدُّها إلا منهاجُ الله،ولا تملأُها النظمُ الفلسفيةُ،ولا السلطانُ السياسيُّ،ولا الثراءُ الماليُّ:

قال تعالى:{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } (٣٠) سورة الروم

هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجيء في موعده،وفي موضعه،بعد تلك الجـولات في ضمير الكون ومشاهده،وفي أغوار النفس وفطرتها..يجيء في أوانه وقد تهيـأت القلـوب المستقيمة الفطرة لاستقباله كما أن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجـة لهـا وكـل دليل،ووقفت مجردة من كل عدة لها وكل سلاح..وهذا هو السلطان القوي الذي يصدع به القرآن.السلطان الذي لا تقف له القلوب ولا تملك رده النفوس.

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً»..واتجه إليه مستقيما.فهذا الدين هو العاصم مـن الأهـواء المتفرقة التي لا تستند على حق،ولا تستمد من علم،إنما تتبع الشـهوات،والنزوات بغـير ضابط ولا دليل..أقم وجهك للدين حنيفا مائلا عن كل ما عداه،مستقيما على نهجـه دون سواه:« فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ»..وبهذا يربط بـين فطـرة

---

[12] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٩٣٠)

النفس البشرية وطبيعة هذا الدين وكلاهما من صنع اللّه وكلاهما موافق لناموس الوجـــود وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه.واللّه الذي خلق القلب البشري هو الـــذي أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الانحراف.وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير.والفطرة ثابتة والدين ثابت:«لا تَبْدِيلَ لِخَلْـــقِ اللَّـــهِ».فـــإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة.فطرة البشـــر وفطرة الوجود.

«ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ.وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»..فيتبعون أهواءهم بغير علم ويضلون عن الطريق الواصل المستقيم.

والتوجيه بإقامة الوجه للدين القيم،ولو أنه موجه إلى الرسول – ﷺ – إلا أن المقصود بـــه جميع المؤمنين.[١٣]

وهذه الجوعةُ الفطريةُ للجوع إلى قوةٍ عليا تبرزُ باديةً للعيان أمامَ الأعاصـــيرِ والكـــوارثِ والمحنِ،فهذا (ستالين) الذي كان يقولُ:(لا إلهَ والحياةُ مادةٌ،والدينُ علقةٌ تمـــتصُّ دمـــاءَ الشعوبِ) يضعفُ أمامَ هولِ الحربِ العالميةِ الثانيةِ،فإذا به يُخرجُ القساوسةَ مـــنَ الســـجنِ حتى يدعونَ له بالنصرِ،ومرةً ثانيةً أمامَ شدةِ المرضِ يرسلُ وراءَ القسيسِ حتى يصـــليَ لـــهُ ويستغفرَ.

د.ومادامتْ ربانيةً فالناسُ أمامها سواءٌ،لا فضلَ لعربيٍّ على عجمـــيٍّ إلا بالتقوَى،فـــاللهُ خالقُ الناسِ أجمعينَ فكلُّهم عبيدُه،وهو لا يفضِّلُ لوناً على لونٍ،الأبيضَ على الأسود – كما هو الحالُ في القانونِ الأمريكيِّ:

قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (١٣) سورة الحجرات

يا أيها الناس.يا أيها المختلفون أجناسا وألوانا،المتفرقون شعوبا وقبائل.إنكم مـــن أصـــل واحد.فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بددا.

---

[١٣] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٥ / ٢٧٦٧)

يا أيها الناس.والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم..من ذكر وأنثى..وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل.إنها ليست التناحر والخصام.إنما هي التعارف والوئام.فأما اختلاف الألسنة والألوان،واختلاف الطباع والأخلاق،واختلاف المواهب والاستعدادات،فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق،بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات.وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان اللّه.إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم،ويعرف به فضل الناس:«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ»..والكريم حقا هو الكريم عند اللّه.وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين:«إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»..

وهكذا تسقط جميع الفوارق،وتسقط جميع القيم،ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة،وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر،وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس.ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون:ألوهية اللّه للجميع،وخلقهم من أصل واحد.كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته:لواء التقوى في ظل اللّه.وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس،والعصبية للأرض،والعصبية للقبيلة،والعصبية للبيت.وكلها من الجاهلية وإليها،تتزيا بشتى الأزياء،وتسمى بشتى الأسماء.وكلها جاهلية عارية من الإسلام! وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها،ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة:راية اللّه..لا راية الوطنية.ولا راية القومية.ولا راية البيت.ولا راية الجنس.فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عَيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ،وَالْفَخْرَ بِالْآبَاءِ،مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ،وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ،النَّاسُ بَنُو آدَمَ،خَلْقُ اللهِ مِنْ تُرَابٍ،لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ فَخْرِهِمْ بِآبَائِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ النَّتْنَ "[١٤]

[١٤] - شعب الإيمان - (٧ / ١٢٥) (٤٧٦٣) صحيح

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ،فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ:يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ:يَا لَلْمُهَاجِرِينَ قَالَ:فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺذَاكَ،فَقَالَ:مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ؟ فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ،فَقَالَ:دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ،فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبَيٍّ ابْنُ سَلُولٍ:قَدْ فَعَلُوهَا،لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ،فَقَالَ عُمَرُ:دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ،فَقَالَ:دَعْهُ،لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ[15]

وعَنْ أَبِى نَضْرَةَ حَدَّثَنِى مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِى وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِىٍّ عَلَى أَعْجَمِىٍّ وَلاَ لِعَجَمِىٍّ عَلَى عَرَبِىٍّ وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ » (أخرجه أحمد)[16] .

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي.المجتمع الإنساني العالمي،الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق أن تحقق لونا من ألوانه فتخفق،لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم..

الطريق إلى اللّه..ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة..راية اللّه..[17]

ولا يفضِّلُ الرجالَ على النساءِ من بابِ قوله تعالى:{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (النحل:٩٧).

إن الجنسين:الذكر والأنثى.متساويان في قاعدة العمل والجزاء،وفي صلتهما باللّه،وفي جزائهما عند اللّه.ومع أن لفظ «من» حين يطلق يشمل الذكر والأنثى إلا أن النص

[15] - صحيح البخارى- المكتر - (٤٩٠٥) وصحيح مسلم- المكتر - (٦٧٤٨) وصحيح ابن حبان - (١٣ / ٣٣٠) (٥٩٩٠)

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ يُرِيدُ أَنَّهُ لاَ قِصَاصَ فِي هَذَا ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ : فَإِنَّهَا ذَمِيمَةٌ ، وَمَا يُشْبِهُهَا.

[16] - برقم(٢٤٢٠٤) وهو صحيح

[17] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٣٤٨)

يفصل:«مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى"لزيادة تقرير هذه الحقيقة.وذلك في السورة التي عرض فيها سوء رأي الجاهلية في الأنثى،وضيق المجتمع بها،واستياء من يبشر بمولدها،وتواريه من القوم حزنا وغما وخجلا وعارا! وأن العمل الصالح لا بد له من القاعدة الأصيلة يرتكز عليها.قاعدة الإيمان باللّه «وَهُوَ مُؤْمِنٌ» فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء،وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته،إنما هو هباء كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

والعقيدة هي المحور الذي تشد إليه الخيوط جميعا،وإلا فهي أنكاث.فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثا وغاية.فتجعل الخير أصيلا ثابتا يستند إلى أصل كبير.لا عارضا مزعزعا يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل.

وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض.لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال.

فقد تكون به،وقد لا يكون معها.وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية:

فيها الاتصال باللّه والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه.وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة،وسكن البيوت ومودات القلوب.وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة..وليس المال إلا عنصرا واحدا يكفي منه القليل،حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند اللّه.

وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة.

وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا،ويتضمن هذا تجاوز اللّه لهم عن السيئات.فما أكرمه من جزاء!.[18]

وليس من باب قوله تعالى:{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ..} (٣٤) سورة النساء

---

[18] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢١٩٣)

إن الأسرة – كما قلنا – هي المؤسسة الأولى في الحياة الإنسانية.الأولى من ناحية أنها نقطة البدء التي تؤثر في كل مراحل الطريق.والأولى من ناحية الأهمية لأنها تزاول إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني،وهو أكرم عناصر هذا الكون،في التصور الإسلامي.

وإذا كانت المؤسسات الأخرى الأقل شأنا،والأرخص سعرا:كالمؤسسات المالية والصناعية والتجارية...

وما إليها...لا يوكل أمرها – عادة – إلا لأكفأ المرشحين لها ممن تخصصوا في هذا الفرع علميا،ودربوا عليه عمليا،فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للإدارة والقوامة...

إذا كان هذا هو الشأن في المؤسسات الأقل شأنا والأرخص سعرا..فأولى أن تتبع هذه القاعدة في مؤسسة الأسرة،التي تنشئ أثمن عناصر الكون..العنصر الإنساني..

والمنهج الرباني يراعي هذا.ويراعي به الفطرة،والاستعدادات الموهوبة لشطري النفس لأداء الوظائف المنوطة بكل منهما وفق هذه الاستعدادات،كما يراعي به العدالة في توزيع الأعباء على شطري النفس الواحدة.

والعدالة في اختصاص كل منهما بنوع الأعباء المهيأ لها،المعان عليها من فطرته واستعداداته المتميزة المتفردة..

والمسلم به ابتداء أن الرجل والمرأة كلاهما من خلق اللّه.وأن اللّه – سبحانه – لا يريد أن يظلم أحدا من خلقه،وهو يهيئه ويعده لوظيفة خاصة،ويمنحه الاستعدادات اللازمة لإحسان هذه الوظيفة! وقد خلق اللّه الناس ذكرا وأنثى..زوجين على أساس القاعدة الكلية في بناء هذا الكون..وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل..وهي وظائف ضخمة أولا وخطيرة ثانيا.وليست هينة ولا يسيرة،بحيث تؤدّى بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثى! فكان عدلا كذلك أن ينوط بالشطر الثاني – الرجل – توفير الحاجات الضرورية.وتوفير الحماية كذلك للأنثى كي تتفرغ لوظيفتها الخطيرة ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل..ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد! وكان عدلا كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينه على

أداء وظائفه هذه.وأن تمنح المرأة في تكوينها العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينها على أداء وظيفتها تلك.

وكان هذا فعلا..ولا يظلم ربك أحدا..

ومن ثم زودت المرأة – فيما زودت به من الخصائص – بالرقة والعطف،وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة – بغير وعي ولا سابق تفكير – لأن الضرورات الإنسانية العميقة كلها – حتى في الفرد الواحد – لم تترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطئه،بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية! لتسهل تلبيتها فورا وفيما يشبه أن يكون قسرا.ولكنه قسر داخلي غير مفروض من الخارج ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان كذلك،لتكون الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة أخرى – مهما يكن فيها من المشقة والتضحية! صنع اللّه الذي أتقن كل شيء.

وهذه الخصائص ليست سطحية.بل هي غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة..بل يقول كبار العلماء المختصين:إنها غائرة في تكوين كل خلية.لأنها عميقة في تكوين الخلية الأولى،التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين،بكل خصائصه الأساسية! وكذلك زود الرجل – فيما زود به من الخصائص – بالخشونة والصلابة،وبطء الانفعال والاستجابة واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة.لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسه في أول عهده بالحياة إلى القتال الذي يمارسه دائما لحماية الزوج والأطفال.إلى تدبير المعاش..إلى سائر تكاليفه في الحياة..لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروي قبل الإقدام وإعمال الفكر،والبطء في الاستجابة بوجه عام!..وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها..

وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامة،وأفضل في مجالها..كما أن تكليفه بالإنفاق – وهو فرع من توزيع الاختصاصات – يجعله بدوره أولى بالقوامة،لأن تدبير المعاش للمؤسسة ومن فيها داخل في هذه القوامة والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها..

وهذان هما العنصران اللذان أبرزهما النص القرآني،وهو يقرر قوامة الرجال على النســـاء في المجتمع الإسلامي.

قوامة لها أسبابها من التكـــوين والاســـتعداد.ولهـــا أســـبابها مـــن توزيـــع الوظـــائف والاختصاصات.ولها أسبابها من العدالة في التوزيع من ناحية وتكليف كل شطر – في هذا التوزيع – بالجانب الميسر له،والذي هو معان عليه من الفطرة.

وأفضليته في مكانها..في الاستعداد للقوامة والدربة عليها..والنهوض بهـــا بأســـبابها..لأن المؤسسة لا تسير بلا قوامة – كسائر المؤسسات الأقل شأنا والأرخص سعرا – ولأن أحد شطري النفس البشرية مهيأ لها،معان عليها،مكلف تكاليفها.وأحد الشطرين غـــير مهيـــأ لها،ولا معان عليها..ومن الظلم أن يحملها ويحمل تكاليفها إلى جانب أعبائه الأخرى..وإذا هو هيىء لها بالاستعدادات الكامنة،ودرب عليها بالتدريب العلمي والعملي،فسد استعداده للقيام بالوظيفة الأخرى..وظيفة الأمومة..لأن لها هي الأخرى مقتضياتها واستعداداتها.وفي مقدمتها سرعة الانفعال،وقرب الاستجابة.فوق الاستعدادات الغائرة في التكوين العضوي والعصبي وآثارها في السلوك والاستجابة! إنها مسائل خطيرة..أخطر من أن تتحكم فيهـــا أهواء البشر..وأخطر من أن تترك لهم يخبطون فيها خبط عشواء..وحـــين تركـــت لهـــم ولأهوائهم في الجاهليات القديمة والجاهليات الحديثة،هددت البشرية تهديـــدا خطـــيرا في وجودها ذاته وفي بقاء الخصائص الإنسانية،التي تقوم بها الحياة الإنسانية وتتميز.

ولعل من الدلائل التي تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكمها ووجود قوانينها المتحكمة في بني الإنسان،حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها..

لعل من هذه الدلائل ما أصاب الحياة البشرية من تخبط وفساد،ومن تدهور وانهيار ومـــن تهديد بالدمار والبوار،في كل مرة خولفت فيها هذه القاعدة.فاهتزت ســـلطة القوامـــة في الأسرة.أو اختلطت معالمها.أو شذت عن قاعدتها الفطرية الأصيلة! ولعل من هذه الدلائل توقان نفس المرأة ذاتها إلى قيام هذه القوامة على أصلها الفطري في الأســـرة.وشـــعورها بالحرمان والنقص والقلق وقلة السعادة عند ما تعيش مع رجل،لا يزاول مهـــام القوامـــة وتنقصه صفاتها اللازمة فيكل إليها هي القوامة! وهي حقيقة ملحوظة تســـلم بهـــا حـــتى

المنحرفات الخابطات في الظلام! ولعل من هذه الدلائل أن الأطفال - الذين ينشأون في مؤسسة عائلية القوامة فيها ليست للأب.إما لأنه ضعيف الشخصية،بحيث تبرز عليه شخصية الأم وتسيطر.وإما لأنه مفقود:لوفاته - أو لعدم وجود أب شرعي! - قلما ينشأون أسوياء.وقل ألا ينحرفوا إلى شذوذ ما،في تكوينهم العصبي والنفسي،وفي سلوكهم العملي والخلقي..

فهذه كلها بعض الدلائل،التي تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكمها،ووجود قوانينها المتحكمة في بني الإنسان،حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها! ولا نستطيع أن نستطرد أكثر من هذا - في سياق الظلال - عن قوامة الرجال ومقوماتها ومبرراتها،وضرورتها وفطريتها كذلك..ولكن ينبغي أن نقول:إن هذه القوامة ليس من شأنها إلغاء شخصية المرأة في البيت ولا في المجتمع الإنساني ولا إلغاء وضعها «المدني» - كما بينا ذلك من قبل - وإنما هي وظيفة - داخل كيان الأسرة - لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة،وصيانتها وحمايتها.ووجود القيم في مؤسسة ما،لا يلغي وجود ولا شخصية ولا حقوق الشركاء فيها،والعاملين في وظائفها.فقد حدد الإسلام في مواضع أخرى صفة قوامة الرجل وما يصاحبها من عطف ورعاية،وصيانة وحماية،وتكاليف في نفسه وماله،وآداب في سلوكه مع زوجه وعياله.[١٩]

فتأمل الفرق..ولا يحابيهم سبحانهُ -لأنَّ الرجلَ والمرأةَ كلَّهم خلقُه- ولا يفضِّلُ طبقةً على طبقةٍ كالأشرافِ على العبيدِ،ولا يفضِّلُ جنساً على جنسٍ،كتفضيلِ العرقِ الآريِّ والجنسِ الأبيضِ على غيره (وألمانيا فوقَ الجميع)،ولذا فهي العقيدةُ الوحيدةُ التي تنصِفُ الناسَ وتعدلُ بينهم،والناسُ يقفونَ فيها على قدمِ المساواةِ حاكمِهم ومحكومِهم سواءٌ.قال تعالى:{ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }.(الأنعام:١١٥)

لقد تمت كلمة اللّه - سبحانه - صدقا - فيما قال وقرر - وعدلا - فيما شرع وحكم - فلم يبق بعد ذلك قول لقائل في عقيدة أو تصور أو أصل أو مبدأ أو قيمة أو ميزان.و لم

---

[١٩] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٦٥٠)

يبق بعد ذلك قول لقائل في شريعة أو حكم،أو عادة أو تقليد..ولا معقب لحكمه ولا مجير عليه..[20]

٢- ومنْ خصائصِ هذه العقيدة أَنها ثابتةٌ:

قال تعالى:{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (١٨) سورة الجاثية.

إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف،وما عداها أهواء منبعها الجهل.وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها،ويدع الأهواء كلها.وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء.

فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من اللّه صاحب الشريعة.وهم إلب عليه فبعضهم ولي لبعض.

وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة له أو جنوحا عن الهوى الذي يربط بينهم برباطه.ولكنهم أضعف من أن يؤذوه.واللّه ولي المتقين.وأين ولاية من ولاية؟ وأين ضعاف جهال مهازيل يتولى بعضهم بعضا من صاحب شريعة يتولاه اللّه.ولي المتقين؟[21]

وثباتُ العقيدةِ ناتجٌ عن أنها منزلةٌ من عندِ الله،وقد انقطعَ الوحيُ بالتحاقِ رسول الله ﷺبالرفيقِ الأعلى منَ الجنة،وبقيتْ النصوصُ ثابتةً إلى يوم الدينِ لا ينسخُها ناسخٌ ولا يبدِّلُها كافرٌ.فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا:كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي،وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ"(أخرجه الحاكم في المستدرك)[22].

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ،قَالَ:وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺمَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ،وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ،قُلْنَا:يَا رَسُولَ الله،إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ

[20] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٣ / ١١٩٥)

[21] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٥ / ٣٢٢٩)

[22] - برقم(٣١٩) وهو صحيح

مُوَدِّعٍ،فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ قَالَ:قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ هَالِكٌ،وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ،فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ،وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ،وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ."[23]

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،قَالَ:خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺوَنَحْنُ نَذْكُرُ الْفَقْرَ وَنَتَخَوَّفُهُ،فَقَالَ:آلْفَقْرَ تَخَافُونَ ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَتُصَبَّنَّ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا،حَتَّى لاَ يُزِيغَ قَلْبَ أَحَدِكُمْ إِزَاغَةً إِلاَّ هِيَهْ،وَايْمُ اللهِ،لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ،لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ.

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:صَدَقَ وَاللَّهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،تَرَكَنَا وَاللَّهِ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ،لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ.[24]

والإنسانُ يتحركُ ويتطورُ وينمو،ولكنْ داخلَ إطارِ العقيدةِ الثابتِ الذي يتسعُ لحركةِ الإنسان ونموِّه،وإذا خرجَ الإنسانُ من الإطار الثابتِ فإنهُ يسبحُ كالنجمِ الذي يفلتُ من مداره،ويسيرُ إلى نهايته التي تؤدِّي إلى اصطدامه بكوكبِ آخرَ،فيتحطَّمُ ويحطِّمُ معهُ غيرَه.

ولا بدَّ من شيءٍ ثابتٍ يرجع الناسُ إليه،حتى يطمئنُّوا ويستريحوا ،ويكونَ عندهم مقياسٌ يعرفونَ طولَ الأشياء وعرضها ووزنها،أما الذين يقولونَ بأنَّ كلَّ شيءٍ متطورٌ في الحياةِ حتَّى الدينَ والأخلاقَ والنظمَ،فهذا يؤدِّي إلى فوضَى كبيرة،فلا نعرفُ الحكمَ على أيِّ شيءٍ،ولأضربَ مثلاً:الزنا مثلا ثابتةٌ حرمتُه وبشاعتُه في الرسالاتِ التي نزلت منْ عندِ الله،فلا يختلفُ في هذه القضيةِ اثنان.فإذا كانَ المقياسُ الذي حكمنا به على الزِّنا أنهُ قبيحٌ ثابتٌ،فإنَّ الزنا يبقَى بشعاً،ويستقرُّ في ذهنِ الأجيالِ أنَّ هذا الحكمَ ثابتٌ لا يتغيرُ،فتتربَّى قلوبُهم على كراهية الزنا واحتقاره.

أمَّا إذا كانَ القانونُ والدِّينُ غيرَ ثابتين،وكانا متطورين،فإنه يعني أنَّ الزنا كانَ بشعاً في فترةٍ من الفترات،ولكنَّ الزنا الآنَ في عرفِ الذينَ يقولونَ بتطوِّر الأخلاقِ- مثل ُ(فرويد)- ضرورةً بيولوجيةً لا بدَّ منها.

---

[23] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٨٤١)(١٧١٤٢) ١٧٢٧٢- صحيح

[24] - سنن ابن ماجة- ط- الرسالة - (١ / ٥)(٥) وصحيح الجامع (٩) صحيح لغيره

وكذلك سترُ العوراتِ وتغطيةُ اللحم باللباسِ -خاصةً من قبلِ النساء- كانَ أمراً طبيعياً وثابتاً في الأخلاقِ والأديان،ويبقَى ثابتاً إلى يوم الدين،أمَّا في الأخلاق المتطورة فلقدْ كانَ سترُ العورةِ مستحسناً في عصرٍ منَ العصور،ثم جاءَ القرنُ العشرينُ ورأى أنَّ سترَ العورةِ شيءٌ مستقبحٌ،وأصبحَ أصحابَهُ ينادونَ بكشفِ العورةِ في أجهزةِ إعلامهم وأبواقهم التي تفوحُ منها رائحةُ الخبثِ والكيد والغدرِ بهذا الكائنِ الإنسانيِّ الذي يريدونَ تحطيمَهُ.

وثباتُ العقيدةِ يضعُ ميزاناً ثابتاً يقيسُ الناسَ،فالميزانُ واحدٌ،الكيلو في هذا الميزان تساوي (١٠٠٠) غم،فإذا جئنا نزنُ شخصاً فإننا نضعُه في هذا الميزانِ الواحدِ،ونضعُ مقابلَهُ كيلواتٍ حتى نعرفَ وزنهُ،وهنا يكونُ الحكم صحيحاً على وزن جميع الناسِ،لأن الوزنَ واحدٌ والعيارَ واحدٌ،فإذا جاءَ قومٌ وغيَّروا الميزانَ،وقالوا عن الكيلو إنها قنطارٌ،فإنَّ الشخصَ الذي يزنُ سبعينَ كيلو غراماً في الميزانِ الأولِ هو نفسه يزنُ سبعين قنطاراً في الميزانِ الثاني،والشخصُ هو الشخصُ.

وعندما يختلفُ الميزانُ لا يمكنُ أن يكونَ الحكمُ صحيحاً،ولذا فإنَّ الرجل عندَ الناس يكونُ مبجلاً مطاعاً محترماً لأنه ثقيلٌ في ميزانهم،ولكنْ عندما نضعُه في ميزانِ الله الثابت فإنه قدْ لا يزنُ شيئا،فمثلاً الوليدُ بنُ المغيرةِ كانتْ قريشٌ تعتبرهُ زعيماً وتقول:{ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ }.(الزخرف:٣١)

ولكنَّ اللهَ تعالى يقول عنهُ وعن أمثاله:{وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) } [القلم/١٠-١٥].

ويقول:{ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }.(الأنفال:٥٥).

فقريشٌ لا تقطعُ أمراً إلا بعدَ استشارته واستنصاحه،واللهُ يسميه دابةً،والمؤمنونَ يعتبرونَهُ دابَّةً،بلْ أقلَّ منَ الدابَّةِ:قال تعالى عنه وعن أمثاله:{ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ }.(الأعراف:١٧٩).

ولفظ «الدواب» وإن كان يشمل كل ما دب على الأرض،فيشمل الأناسي فيما يشمل،إلا أنه – كما أسلفنا – يلقي ظلا خاصا حين يطلق على الآدميين..ظل البهيمة..ثم

يصبح هؤلاء الآدميون شر البهيمة التي تدب على الأرض! وهؤلاء هم الذين كفروا حتى بلغ بهم الكفر ألا يصير حالهم إلى الإيمان! وهم الذين ينقضون عهدهم في كل مرة ولا يتقون اللّه في مرة!

فهؤلاء الذين كفروا ولجّوا في الكفر «فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»..ففسدت بذلك فطرهم،وباتوا بذلك شر الدواب عند اللّه.هؤلاء الذين ينقضون كل عهد أبرموه،فتجردوا بذلك من خصيصة إنسانية أخرى – خصيصة التقيد بالعهد – وانطلقوا من كل قيد،كما تنطلق البهيمة،لولا أن البهيمة مقيدة بضوابط فطرتها،وهؤلاء لا ضابط لهم.فهم بذلك شر الدواب عند اللّه![25]

وقال تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} (٢٢) سورة الأنفال

إنهم لدواب بهذا الظل.بل هم شر الدواب! فالبهائم لها آذان ولكنها لا تسمع إلا كلمات مبهمة ولها لسان ولكنها لا تنطق أصواتا مفهومة.إلا أن البهائم مهتدية بفطرتها فيما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية.

أما هؤلاء الدواب فهم موكولون إلى إدراكهم الذي لا ينتفعون به.فهم شر الدواب قطعا! «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّه الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ»..

«وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ»..أي لأسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم..ولكنه – سبحانه – لم يعلم فيهم خيرا ولا رغبة في الهدى فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقي والاستجابة فلم يفتح اللّه عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم،وما أفسدوا هم من فطرتهم.ولو جعلهم اللّه يدركون بعقولهم حقيقة ما يدعون إليه،ما فتحوا قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا..«وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ»...لأن العقل قد يدرك،ولكن القلب المطموس لا يستجيب.فحتى لو أسمعهم اللّه سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة.والاستجابة هي السماع الصحيح.وكم من ناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب![26]

---

[25] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٣ / ١٥٤١)

[26] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٣ / ١٤٩٣)

وثباتُ العقيدة يجعلُها أصلاً يرجعُ الناس إليه حاكمُهم ومحكومُهم علـــى الســـواء،والناسُ يستريحونَ ويسعدونَ،لأنَّ الحاكمَ لا يستطيعُ أن يظلمَ الناس،ويقولَ قبل أن يظلمَهم:غيرتُ القانونَ،ولا يستطيعُ المحكومونَ أن يقولوا للحاكمِ:نحن لا نعرفُ القانونَ لأنهُ جديدٌ.

ولكنه إذا كانَ ثابتاً،فإنَّ الناسَ يتربونَ منذُ نعومةِ أظفارهم على معرفته،ويكونُ النظامُ حيًّا في نفوسهِم،ويعيشُ في حسِّهم.فلا يستطيعُ الحاكمُ في الدِّينِ الربانيِّ أن ْيدعيَ أنَّ الظروفَ طارئةٌ،ولا أنْ يقولَ:أحكامٌ عسكريةٌ يوقفُ بها تطبيقَ دينِ الله،وتحتَ هذه الأسمـــاءِ ووراءَ هذه الشعاراتِ تسفكُ الدماءُ،وتداسُ الكرامةُ،وتنتهكُ الحرمةُ،وهذا هو شأنُ جميعِ الأنظمة الوضعيةِ الأرضيةِ،أو بتعبيرٍ أدقَّ (الأديانُ الأرضيةُ) الـــتي اخترعَهـــا البشـــرُ مـــنْ عنـــد أنفسهِم،وأبرزُ ما تكونُ هذه الظاهرةُ في الأنظمةِ العسكريةِ والانقلاباتِ الثوريةِ،ففي كلِّ انقلابٍ قانونٌ جديدٌ،وفي كلِّ مرةٍ تُنصَبُ المشانقُ وتعلَّقُ على أعوادٍ في الأســـواقِ،ودعكَ عنِ التحقيقاتِ مع النساءِ في الظلامِ،والناسُ الذين يدفَنونَ أحياءً،أو يوضعونَ في براميـــلِ النيتريك،حتى يذوبوا ثم يطالَبُ أهلُهم بهم لأنهم فرُّوا منَ السجنِ!!

وفي كلِّ مرةٍ يغيَّرُ فيها النظامُ تفقدُ البلدُ أعزَّ أبنائها،وأقدرَ كفاءاتها،وأعلى طاقاتهـــا،وأثمنَ ما لديها ،وهمُ العيناتُ من الشبابِ والمفكرينَ والقادة وغيرهم.[٢٧]

وثباتُ العقيدةِ الربانيةِ يجعلُ الناسَ جميعاً تحت ظلِّ الدستورِ والحكمِ،وليسَ هنالك حـــاكمٌ فوقَ القانونِ ومحكومٌ تحتَ القانونِ،ونظامٌ يسري على الحاكمِ،ونظامٌ يسري على المحكومِ.

فالله –سبحانه وتعالى– هو الذي...{ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } (الأنبياء:٢٣)

متى كان المسيطر على الوجود كله يسأل ومن ذا الذي يســـأله وهـــو القـــاهر فـــوق عباده،وإرادته طليقة لا يحدها قيد من إرادة أخرى،ولا حتى من الناموس الذي ترتضيه هي وتتخذه حاكما لنظام الوجود؟

والسؤال والحساب إنما يكونان بناء على حدود ترسم ومقياس يوضع.والإرادة الطليقة هي التي تضع الحدود والمقاييس،ولا تتقيد بما تضع للكون من الحـــدود والمقـــاييس إلا كمـــا تريد.والخلق مأخوذون بما تضع لهم من تلك الحدود فهم يسألون.

---

[٢٧] – العقيدة وأثرها في بناء الجيل، لعبد الله عزام رحمه الله، (١/٤٤-٥٢) بتصرف.

وإن الخلق ليستبد بهم الغرور أحيانا فيسألون سؤال المنكر المتعجب:ولما ذا صنع اللّه كذا.وما الحكمة في هذا الصنيع؟ وكأنما يريدون ليقولوا:إنهم لا يجدون الحكمة في ذلك الصنيع! وهم يتجاوزون في هذا حدود الأدب الواجب في حق المعبود،كما يتجاوزون حدود الإدراك الإنساني القاصر الذي لا يعرف العلل والأسباب والغايات وهو محصور في حيزه المحدود..إن الذي يعلم كل شي ء،ويدبر كل شي ء،ويسيطر على كل شي ء،هو الذي يقدر ويدبر ويحكم.[٢٨]

إن الإسلام يعتبر أن الأصل الوحيد الذي يقوم عليه التشريع للناس هو أمر اللّه وإذنه.باعتبار أنه هو مصدر السلطان الأول والأخير.فكل ما لم يقم ابتداء على هذا الأصل فهو باطل بطلانا أصليا،غير قابل للتصحيح المستأنف.فالجاهلية بكل ما فيها - والجاهلية هي كل وضع لا يستمد وجوده من ذلك الأصل الوحيد الصحيح - باطلة بطلانا أصليا.باطلة بكل تصوراتها وقيمها وموازينها وعرفها وتقاليدها وشرائعها وقوانينها.والإسلام حين يسيطر على الحياة ويصرفها،يأخذ الحياة جملة،ويأخذ الأمر جملة فيسقط ابتداء كل أوضاع الجاهلية وكل قيمها،وكل عرفها،وكل شرائعها لأنها باطلة بطلانا أصليا غير قابل للتصحيح المستأنف..

فإذا أقر عرفا كان سائدا في الجاهلية،فهو لا يقره بأصله الجاهلي مستندا إلى هذا الأصل.إنما هو يقرره ابتداء بسلطانه المستمد من أمر اللّه وإذنه.أما ذلك الذي كان في الجاهلية فقد سقط و لم يعد له وجود من الناحية الشرعية.

كذلك حين يحيل الفقه الإسلامي على «العرف» في بعض المسائل فهو يمنح العرف ابتداء سلطانا من عنده هو - بأمر اللّه - فتصبح للعرف - في هذه المسائل - قوة الشريعة،استمدادا من سلطان الشارع - وهو اللّه - لا استمدادا من الناس ومن البيئة التي تواضعت على هذا العرف من قبل.فليس تواضع البيئة على هذا العرف هو الذي يمنحه السلطان..كلا..إنما الذي يمنحه السلطان هو اعتبار الشارع إياه مصدرا في بعض المسائل.وإلا بقي على بطلانه الأصلي،لأنه لم يستمد من أمر اللّه.وهو وحده مصدر

[٢٨] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢٣٧٤)

السلطان.وهو يقول عما كانت الجاهلية تشرعه مما لم يأذن به اللّه:«أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ؟» فيشير إلى أن اللّه وحده هو الذي يشرع.فهل لهم آلهة شرعت لهم ما لم يأذن به اللّه؟[٢٩]

وقال تعالى:{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (٢١) سورة الشورى

فليس لأحد من خلق اللّه أن يشرع غير ما شرعه اللّه وأذن به كائنا من كان فاللّه وحده هو الذي يشرع لعباده.

بما أنه – سبحانه – هو مبدع هذا الكون كله،ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التي اختارها له.والحياة البشرية إن هي إلا ترس صغير في عجلة هذا الكون الكبير،فينبغي أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع لها المحيط بتلك النواميس.وكل من عدا اللّه قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال.

فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور.

ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البداهة فإن الكثيرين يجادلون فيها،أو لا يقتنعون بها،وهم يجرؤون على استمداد التشريع من غير ما شرع اللّه،زاعمين أنهم يختارون الخير لشعوبهم،ويوائمون بين ظروفهم والتشريع الذي ينشئونه من عند أنفسهم.كأنما هم أعلم من اللّه وأحكم من اللّه! أو كأنما لهم شركاء من دون اللّه يشرعون لهم ما لم يأذن به اللّه! وليس أخيب من ذلك ولا أجرا على اللّه! لقد شرع اللّه للبشرية ما يعلم سبحانه،أنه يتناسق مع طبيعتها وفطرتها وطبيعة الكون الذي تعيش فيه وفطرته.

ومن ثم يحقق لهذه البشرية أقصى درجات التعاون فيما بينها،والتعاون كذلك مع القوى الكونية الكبرى.شرع في هذا كله أصولا،وترك للبشر فقط استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجات الحياة المتجددة،في حدود المنهج الكلي والتشريعات العامة.فإذا ما اختلف البشر في شيء من هذا ردوه إلى اللّه ورجعوا به إلى تلك الأصول الكلية التي شرعها للناس،لتبقى ميزانا يزن به البشر كل تشريع جزئي وكل تطبيق.

---

[٢٩] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ٦٢٣)

بذلك يتوحد مصدر التشريع،ويكون الحكم للّه وحده.وهو خير الحاكمين.وما عدا هـذا النهج فهو خروج على شريعة اللّه،وعلى دين اللّه،وعلى ما وصى بـه نوحـا وإبـراهيم وموسى وعيسى ومحمدا عليهم الصلاة والسّلام.«وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ»..فقد قال اللّه كلمة الفصل بإمهالهم إلى يوم القول الفصل.ولولاها لقضى اللّـه بينهم،فأخـذ المخالفين لما شرعه اللّه،المتبعين لشرع من عداه.لأخذهم بالجزاء العاجل.ولكنه أمهلهم ليوم الجزاء.

«وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ»..فهذا هو الذي ينتظرهم جزاء الظلم.وهل أظلـم مـن المخالفة عن شرع اللّه إلى شرع من عداه؟[30]

أمَّا الخليفةُ والأميرُ والحاكمُ فهم جميعاً خلقُ اللهِ،ويعبدونَ اللهَ بتنفيذِ هذا القانونِ الربانيِّ،فما داموا منْ خلقِ اللهِ فهمْ عبيدٌ،وليسوا آلهةً لا يُسألونَ.

إن الناس لا يؤمنون – ابتداء – إلا أن يتحاكموا إلى منهج اللّه ممثلا – في حياة الرسـول ﷺ- في أحكام الرسول.وباقيا بعده في مصدريه القرآن والسنة بالبداهـة ولا يكفـي أن يتحاكموا إليه – ليحسبوا مؤمنين – بل لا بد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين:«فَلا وَرَبِّكَ..لا يُؤْمِنُونَ..حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ،ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً»..فهذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام.

ويقول لها:إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت – أي إلى غير شريعة اللّـه – لا يقبل منهم زعمهم أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنـزل مـن قبلـه.فهـو زعـم كاذب.يكذبه أنّهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت:«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُـمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ،يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ – وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ – وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً».

ويقول لها:إن علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل اللّه والتحاكم إلى رسـول اللّه:«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ:تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ،رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُـدُّونَ عَنْـكَ صُدُوداً».

[30] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٥ / ٣١٥٢)

ويقول لها:إن منهجها الإيماني ونظامها الأساسي،أن تطيع اللّه – عز وجـــل – في هـــذا القرآن – وأن تطيع رسول اللّه – ﷺ- في سنته – وأولي الأمر من المؤمنين الـــداخلين في شرط الإيمان وحد الإسلام معكم:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ،وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»..

ويقول لها:إن المرجع،فيما تختلف فيه وجهات النظر في المسائل الطارئة المتجددة،والأقضية التي لم ترد فيها أحكام نصية..إن المرجع هو اللّه ورســـوله..أي شـــريعة اللّـــه وســـنة رسوله:«فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ،فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ»..

وبهذا يبقى المنهج الرباني مهيمنا على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية كذلك،أبد الدهر،في حياة الأمة المسلمة..وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي،الذي لا تكون مؤمنـــة إلا به،ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه..إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك،ورد المسائل التي تجد وتختلف فيها وجهات النظر إلى اللّه ورسوله..شرط الإيمان وحد الإســـلام..شـــرطا واضحا ونصا صريحا:«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»..

ولا ننس ما سبق بيانه عند قوله تعالى:«إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ،وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِـــكَ لِمَنْ يَشاءُ»..

من أن اليهود وصموا بالشرك باللّه،لأنهم كانوا يتخذون أحبارهم أربابا من دون اللّه – لا لأنهم عبدوهم – ولكن لأنهم قبلوا منهم التحليل والتحريم ومنحـــوهم حـــق الحاكميـــة والتشريع – ابتداء من عند أنفسهم – فجعلوا بذلك مشركين..الشرك الذي يغفر اللّه كل ما عداه.حتى الكبائر..«وإن زنى وإن سرق.وإن شرب الخمر»..فرد الأمر كله إلى إفـــراد اللّه – سبحانه – بالألوهية.ومن ثم إفراده بالحاكمية.فهي أخص خصائص الألوهية.وداخل هذا النطاق يبقى المسلم مسلما ويبقى المؤمن مؤمنا.ويطمع أن يغفر لـــه ذنوبـــه ومنـــها كبائره..أما خارج هذا النطاق فهو الشرك الذي لا يغفره اللّه أبدا..إذ هو شرط الإيمـــان وحد الإسلام.«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ..»[٣١]

---

[٣١] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ٦٨٧)

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} (٥٩) سورة النساء

وفي هذا النص القصير يبين اللّه – سبحانه – شرط الإيمان وحد الإسلام.في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة وقاعدة الحكم،ومصدر السلطان..وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من اللّه وحده والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصا،من جزئيات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام..ليكون هنالك الميزان الثابت،الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام! إن «الحاكمية» للّه وحده في حياة البشر – ما جل منها وما دق،وما كبر منها وما صغر – واللّه قد سن شريعة أودعها قرآنه.وأرسل بها رسولا يبينها للناس.ولا ينطق عن الهوى.فسنته – ﷺ– من ثم شريعة من شريعة اللّه.

واللّه واجب الطاعة.ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة.فشزيعته واجبة التنفيذ.وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا اللّه – ابتداء – وأن يطيعوا الرسول – بما له من هذه الصفة.صفة الرسالة من اللّه – فطاعته إذن من طاعة اللّه،الذي أرسله بهذه الشريعة،وببيانها للناس في سنته..وسنته وقضاؤه – على هذا – جزء من الشريعة واجب النفاذ..والإيمان يتعلق – وجودا وعدما – بهذه الطاعة وهذا التنفيذ – بنص القرآن:«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»..

فأما أولو الأمر فالنص يعين من هم.«وَأُولِي الْأَمْرِ..مِنْكُمْ..» أي من المؤمنين..الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية..من طاعة اللّه وطاعة الرسول وإفراد اللّه – سبحانه – بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء والتلقي منه وحده – فيما نص عليه – والرجوع إليه أيضا فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء،مما لم يرد فيه نص لتطبيق المبادئ العامة في النصوص عليه.

والنص يجعل طاعة اللّه أصلا وطاعة رسوله أصلا كذلك – بما أنه مرسل منه – ويجعل طاعة أولي الأمر..

منكم..تبعا لطاعة اللّه وطاعة رسوله.فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم،كما كررها عند ذكر الرسول – ﷺ– ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة اللّه وطاعة رسوله – بعد أن قرر أنهم «منكم» بقيد الإيمان وشرطه..

وطاعة أولي الأمر..منكم..بعد هذه التقريرات كلها،في حدود المعروف المشروع من اللّه،والذي لم يرد نص بحرمته ولا يكون من المحرم عند ما يرد إلى مبادئ شريعته،عند الاختلاف فيه..والسنة تقرر حدود هذه الطاعة،على وجه الجزم واليقين:

فعَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِب،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺجَيْشًا،وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً،فَأَوْقَدَ نَارًا،فَقَالَ:ادْخُلُوهَا،فَأَرَادَ نَاسٌ أَنْ يَدْخُلُوهَا،وَقَالَ آخَرُونَ:إِنَّا فَرَرْنَا مِنْهَا،فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا:لَوْ دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،أَوْ قَالَ:أَبَدًا،وَقَالَ لِلآخَرِينَ:خَيْرًا،وَقَالَ:أَحْسَنْتُمْ،لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ.[32]

وعَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِب،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:لاَ طَاعَةَ لِبَشَرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلاَ.[33]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:السَّمْعُ،وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ فِيمَا أَحَبَّ،أَوْ كَرِهَ،إِلاَّ أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ،فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ.[34]

وعن يَحْيَى بْنِ حُصَيْنِ بْنِ عُرْوَةَ،قَالَ:حَدَّثَتْنِي جَدَّتِي قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:وَلَوْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا.[35]

وعَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ جَدَّتِه،قَالَتْ: حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ،قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺقَوْلا كَثِيرًا،ثُمَّ كَانَ فِيمَا يَقُولُ: إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ،قَالَ: أُرَاهَا قَالَتْ: أَسْوَدُ يُقِيمُ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ،فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا [36]

---

[32] -صحيح البخارى- المكتر - (٧١٤٥) وصحيح مسلم- المكتر - (٤٨٧١) و صحيح ابن حبان - (١٠ / ٤٢٩)(٤٥٦٧)

[33] - صحيح ابن حبان - (١٠ / ٤٣٠) (٤٥٦٨) صحيح

[34] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٢ / ٢٥٨)(٤٦٦٨) وصحيح البخارى- المكتر - (٧١٤٤)

[35] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٦٩٦)(١٦٦٤٦) ١٦٧٦٣- وصحيح مسلم- المكتر - (٤٨٦٤)

[36] - مسند أبي عوانة (٥٧١١) صحيح

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أمينا على شريعة اللّه وسنة رسوله.أمينـــا علـــى إيمانـــه هـــو ودينه.أمينا على نفسه وعقله.

أمينا على مصيره في الدنيا والآخرة..ولا يجعله بهيمة في القطيع تزجر من هنا أو من هنـــا فتسمع وتطيع! فالمنهج واضح،وحدود الطاعة واضحة.والشريعة التي تطاع والسنة الـــتي تتبع واحدة لا تتعدد،ولا تتفرق،ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون! ذلك فيما ورد فيه نـــص صريح.فأما الذي لم يرد فيه نص.وأما الذي يعرض من المشكلات والأقضية،على مـــدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات – ولا يكون فيه نص قاطع،أو لا يكون فيـــه نص على الإطلاق..مما تختلف في تقديره العقول والآراء والأفهام – فإنه لم يترك كـــذلك تيها.و لم يترك بلا ميزان.

و لم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع..ووضع هذا الـــنص القصـــير،منهج الاجتـــهاد كله،وحدده بحدوده وأقام «الأصل» الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضا.«فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِـــي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ»..ردوه إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمنا.فإن لم توجـــد النصوص التي تنطبق على هذا النحو،فردوه إلى المبادئ الكليـــة العامـــة في منـــهج اللّـــه وشريعته..وهذه ليست عائمة،ولا فوضى،ولا هي من المجهلات التي تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول.وهناك – في هذا الدين – مبادئ أساسية واضحة كـــل الوضوح،تغطي كل جوانب الحياة الأساسية،وتضع لها سياجا خرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين.

«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»..تلك الطاعة للّه والطاعة للرســـول،ولأولي الأمـــر المؤمنين القائمين على شريعة اللّه وســـنة الرســـول..ورد مـــا يتنـــازع فيـــه إلى اللّـــه والرسول..هذه وتلك شرط الإيمان باللّه واليوم الآخر.كما أنها مقتضى الإيمان باللّه واليوم الآخر..

فلا يوجد الإيمان ابتداء وهذا الشرط مفقود..ولا يوجد الإيمان،ثم يتخلـــف عنـــه أثـــره الأكيد.

وبعد أن يضع النص المسألة في هذا الوضع الشرطي،يقدمها مرة أخرى في صورة «العظة» والترغيب والتحبيب على نحو ما صنع في الأمر بالأمانة والعدل ثم التحبيب فيها والترغيب:«ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا»..

ذلك خير لكم وأحسن مآلا.خير في الدنيا وخير في الآخرة.وأحسن مآلا في الدنيا وأحسن مآلا في الآخرة كذلك..فليست المسألة أن اتباع هذا المنهج يؤدي إلى رضاء اللّه وثواب الآخرة – وهو أمر هائل،عظيم – ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا وحسن مآل الفرد والجماعة في هذه الحياة القريبة.

إن هذا المنهج معناه:أن يستمتع «الإنسان» بمزايا منهج يضعه له اللّه..اللّه الصانع الحكيم العليم البصير الخبير..منهج بريء من جهل الإنسان،وهوى الإنسان،وضعف الإنسان.وشهوة الإنسان..منهج لا محاباة فيه لفرد،ولا لطبقة،ولا لشعب،ولا لجنس،ولا لجيل من البشر على جيل..لأن اللّه رب الجميع،ولا تخالجه – سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا – شهوة المحاباة لفرد،أو طبقة،أو شعب،أو جنس،أو جيل.

ومنهج من مزاياه،أن صانعه هو صانع هذا الإنسان..الذي يعلم حقيقة فطرته،والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة،كما يعلم منحنيات نفسه ودروبها ووسائل خطابها وإصلاحها،فلا يخبط – سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا – في تيه التجارب بحثا عن منهج يوافق.ولا يكلف البشر ثمن هذه التجارب القاسية،حين يخبطون هم في التيه بلا دليل! وحسبهم أن يجربوا في ميدان الإبداع المادي ما يشاءون.فهو مجال فسيح جد فسيح للعقل البشري.وحسبهم كذلك أن يحاول هذا العقل تطبيق ذلك المنهج ويدرك مواضع القياس والاجتهاد فيما تتنازع فيه العقول.

ومنهج من مزاياه أن صانعه هو صانع هذا الكون،الذي يعيش فيه الإنسان.فهو يضمن للإنسان منهجا تتلاءم قواعده مع نواميس الكون فلا يروح يعارك هذه النواميس.بل يروح يتعرف إليها،ويصادقها،وينتفع بها..والمنهج يهديه في هذا كله ويحميه.

ومنهج من مزاياه أنه – في الوقت الذي يهدي فيه الإنسان ويحميه – يكرمه ويحترمه ويجعل لعقله مكانا للعمل في المنهج..مكان الاجتهاد في فهم النصوص الواردة.ثم الاجتهاد

في رد ما لم يرد فيه نص إلى النصوص أو إلى المبادئ العامة للدين..ذلك إلى المجال الأصيل،الذي يحكمه العقل البشري،ويعلن فيه سيادته الكاملة:ميدان البحث العلمي في الكون والإبداع المادي فيه ..«ذلكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا»..وصدق اللّه العظيم.[37].

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:" أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ،وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،وَلَكِنَّهُ نَزَلَ الْقُرْآنُ،وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺ،وَعَلَّمَنَا فَعَمِلْنَا،وَاعْلَمُنَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ الْهُدَى"أَوْ قَالَ:" التُّقَى "،شَكَّ أَبُو عُبَيْدٍ،قَالَ:وَأَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ:التُّقَى -"وَأَنَّ أَعْجَزَ الْعَجْزِ الْفُجُورُ،وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ،وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ أَنَا زُغْتُ فَقَوِّمُونِي أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ "[38]

وعن هِشَامَ بْنِ عُرْوَةَ ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:" لَمَّا وَلِيَ أَبُو بَكْرٍ خَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:" أَمَّا بَعْدُ،أَيُّهَا النَّاسُ،قَدْ وَلِيتُ أَمْرَكُمْ،وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،وَلَكِنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ،وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺالسُّنَنَ،فَعَلَّمَنَا فَعَلِمْنَا،اعْلَمُوا أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التَّقْوَى،وَأَنَّ أَحْمَقَ الْحُمْقِ الْفُجُورَ،وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِيَ الضَّعِيفُ حَتَّى آخذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِيَ الْقَوِيُّ حَتَّى آخذَ مِنْهُ "[39]

٣- ومنْ خصائصِ هذه العقيدة واضحة:

فالعقيدةُ الإسلاميةُ عقيدةٌ واضحةٌ لا غموضَ فيها ولا تعقيدٌ،فهي تتلخصُ في أنَّ لهذه المخلوقاتِ إلهاً واحداً مستحقًّا للعبادةِ هو اللهُ تعالى،الذي خلقَ الكونَ البديعَ المنسَّقَ،وقدَّرَ كلَّ شيءٍ فيه تقديرا،وأنَّ هذا الإلهَ ليسَ له شريكٌ ولا شبيهٌ ولا صاحبةٌ ولا ولدٌ.

فهذا الوضوحُ يناسبُ العقلَ السليمَ،لأنَّ العقلَ- دائماً -يطلبُ الترابطَ والوحدةَ عندَ التنوعِ والكثرةِ،ويريدُ أنْ يُرجعَ الأشياءَ المختلفةَ إلى سببٍ واحدٍ.

---

[37] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٦٩٠)

[38] - الْأَمْوَالُ لِلْقَاسِمِ بْنِ سَلَّامٍ (٦) صحيح لغيره

[39] - الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ (٣١٥٥) صحيح مرسل

قال تعالى: {وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} (١١٦) سورة البقرة.

وهذه المقولة الفاسدة: «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً»..ليست مقولة النصارى وحدهم في المسيح،فهي كذلك مقولة اليهود في العزير.كما كانت مقولة المشركين في الملائكة.و لم تفصل الآية هنا هذه المقولات،لأن السياق سياق إجمال للفرق الثلاث التي كانت تناهض الإسلام يومئذ في الجزيرة – ومن عجب أنها لا تزال هي التي تناهضه اليوم تماما،ممثلة في الصهيونية العالمية والصليبية العالمية،والشيوعية العالمية،وهي أشد كفرا من المشركين في ذلك الحين! – ومن هذا الإدماج تسقط دعوى اليهود والنصارى في أنهم وحدهم المهتدون وها هم أولاء يستوون مع المشركين! وقبل أن يمضي إلى الجوانب الفاسدة الأخرى من تصورهم لشأن اللّه – سبحانه – يبادر بتتريه اللّه عن هذا التصور،وبيان حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعا: «سُبْحانَهُ! بَلْ لَهُ ما فِي السَّماوات وَالْأَرْضِ،كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ.بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ.فَيَكُونُ»..

هنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن اللّه سبحانه،وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه،وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق،وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعا..لقد صدر الكون عن خالقه،عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة: «كُنْ،فَيَكُونُ»..فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن،على الصورة المقدرة له،بدون وسيط من قوة أو مادة..أما كيف تتصل هذه الإرادة التي لا نعرف كنهها،بذلك الكائن المراد صدوره عنها،فذلك هو السر الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه،لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه.وهي غير مهيأة لإدراكه لأنه لا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها وهي خلافة الأرض وعمارتها..وبقدر ما وهب اللّه للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التي تفيده في مهمته،وسخر له الانتفاع بها،بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى..ولقد ضربت الفلسفات في تيه لا منارة فيه،وهي تحاول كشف هذه الأسرار وتفترض فروضا تنبع من الإدراك البشري الذي لم يهيأ لهذا المجال،و لم يزود أصلا بأدوات المعرفة فيه

والارتياد.فتجيء هذه الفروض مضحكة في أرفع مستوياتها.مضحكة إلى حد يحير الإنسان:كيف يصدر هذا عن «فيلسوف»! وما ذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشري عن طبيعة خلقته،وأن يتجاوزوا به نطاقه المقدور له! فلم ينتهوا إلى شيء يطمأن إليه بل لم يصلوا إلى شيء يمكن أن يحترمه من يرى التصور الإسلامي ويعيش في ظله.وعصم الإسلام أهله المؤمنين بحقيقته أن يضربوا في هذا التيه بلا دليل،وأن يحاولوا هذه المحاولة الفاشلة،الخاطئة المنهج ابتداء.

فلما أن أراد بعض متفلسفتهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغريقية - على وجه خاص - أن يتطاولوا إلى ذلك المرتقى،باءوا بالتعقيد والتخليط،كما باء أساتذتهم الإغريق! ودسوا في التفكير الإسلامي ما ليس من طبيعته،وفي التصور الإسلامي ما ليس من حقيقته..وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشري وراء مجاله،وفوق طبيعة خلقته وتكوينه..

والنظرية الإسلامية:أن الخلق غير الخالق.وأن الخالق ليس كمثله شيء..ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة:«وحدة الوجود» على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح - أي بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة - أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق،أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده..أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس..والوجود وحدة في نظر المسلم على معنى آخر:وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة،ووحدة ناموسه الذي يسير به،ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه في عبادة وخشوع:«بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ»..فلا ضرورة لتصور أن له من بين ما في السماوات والأرض ولدا..فالكل من خلقه بدرجة واحدة،وبأداة واحدة:«بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ.وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ:كُنْ فَيَكُونُ»..وتوجه الإرادة يتم بكيفية غير معلومة للإدراك البشري،لأنها فوق طاقة الإدراك البشري.فمن العبث إنفاق الطاقة في اكتناه هذا السر،والخبط في التيه بلا دليل![٤٠]

---

[٤٠] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ١٠٥)

وكما أنَّ العقيدةَ الإسلاميةَ واضحةٌ ،فهي كذلك لا تدعوا إلى الاتباعِ الأعمَى،بل على العكسِ فإنها تدعوا إلى التبصُّر والتعقُّلِ،قال تعالى:{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (١٠٨) سورة يوسف.

فنحن على هدى من اللّه ونور.نعرف طريقنا جيدا،ونسير فيها على بصر وإدراك ومعرفة،لا نخبط ولا نتحسس،ولا نحدس.فهو اليقين البصير المستنير.نتره اللّه – سبحانه – عما لا يليق بألوهيته،وننفصل وننعزل ونتميز عن الذين يشركون به:«وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»..

لا ظاهر الشرك ولا خافيه.هذه طريقي فمن شاء فليتابع،ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم.

وأصحاب الدعوة إلى اللّه لا بد لهم من هذا التميز،لا بد لهم أن يعلنوا أنهم أمة وحدهم،يفترقون عمن لا يعتقد عقيدتهم،ولا يسلك مسلكهم،ولا يدين لقيادتهم،ويتميزون ولا يختلطون! ولا يكفي أن يدعوا أصحاب هذا الدين إلى دينهم،وهم متميعون في المجتمع الجاهلي.فهذه الدعوة لا تؤدي شيئا ذا قيمة! إنه لا بد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنهم شيء آخر غير الجاهلية وأن يتميزوا بتجمع خاص آصرته العقيدة المتميزة،وعنوانه القيادة الإسلامية..لا بد أن يميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلي أيضا! إن اندغامهم وتميعهم في المجتمع الجاهلي،وبقاءهم في ظل القيادة الجاهلية،يذهب بكل السلطان الذي تحمله عقيدتهم،وبكل الأثر الذي يمكن أن تنشئه دعوتهم،وبكل الجاذبية التي يمكن أن تكون للدعوة الجديدة.

وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية في أوساط المشركين..إن مجالها هو مجال هذه الدعوة كلما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس..وجاهلية القرن العشرين لا تختلف في مقوماتها الأصيلة،وفي ملامحها المميزة عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ! والذين يظنون أنهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي والأوضاع الجاهلية،والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات ومن خلال

هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام..هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب!..

إن أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم وواجهتهم ووجهتهم! أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص؟ وطريقهم الخاص؟ وسبيلهم التي تفترق تماما عن سبيل الجاهلية؟[41]

ولأنَّ العقيدة َمما تحارُ العقولُ المجردةُ فيها،ولا تصلُ إلى إدراكها إلا منْ طريقِ الشارعِ الحكيمِ،فقد رجعَ كثيرٌ من الفلاسفةِ وأهلِ الكلامِ من المسلمينَ عن مناهجهم العقليةِ المجردةِ إلى منهجِ الكتابِ والسُّنةِ،ومن هؤلاءِ الفخرُ الرازيُّ- وهو منْ كبارِ الفلاسفةِ المسلمينَ- إذ يقولُ بعد عمرٍ طويلٍ في البحثِ العقليِّ:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ... وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا..وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا.سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ:قِيلَ وَقَالُوا

فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ وَدَوْلَةٍ...فَبَادُوا جَمِيعًا مُسْرِعِينَ وَزَالُوا

وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عَلَتْ شُرُفَاتِهَا...رِجَالٌ،فَزَالُوا وَالْجِبَالُ جِبَالُ

لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ،وَالْمَنَاهِجَ الْفَلْسَفِيَّةَ،فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلًا،وَلَا تُرْوِي غَلِيلًا،وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ،اقْرَأْ فِي الْإِثْبَاتِ:{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (٥) سورة طـه،{مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ } (١٠) سورة فاطر،وَاقْرَأْ فِي النَّفْيِ:{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (١١) سورة الشورى {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} (١١٠) سورة طـه،ثُمَّ قَالَ:" وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي"[42].

---

[41] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢٠٣٤)

[42] - شرح الطحاوية في العقيدة السلفية - (ج ١ / ص ٤٨٢) ومنهاج السنة النبوية - (ج ٥ / ص ١٩٠) ودرء التعارض - (ج ١ / ص ٨٩) وسير أعلام النبلاء - (ج ٢١ / ص ٥٠١)

٤- فطريةُ العقيدة الإسلامية:

إنَّ العقيدةَ الإسلامية ليست غريبةً عن الفطرةِ السليمة ولا مناقضةً لها،بل هي على وفاقٍ تامٍّ وانسجامٍ كاملٍ معها.وليس هذا بالأمر الغريبِ،إذ إنَّ خالقَ الإنسانِ العليم بحاله هو الذي شرعَ له منَ الديِّنِ ما يناسبُ فطرتَهُ التي خلقهُ عليها،كما قال تعالى:{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (٣٠) سورة الروم.

هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجيء في موعده،وفي موضعه،بعد تلك الجولات في ضمير الكون ومشاهده،وفي أغوار النفس وفطرتها..يجيء في أوانه وقد تهيأت القلوب المستقيمة الفطرة لاستقباله كما أن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجة لها وكل دليل،ووقفت مجردة من كل عدة لها وكل سلاح..

وهذا هو السلطان القوي الذي يصدع به القرآن.السلطان الذي لا تقف له القلوب ولا تملك رده النفوس.

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً»..واتجه إليه مستقيما.فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التي لا تستند على حق،ولا تستمد من علم،إنما تتبع الشهوات،والنزوات بغير ضابط ولا دليل..أقم وجهك للدين حنيفا مائلا عن كل ما عداه،مستقيما على نهيه دون سواه:« فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ»..وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين وكلاهما من صنع اللّه وكلاهما موافق لناموس الوجود وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه.واللّه الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الانحراف.وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير.والفطرة ثابتة والدين ثابت:«لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ».فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة.فطرة البشر وفطرة الوجود.

«ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ.وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»..فيتبعون أهواءهم بغير علم ويضلون عن الطريق الواصل المستقيم.

والتوجيه بإقامة الوجه للدين القيم،ولو أنه موجه إلى الرسول – ﷺ – إلا أن المقصود بـــه جميع المؤمنين.لذلك يستمر التوجيه لهم مفصلا معنى إقامة الوجه للدين:«مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً.كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»..فهي الإنابة إلى اللّه والعودة في كل أمر إليه.وهي التقوى وحساسية الضمير ومراقبة اللّه في السر والعلانية والشعور به عند كل حركة وكل سكنة.وهي إقامة الصلاة للعبادة الخالصة للّه.وهي التوحيد الخالص الذي يميز المؤمنين من المشركين..

ويصف المشركين بأنهم «الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً»..والشـــرك ألـــوان وأنمـــاط كثيرة.منهم من يشركون الجن،ومنهم من يشركون الملائكة،ومنهم من يشركون الأجداد والآباء.ومنهم من يشركون الملـــوك والســـلاطين.ومنـــهم مـــن يشـــركون الكهـــان والأحبار.ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار.ومنهم مـــن يشـــركون الكواكـــب والنجوم.ومنهم من يشركون النار.ومنهم من يشركون الليل والنهار.ومنهم من يشركون القيم الزائفة والرغائب والأطماع.ولا تنتهي أنماط الشرك وأشكاله..و«كُلُّ حِـــزْبٍ بِمـــا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» بينما الدين القيم واحد لا يتبدل ولا يتفرق،ولا يقود أهلـــه إلا إلى اللّـــه الواحد،الذي تقوم السماوات والأرض بأمره،وله من في الســـماوات والأرض كـــل لـــه قانتون.[43]

وقوله تعالى:{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}(١٤) سورة الملك.

والواقعُ شاهدٌ على موافقةِ الفطرة للعقيدةِ الإسلامية القائمةِ على الإخلاصِ لله وحدَهُ،فما أنْ يصابَ الإنسانُ بضرٍّ تعجزُ أمامَه القوى الماديـــةُ إلا ويلجـــأُ إلى الله تعـــالى في تـــذللٍ وخضوعٍ،ويستوي في ذلك الكافرُ والمؤمنُ،قال تعالى:{هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِـــنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} (٢٢) سورة يونس.

---

[43] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٥ / ٢٧٦٧)

وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الذي وَهَبَ النَّاسَ القُدْرَةَ عَلَى السَّيْرِ فِي البَرِّ مُشَاةً وَرُكْبَاناً،وَفِي البَحْرِ بِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ السُّفُنِ وَالمَرَاكِبِ (الفُلْك)،وَهُوَ الـــذِي يَحْفَظُهُـــمْ وَيَكْلَـــؤُهُمْ بِعنَايَتِـــه وَرِعَايَتِه،حَتَّى إِذَا كَانُوا فِي السَّفِينَةِ،وَجَرَتْ بِهِمْ إِلَى غَايَتِهَا بِرِيحٍ طَيِّبَـــةٍ مُوَاتِيَـــةٍ،وَفَرِحُوا بِسُرْعَة سَيْرِهَا رَافِلِينَ سُعَدَاءَ،فَبَيْنَمَا هُمْ كَـــذَلِكَ إِذْ جَـــاءَت السَّـــفِينَةَ رِيـــحٌ شَـــدِيدَةٌ عَاصِفَةٌ،وَأَحَاطَ بِهِمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ جَانِب،فَظَنُّوا أَنَّهُـــمْ هَالِكُونَ،فَأَخَـــذُوا يَـــدْعُونَ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لاَ يُشْرِكُونَ بِه شَيْئاً،وَلاَ يَدْعُونَ مَعَهُ صَنَماً وَلاَ وَثَناً،وَيُفْرِدُونَهُ بِالـــدُّعَاءِ وَالابْتِهَالِ،وَيَقُولُونَ يَا رَبِّ إِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنَ الحَـــالِ التِـــي نَحْـــنُ فِيهـــا لَنَكُـــونَنَّ مِـــنَ الشَّاكِرِينَ،وَلَنَكُونَنَّ مِنَ المُخْلِصِينَ فِي عِبَادَتِكَ،وَلَنْ نُشْرِكَ بِكَ أَحَداً،كَمَا أَفْرَدْنَاكَ بِالدُّعَاءِ فَلَمَّا أَنْجَاهُمُ اللهُ تَعَالَى مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ،مِنَ الشِّدَّةِ وَالكُرْبَةِ،نَقَضُوا عَهْدَهُمْ،وَعَادُوا إِلَـــى مَـــا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ،وَمُبَادَرَةِ النَّاسِ بِالظُّلْمِ وَالبَغْيِ وَالاعْتِدَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ.
وَيُخَاطِبُ تَعَالَى هَؤُلاَءِ المُفْسِدِينَ الطُّغَاةَ وَيَقُولُ لَهُمْ:يَا أَيُّهَا الغَافِلُونَ عَـــنْ أَنْفُسِـــكُمْ أَمَـــا كَفَاكُمْ بَغْياً عَلَى المُسْتَضْعَفِينَ مِنْكُمْ اغْتِرَاراً بِقُوَّتِكُمْ؟ إِنَّكُمْ فِي الحَقِيقَةِ إِنَّمَا تَبْغُـــونَ عَلَـــى أَنْفُسِكُمْ،لأَنَّ عَاقِبَةَ بَغْيِكُمْ وَوَبَالَهُ إِنَّمَا يَعُودَانِ عَلَيْكُمْ،وَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تَتَمَتَّعُونَ بِبَغْـــيِكُمْ مُـــدَّةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا الزَائِلَةِ،وَهِيَ تَنْقَضِي سَرِيعاً،وَالعِقَابُ عَلَى هَذا البَغْيِ بَاقٍ ثُمَّ تَصِيرُونَ إِلَـــى اللهِ فَيُخْبِرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ،وَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا أَوْفَى الجَزَاءِ.فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمدِ اللهَ،وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ.[44]

بل حتى الطفلُ الصغيرُ،فإنه لو تُرِكَ على حاله دون أنْ يؤثرَ عليه والداهُ أو البيئةُ من حوله لنشأَ معتقداً بالله تعالى ربًّا وإلهاً لا يعبدُ سواهُ. فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ قَالَ النَّبِىُّ – ﷺ –« كُلُّ مَوْلُـــودٍ يُولَـــدُ عَلَـــى الْفِطْرَةِ،فَـــأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِـــهِ أَوْ يُنَصِّـــرَانِه أَوْ يُمَجِّسَانِه،كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ،هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ »(أخرجه الشيخان) [45].
أما الأديان الأخرى من يهودية ونصرانية ومجوسية فهي من تلقين الآباء والأمهات.

٥– عقيدةٌ توقيفيةٌ مبرهَنةٌ:

[44] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ١٣٨٧)

[45] – البخاري برقم(١٣٨٥) ومسلم برقم(٦٩٢٦)= جدعاء : مقطوعة الأطراف =الجمعاء : مكتملة الأعضاء

"مبرهنة" لا تكتفي من تقرير قضاياها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم،ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى: "أعتقد وأنت أعمى" أو "آمن ثم اعلم" أو "أغمض عينيك ثم اتبعني" بل يقول كتابها بصراحة: {أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (٦٤) سورة النمل.

ولذا تتميزُ العقيدةُ الإسلامية بأنها توقيفيةٌ،فلا تجاوزَ فيها للنصوص المثبتةِ لها،كما إنها عقيدةٌ مبرهنةٌ تقوم على الحجةِ والدليل،ولا تكتفي في تقرير قضاياها بالخبرِ المؤكّد والإلزام الصارمِ،بل تحترمُ العقولَ والمبادئَ التي يقومُ عليها الدينُ كلُّه،ذلك أنها لا تثبُتُ في جميع جزئياتها وكلياتها إلا بدليلٍ من الكتابِ أو السُّنة.بل إنَّ أتباعها منهيونَ عن الخوضِ في مسائلها إلا عن علمٍ وبرهان،قال تعالى:{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} (٣٦) سورة الإسراء.

وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجا كاملا للقلب والعقل،يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثا جدا،ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة اللّه،ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة! فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم،ومنهج الإسلام الدقيق.ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة.و لم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل.و لم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم.

والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى،ويجعل الإنسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده،أمام واهب السمع والبصر والفؤاد..

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب.أمانة يسأل عنها صاحبها،وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعا.أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة،وكلما روى الإنسان رواية،وكلما أصدر حكما على شخص أو أمر أو حادثة.

«وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»..ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين،وما لم تتثبت من صحته:من قول يقال ورواية تروى.من ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل.ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ،وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَحَسَّسُوا،وَلاَ تَحَاسَدُوا،وَلاَ تَنَافَسُوا،وَلاَ تَبَاغَضُوا،وَلاَ تَدَابَرُوا،وَكُونُوا عِبَادًا لِلَّهِ إِخْوَانًا.[46]

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ،قَالَ:قِيلَ لَهُ مَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ فِي زَعَمُوا ؟ قَالَ:بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ[47].

وعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرْيَةِ ثَلاَثًا،أَنْ يَفْرِيَ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ،يَقُولُ:رَأَيْتُ،وَلَمْ يَرَ شَيْئًا فِي الْمَنَامِ،أَوْ يَتَقَوَّلَ الرَّجُلُ عَلَى وَالِدَيْهِ،فَيُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ،أَوْ يَقُولَ:سَمِعَ مِنِّي،وَلَمْ يَسْمَعْ مِنِّي.[48]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « مِنْ أَفْرَى الْفِرَى أَنْ يُرِىَ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَ ».[49]

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه،والتثبت في استقرائه إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته،وفي مشاعره وأحكامه،فلا يقول اللسان كلمة ولا يروي حادثة ولا ينقل رواية،ولا يحكم العقل حكما ولا يبرم الإنسان أمرا إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة،فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها.

«إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» حقا وصدقا..[50]

---

[46] - صحيح البخارى- المكنز - (٥١٤٣) وصحيح مسلم- المكنز - (٦٧٠١) وصحيح ابن حبان - (١٢ / ٥٠٠) (٥٦٨٧)

[47] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٨٢٣)(١٧٠٧٥) ١٧٢٠٣- صحيح

[48] - صحيح ابن حبان - (١ / ٢١٥) (٣٢) صحيح

[49] - صحيح البخارى- المكنز - (٧٠٤٣)

(أفرى الفرى) أكذب الكذبات ، والفرية : الكذب ، والجمع : الفرى.

[50] - فى ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢٢٢٧)

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (١١٥) سورة التوبة.

إن اللّه لا يحاسب الناس إلا على ما بين لهم أن يتقوه ويحذروه ولا يأتوه.وليس من شأنه أن يذهب بهدى قوم بعد إذ هداهم ويكلهم إلى الضلال لمجرد الفعل،ما لم يكن هذا الفعل مما نهاهم عنه قبلا..ذلك أن الإنسان قاصر واللّه هو العليم بكل شيء.ومنه البيان والتعليم. ولقد جعل اللّه هذا الدين يسرا لا عسرا،فبين ما نهى عنه بيانا واضحا،كما بين ما أمر به بيانا واضحا.وسكت عن أشياء لم يبين فيها بيانا – لا عن نسيان ولكن عن حكمة وتيسير – ونهى عن السؤال عما سكت عنه،لئلا ينتهي السؤال إلى التشديد.ومن ثم فليس لأحد أن يحرم شيئا من المسكوت عنه،ولا أن ينهى عما لم يبينه اللّه.تحقيقا لرحمة اللّه بالعباد..[٥١]

كما أنَّ القرآنَ الكريمَ حين يدعوا الناس إلى الإيمانِ بمفرداتِ العقيدةِ يقيمُ على ذلك الأدلةَ الواضحةَ من آياتِ الأنفسِ والآفاقِ،فلا يدعوهم إلى التقليدِ الأعمَى أو الإتباعِ على غيرِ هدًى،بل إنه يأمرهُم أن يطلبوا البرهانَ والدليلَ قال تعالى: {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (١١١) سورة البقرة.

وهذه حكاية قوليهم مزدوجة.وإلا فقد كانت اليهود تقول:لن يدخل الجنة إلا من كان هودا – أي من يهود – وكانت النصارى تقول:لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى وهذه القولة كتلك،لا تستند إلى دليل،سوى الادعاء العريض! ومن ثم يلقن اللّه رسوله – ﷺ – أن يجبههم بالتحدي وأن يطالبهم بالدليل:«قُلْ:هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»..

وهنا يقرر قاعدة من قواعد التصور الإسلامي في ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد.إنما هو الإسلام والإحسان،لا الاسم والعنوان:«بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ،فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ،وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»..

[٥١] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٣ / ١٧٢٢)

ومن قبل قرر هذه القاعدة في العقاب ردا على قولهم:«لَـنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً»..فقال:«بَلى ! مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ»..

إنها قاعدة واحدة بطرفيها في العقوبة والمثوبة.طرفيها المتقابلين:«مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ»..فهو حبيس هذه الخطيئة المحيطة،في معزل عن كل شيء وعن كل شعور وعن كل وجهة إلا وجهة الخطيئة..و«مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ»..فأخلص ذاته كلها للّه،ووجه مشاعره كلها إليه،وخلص للّه في مقابل خلوص الآخر للخطيئة..«مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ»..هنا تبرز سمة الإسلام الأولى:إسلام الوجه – والوجه رمز على الكل – ولفظ أسلم يعني الاستسلام والتسليم.الاستسلام المعنوي والتسليم العملي.ومع هذا فلا بد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام:«وَهُوَ مُحْسِنٌ»..فسمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك،بين العقيدة والعمل،بين الإيمان القلبي والإحسان العملي..بذلك تستحيل العقيدة منهجا للحياة كلها وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله:«فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»..

الأجر المضمون لا يضيع عند ربهم..والأمن الموفور لا يساوره خوف،والسرور الفائض لا يمسه حزن..وتلك هي القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس جميعا.فلا محسوبية عند اللّه سبحانه ولا محاباة![٥٢]

ويترتب على البرهنة والتوقيفية ما يلي:

١-تحديدُ مصادر العقيدة بالكتابِ والسنةِ الصحيحةِ.فعقيدة الإسلام موقوفة على كتاب الله،وما صح من سنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم،فليست محلاً للاجتهاد؛ لأن مصادرها توقيفية.

وذلك أن العقيدة الصحيحة لابد فيها من اليقين الجازم،فلابد أن تكون مصادرها مجزوم بصحتها،وهذا لا يوجد إلا في كتاب الله وما صح من سنة رسوله ﷺ.

[٥٢] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١ / ١٠٣)

وعليه فإن جميع المصادر الظنية،كالقياس والعقل البشري لا يصح أن تكون مصادر للعقيدة،فمن جعل شيئاً منها مصدراً للعقيدة فقد جانب الصواب،وجعل العقيدة محلاً للاجتهاد الذي يخطئ ويصيب.[٥٣]

ب- الالتزامُ بألفاظِ الكتاب والسنةِ المعّبرُ بها عن الحقائقِ العَقدية.

ت- استعمالُ تلك الألفاظِ فيما سيقتْ لأجله.

ث- عدمُ تحميلِ تلك الألفاظِ ما لا تحتملُ من المعاني.

ج- السكوتُ عما سكتَ عنه الكتابُ والسُّنةُ،وذلك بتفويضِ علمِه إلى الله تعالى وحدَهُ.

ح- أنْ نقدِّمَ دلالةَ الكتابِ والسنَّة على ما سواهما من عقلٍ أو حسٍّ أو ذوقٍ أو غير ذلك من وسائل المعرفةِ.

ومن أمثلة الدلائلِ التي ساقها الله عز وجل في القرآن الكريم القائمةِ على البراهين ما يلي:

*- **الدليلُ العقليُّ** قال تعالى:{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} (٣٥) سورة الطور.

ووجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل.أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدّعوه ولا يدّعيه مخلوق.وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة،فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن.وهي أنهم جميعا من خلق اللّه الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة..وهو منطق واضح بسيط.

كذلك يواجههم بوجود السماوات والأرض حيالهم.فهل هم خلقوها؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم:«أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ؟ بَلْ لا يُوقِنُونَ»..

وهم - ولا أي عقل يحتكم إلى منطق الفطرة - لا يقولون:إن السماوات والأرض خلقت نفسها،أو خلقت من غير خالق.وهم كذلك لا يدّعون أنهم خلقوها..وهي قائمة حيالهم

---

[٥٣] - من مقال بعنوان: خصائص العقيدة الإسلامية أ . د / عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، المصدر: www.denana.com .

سؤالا حيا يتطلب جوابا على وجوده! وقد كانوا إذا سئلوا عمــن خلــق الســماوات والأرض قالوا اللّه..ولكن هذه الحقيقة لم تكن تتضح في إدراكهم إلى درجة اليقين الــذي ينشئ آثاره في القلب،ويحركه إلى اعتقاد واضح دقيق..«بَلْ لا يُوقِنُونَ»..

ثم يهــبط بهــم درجــة عــن درجــة الخلــق والإبــداع لأنفســهم أو للســماوات والأرض.فيسألهم:هل هم يملكون خزائن اللّه،ويسيطرون على القــبض والبسط،والضــر والنفع:«أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ؟ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ؟»..

وإذا لم يكونوا كذلك،ولم يدعوا هذه الدعوى.فمن ذا يملك الخزائن،ومن ذا يسيطر على مقاليد الأمور؟

القرآن يقول:إنه اللّه القابض الباسط،المدبر المتصرف.وهذا هو التفسير الوحيد لما يجري في الكون من قبض وبسط وتصريف وتدبير.بعد انتفاء أن يكونوا هــم المــالكين للخــزائن المسيطرين على تصريف الأمور![54]

*–**الدليلُ من الأنفسِ** قال تعالى:{وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} (٢١) سورة الذاريات

وهذا المخلوق الإنساني هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض.ولكنه يغفل عن قيمتــه،وعن أسراره الكامنة في كيانه،حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين.

إنه عجيبة في تكوينه الجسماني:في أسرار هذا الجسد.عجيبة في تكوينه الروحي:في أســرار هذه النفس.وهو عجيبة في ظاهره وعجيبة في باطنه.وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه:

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير.تكــوين أعضــائه وتوزيعها.وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف.عملية الهضم والامتصاص.عملية التــنفس والاحتراق.دورة الدم في القلب والعروق.الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم.الغــدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه.

[54] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٦ / ٣٣٩٩)

تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها،وتجاوبها الكامل الدقيق.وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب.وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب.

وأسرار روحه وطاقاتها المعلومة والمجهولة..إدراكه للمدركات وطريقة إدراكها وحفظها وتذكرها.هذه المعلومات والصور المختزنة.أين؟ وكيف؟ هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت؟ وأين؟ وكيف تستدعى فتجيء..وذلك في الجانب المعلوم من هذه القوى.فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر.تظهر آثاره بين الحين والحين في لمسات وإشراقات تدل على ما وراء الظاهر من المغيب المجهول.

ثم أسرار هذا الجنس في توالده وتوارثه.خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريبين.فأين تكمن هذه الخصائص في تلك الخلية الصغيرة؟

وكيف تهتدي بذاتها إلى طريقها التاريخي الطويل،فتمثله أدق تمثيل،وتنتهي إلى إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب؟! وإن وقفة أمام اللحظة التي يبدأ فيها الجنين حياته على الأرض،وهو ينفصل عن أمه ويعتمد على نفسه،ويؤذن لقلبه ورئتيه بالحركة لبدء الحياة.إن وقفة أمام هذه اللحظة وأمام هذه الحركة لتدهش العقول وتحير الألباب،وتغمر النفس بفيض من الدهش وفيض من الإيمان،لا يقف له قلب ولا يتماسك له وجدان! وإن وقفة أخرى أمام اللحظة التي يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالعبارات.

بل أمام النطق ذاته.نطق هذا اللسان.وتصويت تلك الحنجرة.إنها عجيبة.عجيبة تفقد وقعها لأنها تمر بنا كثيرا.ولكن الوقوف أمامها لحظة في تدبر يجدد وقعها.إنها خارقة.خارقة مذهلة تنبئ عن القدرة التي لا تكون إلا للّه.

وكل جزئية في حياة هذا المخلوق تقفنا أمام خارقة من الخوارق،لا ينقضي منها العجب «وَفِي أَنْفُسِكُمْ.أَفَلا تُبْصِرُونَ؟»..

وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده.ومرآة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله في صورة خاصة لا تتكرر أبدا على مدار الدهور.ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعا لا في شكله

وملامحه،ولا في عقله ومداركه،ولا في روحه ومشاعره.ولا في صورة الكون كما هـــي في حسه وتصوره.ففي هذا المتحف الإلهي العجيب الذي يضم ملايين الملايين،كل فرد نموذج خاص،وطبعة فريدة لا تتكرر.يمر من خلالها الوجود كله في صورة كذلك لا تتكرر.كما لا توجد بصمة أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى في هذه الأرض في جميع العصور! وكثير من عجائب الجنس البشري مكشـــوفة للبصـــر،تراه العيـــون:«وَفِـــي أَنْفُسِـــكُمْ.أَفَـــلا تُبْصِرُونَ؟»:وما تراه العيون من عجائبه يشير إلى المغيب المكنون.

وهذه العجائب لا يحصرها كتـــاب.فـــالمعلوم المكشـــوف منـــها يحتـــاج تفصـــيله إلى مجلدات.والمجهول منها ما يزال أكثر من المعلوم،والقرآن لا يحصيها ولا يحصـــرها.ولكنـــه يلمس القلب هذه اللمســـة ليســـتيقظ لهـــذا المتحـــف الإلهـــي المعـــروض للأبصـــار والبصائر.وليقضي رحلته على هذا الكوكب في ملاحظة وتدبر،وفي متاع رفيع بتأمل هذا الخلق العجيب،الكامن في ذات نفسه وهو عنه غافل مشغول.

وإنها للحظات ممتعة حقا تلك التي يقضيها الإنسان يتأمل وجوه الخلق وسماتهم وحركاتهم وعاداتهم،بعين العابد السائح الذي يجول في متحف من إبداع أحسن الخالقين.فكيف بمـــن يقضي عمره كله في هذا المتاع الرفيع؟

إن القرآن بمثل هذه اللمسة يخلق الإنسان خلقـــا جديـــدا،بحس جديـــد ويمتعـــه بحيـــاة جديدة،ويهبه متاعا لا نظير له في كل ما يتصوره في الأرض من متاع.

وعلى هذا النحو الرفيع من التأمل والإدراك يريد القرآن الناس.والإيمان هو الـــذي يمـــنح القلب البشري هذا الزاد،وهو الذي يهيئ له هذا المتاع العلوي.وهـــو بعـــد في الأرض في عالم الطين![٥٥]

*-**الدليلُ من الآفاقِ** قال تعالى:{ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَـــا يَبْغِيَـــانِ (٢٠) [الرحمن/١٩،٢٠] }.

والبحران المشار إليهما همـــا البحـــر المـــالح والبحـــر العذب،ويشـــمل الأول البحـــار والمحيطات،ويشمل الثاني الأنهار.ومرج البحرين أرسلهما وتركهمـــا يلتقيان،ولكنـــهما لا

[٥٥] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٣٧٩)

يبغيان،ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر،ووظيفته المقسومة،وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع اللّه.

وتقسيم الماء على هذا النحو في الكرة الأرضية لم يجئ مصادفة ولا جزافا.فهو مقدر تقديرا عجيبا.الماء الملح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ويشغل اليابس الربع.وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائما صالحا للحياة.

« وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام - فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع - ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان..وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء - أي المحيط -"

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس وهي التي تعود فتسقط أمطارا يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله.وأعظمها الأنهار.والتوافق بين سعة المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا،والعوامل الفلكية الأخرى هو الذي ينشأ عنه المطر الذي تتكون منه كتلة الماء العذب.

وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة،من نبات وحيوان وإنسان..

وتصب جميع الأنهار - تقريبا - في البحار.وهي التي تنقل إليها أملاح الأرض،فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغي عليها.ومستوى سطوح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر،ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه،ولا يغمر مجاريها بمائه الملح،فيحولها عن وظيفتها ويبغي على طبيعتها! وبينهما دائما هذا البرزخ من صنع اللّه.فلا يبغيان.[56]

وقال تعالى:{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (٥٣) سورة فصلت

---

[56] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٤٥٢)

إنه وعد اللّه لعباده – بني الإنسان – أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكـــون،ومن خفايا أنفسهم على السواء.وعدهم أن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم،حتى يتبين لهـــم أنه الحق.هذا الدين.وهذا الكتاب.

وهذا المنهج.وهذا القول الذي يقوله لهم.ومن أصدق من اللّه حديثا؟

ولقد صدقهم اللّه وعده فكشف لهم عن آياته في الآفاق في خلال القرون الأربعة عشـــر التي تلت هذا الوعد وكشف لهم عن آياته في أنفسهم.وما يزال يكشف لهم في كل يـــوم عن جديد.

وينظر الإنسان فيرى البشر قد كشفوا كثيرا جدا منذ ذلك الحين.فقـــد تفتحـــت لهـــم الآفاق.وتفتحت لهم مغاليق النفوس بالقدر الذي شاءه اللّه.

لقد عرفوا أشياء كثيرة.لو أدركوا كيف عرفوها وشكروا لكان لهم فيها خير كثير.

عرفوا منذ ذلك الحين أن أرضهم التي كانوا يظنونها مركز الكون..إن هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس.

وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة منها في الكون مئات الملايين.وعرفوا طبيعة أرضهم وطبيعة شمسهم – وربما طبيعة كونهم،إن صح ما عرفوه! وعرفوا الكثير عن مادة هذا الكون الذي يعيشون فيه.إن صح أن هناك مادة.عرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرة.وعرفـــوا أن الذرة تتحول إلى إشعاع.وعرفوا إذن أن الكون كله من إشعاع..في صور شتى:هي الـــتي تجعل منه هذه الأشكال والأحجام! وعرفوا الكثير عن كوكبهم الأرضي الصغير.عرفوا أنه كرة أو كالكرة.وعرفوا أنه يدور حول نفسه وحول الشمس.وعرفوا قاراتـــه ومحيطاتـــه وأنهاره.وكشفوا عن شيء من باطنه.وعرفوا الكثير من المخبوء في جوف هذا الكوكـــب من الأقوات.والمنثور في جوه من هذه الأقوات أيضا! وعرفوا وحدة النواميس التي تـــربط كوكبهم بالكون الكبير،وتصرف هذا الكون الكبير.ومنهم من اهتدى فارتقى من معرفـــة النواميس إلى معرفة خالق النواميس.ومنهم من انحرف فوقـــف عـــن ظـــاهر العلـــم لا يتعداه.ولكن البشرية بعد الضلال والشرود من جراء العلم،قد أخذت عن طريـــق العلـــم تثوب،وتعرف أنه الحق عن هذا الطريق.

و لم تكن فتوح العلم والمعرفة في أغوار النفس بأقل منها في جسم الكون.فقد عرفوا عــن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير.عرفوا عن تكوينــه وتركيبــه ووظائفه وأمراضه،وغذائه وتمثيله،وعرفوا عن أسرار عمله وحركته،ما يكشف عن خوارق لا يصنعها إلا اللّه.

وعرفوا عن النفس البشرية شيئا..إنه لا يبلغ ما عرفوه عن الجسم.لأن العناية كانت متجهة بشدة إلى مادة هذا الإنسان وآلية جسمه أكثر مما كانت متجهة إلى عقله وروحه.ولكــن أشياء قد عرفت تشير إلى فتوح ستجيء..

وما يزال الإنسان في الطريق! ووعد اللّه ما يزال قائما:«سَنُرِيهِمْ آياتنا فِي الْآفــاقِ وَفِــي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»..

والشطر الأخير من الوعد قد بانت طلائعه منذ مطلع هذا القرن بشكل ملحوظ.فموكب الإيمان يتجمع من فجاج شتى.وعن طريق العلم المادي وحده يفد كثيرون! وهناك أفــواج وأفواج تتجمع من بعيد.ذلك على الرغم من موجة الإلحاد الطاغية التي كادت تغمر هــذا الكوكب في الماضي.ولكن هذه الموجة تنحسر الآن.

تنحسر – على الرغم من جميع الظواهر المخالفة – وقد لا يتم تمام هذا القــرن العشــرين الذي نحن فيه،حتى يتم انحسارها أو يكاد إن شاء اللّه.وحتى يحق وعد اللّه الذي لا بــد أن يكون:«أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟»..وهو الذي أعطى وعده عن علــم وعن شهود.[٥٧]

لذلك نرى القرآن الكريم في قضية الألوهية يقيم الأدلة من الكون ومــن الــنفس ومــن التاريخ على وجود الله وعلى وحدانيته وكماله.

وفى قضية البعث يدلل علــى إمكانــه بخلــق الإنســان أول مرة،وخلــق الســموات والأرض،وإحياء الأرض بعد موها،ويدلل علــى حكمتــه بالعدالــة الإلهيــة في إثابــة المحسن،وعقوبة المسيء: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} (٣١) سورة النجم.

---

[٥٧] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٥ / ٣١٣٠)

وكذلك لا تكتفي بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليهما أساسا للاعتقاد،بل تتبع قضاياها بالحجة الدامغة،والبرهان الناصع،والتعليل الواضح،الذي يملك أزمة العقول،ويأخذ الطريق إلى القلوب،ويقول علماؤها: إن العقل أساس النقل... والنقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح.

٦-عقيدةٌ ثابتةٌ ودائمةٌ:

فهي عقيدة ثابتة،مستقرة خالدة،فلقد ثبتت أمام الضربات المتوالية التي يقوم بها أعداء الإسلام؛من اليهود،والنصارى،والمجوس،وغيرهم.

فما إن يعتقد هؤلاء أن عظمها قد وهن،وأن جذوتها قد خبت،ونارها قد انطفأت،حتى تعود جذعة ناصعة نقية؛فهي ثابتة إلى قيام الساعة،محفوظة بحفظ الله ــ تعالى ــ تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل؛ورعيلاً بعد رعيل، لم يتطرق إليها التحريف،أو الزيادة،أو النقصان،أو التبديل.

ولما كانت العقيدة الإسلاميةُ تقومُ على الدليل والبرهان،لزمَ أن تكون عقيدةً ثابتةً ودائمةً،قال الله تعالى:{ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ..} (٦٤) سورة يونس.

وما دام الحق سبحانه قد قال:{ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ } فلن تجد أحداً قادراً على ذلك،كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة؛ ومَنْ كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً في الدنيا لم يعد مالكاً لشيء،بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه:{ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ }[غافر:١٦].

وما دام الحق سبحانه قد وعد ببشرى الدنيا وبشرى الآخرة،فلا تبديل لما حكم به الله،فلا شيء يتأبَّى على حكم الله تعالى،والوعد بالبُشريات في الدنيا وفي الآخرة فوز عظيم مؤكد.[٥٨]

فهي عقيدةٌ ثابتةٌ ومحددةٌ،لا تقبلُ الزيادةَ ولا النقصانَ،ولا التحريفَ ولا التبديلَ.فليسَ لحاكمٍ أو مجمعٍ من المجامعِ العلميةِ أو مؤتمرٍ من المؤتمراتِ الدينيةِ ليسَ لأولئكَ جميعاً و لا لغيرهِم أنْ يضيفوا إليها شيئاً أو يحذفوا منها شيئاً،وكلُّ إضافةٍ أو تحويرٍ مردودٌ على صاحبِه

[٥٨] - تفسير الشعراوي - (/ ١٤١٥)

كائناً منْ كانَ بقول النبيِّ ﷺ:« مَنْ أَحْدَثَ فِى أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُــوَ رَدٌّ »[٥٩].أي مردودُ عليه.

وقد هددَ القرآنُ الكريمُ العلماءَ خاصةً من أن تميلَ بهم الأهواءُ والأطماعُ أو الإغـــراءتُ المادية ُ فيزيدوا أو ينقصوا شيئاً من الدِّين قال الله تعالى:{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُــونَ الْكِتَــابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْــدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ } (٧٩) سورة البقرة.

وَهؤَلاَءِ صِنْفٌ مِنَ اليَهُودِ هُمُ العُلَمَاءُ،وَالدُّعَاةُ إلى الضَّلاَلَةِ بِالكَذِبِ وَالبُهْتَانِ والزُّورِ،وَقَوْلِ غَيْرِ الحَقِّ عَلَى اللهِ،وَأَكْلِ أَمْوالِ النَّاسِ بِالبَاطِلِ،وَهُمْ أَحْبَارُ اليَهُودِ الذينَ كَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ كِتَاباً مُحَرَّفاً وَمُلَفْقاً مِنْ عِنْدِهِمْ،يبيعُونَهُ لِعَوامِّهِمْ زَاعِمِينَ أَنَّهُ التَّورَاةُ الْمُنْزَلَةُ مِنْ عِنْدِ اللهِ،لِيَأْخُذُوا بِهِ ثَمَناً قَليلاً مِنْهُمْ.وَيُحَذِّرُ اللهُ هؤلاءِ المُفْتَرِينَ عَلَى اللهِ،وَيَقُولُ لَهُمْ:الوَيْلُ لَهُمْ - أَي الهَــلاَكُ وَالدَّمَارُ لَهُمْ وَشِدَّةُ الشَّرِّ - مِمَّا أَكَلُوا مِنْ هذا الكَسْبِ الحَرَامِ.وَقَدِ ارْتَكَبَ هؤُلاءِ بِعَمَلِهِمْ هذا ثَلاثَ جِنَايَاتٍ:

أُولاَهَا - كِتْمَانُ مَا فِي كِتَابِهِمْ مِنْ صِفَةِ النَّبيِّ وَتَغْيِيرِهَا.

وَثَانِيَتُها - الافْتِراءُ عَلَى اللهِ وَنِسْبَةُ شَيءٍ إِلَيه لَمْ يَقُلْهُ.

وَثَالِثُهَا - الكَسْبُ الحَرَامُ ثَمَناً لِهذا الكَذِبِ وَالتَّحْرِيفِ وَالإِفْكِ.[٦٠]

وعلى هذا فكلُّ البدعِ والأساطيرِ والخرافاتِ التي دُستْ في بعــض كتــب المســلمين،أو أشيعتْ بين عامتهم باطلةٌ مردودةٌ لا يقرُّها القرآن ولا تؤخذُ حجةً عليه،وإنما الحجةُ فيما ثبتَ من نصوصه فقط.كما قال الله تعالى:{رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } (١٦٥) سورة النساء.

ولقــد ثبتــت أمــام الضــربات المتواليــة الــتي يقــوم بهــا أعــداء الإســلام؛من اليهود،والنصارى،والمجوس،وغيرهم ،فما إن يعتقد هؤلاء أن عظمها قد وهن،وأن جذوتها قد خبت،ونارها قد انطفأت،حتى تعود جذعــة ناصــعة نقيــة؛فهي ثابتــة إلى قيــام

[٥٩] -أخرجه البخاري برقم (٢٦٩٧) ومسلم برقم(٤٥٨٩)

[٦٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٨٦)

الساعة،محفوظة بحفظ الله ــ تعالى ــ تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل؛ورعيلاً بعد رعيل، لم يتطرق إليها التحريف،أو الزيادة،أو النقصان،أو التبديل.

كيف لا والله ــ عز وجل ــ هو الذي تكفل بحفظها،وبقائها و لم يكل ذلك إلى أحد من خلقه ؟.قال ــ تعالى ــ:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[الحجر:٩].

فهو باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدل.ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التحريف وهو يقـودهم إلى الحق برعاية اللّه وحفظه،إن كانوا يريدون الحق،وإن كانوا يطلبون الملائكة للتثبت..إن اللّه لا يريد أن يترل عليهم الملائكة،لأنه أراد بهم الخير فترل لهم الذكر المحفوظ،لا ملائكـة الهلاك والتدمير.

وننظر نحن اليوم من وراء القرون إلى وعد اللّه الحق بحفظ هذا الذكر فنرى فيه المعجـزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب – إلى جانب غيرها من الشواهد الكثيرة – ونرى أن الأحوال والظروف والملابسات والعوامل التي تقلبت على هذا الكتاب في خلال هذه القرون مـا كان يمكن أن تتركه مصونا محفوظا لا تتبدل فيه كلمة،ولا تحرف فيه جملة،لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر،أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامـل،تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل،وتصونه من العبث والتحريف.

لقد جاء على هذا القرآن زمان في أيام الفـتن الأولى كثـرت فيـه الفرق،وكثـر فيـه التراع،وطمت فيه الفتن،وتماوجت فيه الأحداث.وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند في هذا القرآن وفي حديث رسول اللّه – ﷺ – ودخل في هذه الفتن وساقها أعداء هذا الدين الأصلاء من اليهود – خاصة – ثم من «القوميين» دعـاة «القوميـة» الـذين تسـمّوا بالشعوبيين! ولقد أدخلت هذه الفرق على حديث رسول اللّه – ﷺ – مـا احتـاج إلى جهد عشرات العلماء الأتقياء الأذكياء عشرات من السنين لتحرير سنة رسول اللّه – ﷺ – وغربلتها وتنقيتها من كل دخيل عليها من كيد أولئك الكائدين لهذا الدين.

كما استطاعت هذه الفرق في تلك الفتن أن تؤول معاني النصوص القرآنية،وأن تحاول أن تلوي هذه النصوص لتشهد لها بما تريد تقريره من الأحكام والاتجاهات..

ولكنها عجزت جميعا – وفي أشد أوقات الفتن حلوكة واضطرابا – أن تحدث حدثا واحدا في نصوص هذا الكتاب المحفوظ وبقيت نصوصه كما أنزلها اللّه حجة باقية على كل محرف وكل مؤول وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ.

ثم جاء على المسلمين زمان – ما نزال نعانيه – ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم،وعن حماية عقيدتهم،وعن حماية نظامهم،وعن حماية أرضهم،وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم.وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم! وغيّر عليهم أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم،وأحلوا مكانه كل منكر فيهم..كل منكر من العقائد والتصورات،ومن القيم والموازين،ومن الأخلاق والعادات.ومن الأنظمة والقوانين..وزينوا لهم الانحلال والفساد والتوقح والتعري من كل خصائص «الإنسان» وردوهم إلى حياة كحياة الحيوان..وأحيانا إلى حياة يشمئز منها الحيوان..ووضعوا لهم ذلك الشر كله تحت عنوانات براقة من «التقدم» و«التطور» و«العلمانية» و«العلمية» و«الانطلاق» و«التحرر» و«تحطيم الأغلال» و«الثورية» و«التجديد»...إلى آخر تلك الشعارات والعناوين..وأصبح «المسلمون» بالأسماء وحدها مسلمين.ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير.وباتوا غثاء كغثاء السيل لا يمنع ولا يدفع،ولا يصلح لشيء إلا أن يكون وقودا للنار..وهو وقود هزيل!..

ولكن أعداء هذا الدين – بعد هذا كله – لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها.ولم يكونوا في هذا من الزاهدين.فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ،وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال! ولقد بذل أعداء هذا الدين – وفي مقدمتهم اليهود – رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد في الكيد لدين اللّه.وقدروا على أشياء كثيرة..قدروا على الدس في سنة رسول اللّه – ﷺ – وعلى تاريخ الأمة المسلمة.وقدروا على تزوير الأحداث ودس الأشخاص في جسم المجتمع المسلم ليؤدوا الأدوار التي يعجزون عن أدائها وهم سافرون.وقدروا على تحطيم الدول والمجتمعات والأنظمة والقوانين.

وقدروا على تقديم عملائهم الخونة في صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في أجسام المجتمعات الإسلامية على مدار القرون،وبخاصة في العصر الحديث..

ولكنهم لم يقدروا على شيء واحد - والظروف الظاهرية كلها مهيأة له -.. لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ،الذي لا حماية له من أهله المنتسبين إليه وهم بعد أن نبذوه وراء ظهورهم غثاء كغثاء السيل لا يدفع ولا يمنع فدل هذا مرة أخرى على ربانية هذا الكتاب،وشهدت هذه المعجزة الباهرة بأنه حقا تتريل من عزيز حكيم.

لقد كان هذا الوعد على عهد رسول اللّه - ﷺ - مجرد وعد.أما هو اليوم - من وراء كل تلك الأحداث الضخام ومن وراء كل تلك القرون الطوال.فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب،والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول:«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ،وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ»..وصدق اللّه العظيم..[٦١]

٧- إنها عقيدةٌ وسطٌ لا إفراطَ فيها ولا تفريطَ:

إنَّ العقيدةَ الإسلامية وسطٌ بين الذينَ ينكرونَ كلَّ ما وراءِ الطبيعةِ مما لم تصلْ إليه حواسُّهم،وبين الذين يثبتونَ للعالمِ أكثرَ من إلهٍ،والذين يحلُّون روحَ الإله في الملوكِ والحكام،بل وفي بعضِ الحيواناتِ والنباتات والجمادات؟!!.

فقد رفضتِ العقيدةُ الإسلامية الإنكارَ الملحدَ،كما رفضتِ التعددَ الجاهلَ والإشراكَ الغافلَ،وأثبتتْ للعالمِ إلهاً واحداً لا شريكَ له.كما أنها وسطٌ في الصفاتِ الواجبةِ لله تعالى،فلمْ تسلكْ سبيلَ الغلوِّ في التجريدِ فتجعلْ صفاتِ الإله صوراً ذهنيةً مجردةً عن معنًى قائمٍ بذاتٍ لا توحي بخوفٍ ولا رجاءٍ،كما فعلتِ الفلسفةُ اليونانية،ولم تسلكْ كذلك سبيلَ التشبيهِ والتمثيلِ والتجسيمِ كما فعلتْ بعضُ العقائدِ حيثُ جعلتْ الإلهَ كأنهُ أحدُ المخلوقين يلحقُه ما يلحقُهم من نقصٍ وعيوب.فالعقيدةُ الإسلاميةُ تترهُ الله تعالى إجمالاً عن مشابهةِ المخلوقينَ بقواعدَ مثلَ قوله تعالى:{..لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (١١) سورة الشورى، وقوله تعالى:{وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} (٤) سورة الإخلاص

[٦١] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢١٢٧)

،وقوله تعالى:{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَـهُ سَمِيًّا} (٦٥) سورة مريم.

ومعَ هذا تصفُه بصفات إيجابية فعالة تبعثُ الخوفَ والرجاءَ في نفوسِ العباد كما في قوله تعالى: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} (٢٥٥) سورة البقرة .

ثم إنها وسطٌ بين التسليمِ الساذجِ والتقليدِ الأعمى في العقائدَ،وبينَ الغلوِّ والتوغلِ بالعقلِ لإدراك كلِّ شيءٍ حتى الألوهية.فهي تنهَى عن التقليد الأعمَى،حيث عابَ اللهُ على القائلين {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ} (٢٢) سورة الزخرف،وتنهى عن التوغلِ بالعقلِ لإدراكِ كيفية صفاتِ الربِّ عزَّ وجلَّ فقال تعالى:{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} (١١٠) سورة طه ،وقال تعالى:{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} (٣٦) سورة الإسراء،وتدعوهم إلى التوسطِ والأخذ بالمدركات كوسائطَ قال تعالى:{ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) [الذاريات/٢٠،٢١] }.

فليس فيها الغلو في التجريد الذي جعل صفات الإله مجرد سلوب لا تعطي معنى،ولا توحي بخوف أو رجاء ــ كما فعلت الفلسفة اليونانية ــ فكل ما وصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا..من غير أن تقول ما صفات هذا الإله الإيجابية؟ وما أثرها في هذا العالم؟

ويقابل هذا أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذي وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية،التي جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس،ووصفته بالنوم والتعب والراحة،والتحيز والمحاباة والقسوة..و..وجعلته يلتقي ببعض الأنبياء فيصارعه فيغلبه ويصرعه،فلم يتمكن الرب من الإفلات منه حتى أنعم عليه بلقب جديد!

٨–أنها تقوم على التسليم لله ــ تعالى ــ ولرسوله ــ ﷺ:

وذلك لأنها غيب،والغيب يقوم على التسليم ،فالتسليم بالغيب من أعظم صفات المؤمنين التي مدحهم الله بها،كما في قوله ــ تعالى ــ:(ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) [البقرة:٢،٣].

ذلك أن العقول لا تدرك الغيب،ولا تستقل بمعرفة الشرائع؛لعجزها وقصورها؛فكما أن سمع الإنسان قاصر،وبصره كليل،وقوتَه محدودة ــ فكذلك عقله،فَتَعَيَّن الإيمان بالغيب والتسليم لله ــ عز وجل ــ.

فلا تقوم حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم والقوة الكبرى التي صدرت عنها،وصدر عنها هذا الوجود ولا تقوم حواجز الحس بين أرواحهم وسائر ما وراء الحس من حقائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات.

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان،فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه،إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس – أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس – وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي،ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود،وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير.كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه،ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود.وأن وراء الكون ظاهره وخافيه،حقيقة أكبر من الكون،هي التي صدر عنها،واستمد من وجودها وجوده..

حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له،وما لم توهب القدرة للإحاطة به،وما لا يجدي شيئا أن تنفق فيه.إن الطاقة الفكرية التي وهبها الإنسان،وهبها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض،فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة

القريبة،تنظر فيها،وتتعمقها وتتقصاها،وتعمل وتنتج،وتنمي هذه الحياة وتجملها،على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التي تتصل مباشرة بالوجود كله وخالق الوجود،وعلى أن تدع للمجهول حصته في الغيب الذي لا تحيط به العقول.فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها،دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة،وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول..فأما هذه المحاولة فهي محاولة فاشلة أولا،ومحاولة عابثة أخيرا.فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال.وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال..ومتى سلم العقل البشري بالبديهية العقلية الأولى،وهي أن المحدود لا يدرك المطلق،لزمه – احتراما لمنطقه ذاته – أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل و.ن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن،والغيب والشهادة..وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون،وهو الصفة الأولى من صفات المتقين.

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة.ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان،كجماعة الماديين في كل زمان،يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى..إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا «تقدمية» وهو النكسة التي وقى اللّه المؤمنين إياها،فجعل صفتهم المميزة،صفة:«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» والحمد للّه على نعمائه،والنكسة للمنتكسين والمرتكسين![٦٢]

٩– اتصال سندها بالرسول ﷺوالتابعين وأئمة الدين قولاً،وعملاً،واعتقاداً:

وهذه الخصيصة قد اعترف بها كثير من خصومها؛فلا يوجد ـــ بحمد الله ـــ أصـــل مـــن أصول اعتقاد أهل السنَّة والجماعة ـــ ليس له أصل أو مستند من الكتاب والسنَّة،أو عـــن السلف الصالح،بخلاف العقائد الأخرى المبتدعة.[٦٣]

---

[٦٢] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١ / ٣٩)

[٦٣] – انظر كتابي ((الواضح في أركان الإيمان))

١٠- السلامة من الاضطراب والتناقض واللبس:

وكذلك فإنه لا مكان فيها لشيء من الاضطراب والفوضى مطلقاً ،كيف لا وهي وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

قال تعالى:{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ} (٣) سورة الملك

وأسلوب التحدي من شأنه أن يثير الاهتمام والجد في النظر إلى السماوات وإلى خلق اللّه كله.وهذه النظرة الحادة الفاحصة المتأملة المتدبرة هي التي يريد القرآن أن يثيرها وأن يبعثها.فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق،الذي لا تشبع العين من تملي جماله وروعته،ولا يشبع القلب من تلقي إيحاءاته وإيماءاته ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته.والذي يعيش منه من يتأمله بهذه العين في مهرجان إلهي باهر رائع،لا تخلق بدائعه،لأنها أبدا متجددة للعين والقلب والعقل.

والذي يعرف شيئا عن طبيعة هذا الكون ونظامه - كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها - يدركه الدهش والذهول.ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم.فمن نعمة اللّه على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقيا مباشرا حين يتفتح ويستشرف.ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحي مع الحي قبل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئا عن هذا الخلق الهائل العجيب.

ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر في هذا الكون،وإلى تملي مشاهده وعجائبه.ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعا،وفي كل عصر.يخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء،كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار.وهو يخاطب الأمي الذي لم يقرأ ولم يخط حرفا،كما يخاطب العالم الفلكي والعالم الطبيعي والعالم النظري سواء.وكل واحد من هؤلاء يجد في القرآن ما يصله بهذا الكون،وما يثير في قلبه التأمل والاستجابة والمتاع.[٦٤]

فالحقُّ لا يضطرب،ولا يتناقض،ولا يلتبس.

بل يشبه بعضه بعضاً،ويصدق بعضه بعضاً {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} (٨٢) سورة النساء.

---

[٦٤] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٦٣٢)

إن كل أحد،وكل جيل،مخاطب بهذه الآية.ومستطيع – عند التدبر وفق منهج مستقيم – أن يدرك من هذه الظاهرة – ظاهرة عدم الاختلاف،أو ظاهرة التناسق – ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه..

وتلك الطائفة في ذلك الجيل كانت تخاطب بشيء تدركه،وتملك التحقق منه بإدراكها في حدودها الخاصة.

تتجلى هذه الظاهرة.ظاهرة عدم الاختلاف..أو ظاهرة التناسق..ابتداء في التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية..ففي كلام البشر تبدو القمم والسفوح التوفيق والتعثر.القوة والضعف.التحليق والهبوط.

الرفرفة والثقلة.الإشراق والانطفاء..إلى آخر الظواهر التي تتجلى معها سمات البشر.وأخصها سمة «التغير» والاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال.يبدو ذلك في كلام البشر،واضحا عند ما تستعرض أعمال الأديب الواحد،أو المفكر الواحد،أو الفنان الواحد،أو السياسي الواحد،أو القائد العسكري الواحد..أو أيّ كان في صناعته التي يبدو فيها الوسم البشري واضحا..وهو:التغير،والاختلاف..

هذه الظاهرة واضح كل الوضوح أن عكسها وهو:الثبات،والتناسق،هو الظاهرة الملحوظة في القرآن – ونحن نتحدث فقط عن ناحية التعبير اللفظي والأداء الأسلوبي – فهناك مستوى واحد في هذا الكتاب المعجز – تختلف ألوانه باختلاف الموضوعات التي يتناولها – ولكن يتحد مستواه وأفقه،والكمال في الأداء بلا تغير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى..كما هو الحال في كل ما يصنع الإنسان..إنه يحمل طابع الصنعة الإلهية ويدل على الصانع.يدل على الموجود الذي لا يتغير من حال إلى حال،ولا تتوالى عليه الأحوال!

وتتجلى ظاهرة عدم الاختلاف..والتناسق المطلق الشامل الكامل..بعد ذلك في ذات المنهج الذي تحمله لعبارات.ويؤديه الأداء..منهج التربية للنفس البشرية والمجتمعات البشرية – ومحتويات هذا المنهج وجوانبه الكثيرة – ومنهج التنظيم للنشاط الإنساني للأفراد وللمجتمع الذي يضم الأفراد – وشتى الجوانب والملابسات التي تطرأ في حياة المجتمعات البشرية على توالي الأجيال – ومنهج التقويم للإدراك البشري ذاته وتناول شتى قواه

وطاقاته وإعمالها معا في عملية الإدراك! – ومنهج التنسيق بين الكائن الإنساني بجملته – في جميع مجتمعاته وأجياله ومستوياته – وبين هذا الكون الذي يعيش فيه ثم بين دنياه وآخرته وما يشتجر في العلاقة بينهما من ملابسات لا تحصى في عالم كل فرد وفي عالم «الإنسان» وهو يعيش في هذا الكون بشكل عام..

وإذا كان الفارق بين صنعة اللّه وصنعة الإنسان واضحا كل الوضوح في جانب التعبير اللفظي والأداء الفني،فإنه أوضح من ذلك في جانب التفكير والتنظيم والتشريع.فما من نظرية بشرية،وما من مذهب بشري،إلا وهو يحمل الطابع البشري..جزئية النظر والرؤية..والتأثر الوقتي بالمشكلات الوقتية..وعدم رؤية المتناقضات في النظرية أو المذهب أو الخطة التي تؤدي إلى الاصطدام بين مكوّناتها – إن عاجلا وإن آجلا – كما تؤدي إلى إيذاء بعض الخصائص في الشخصية البشرية الواحدة التي لم يحسب حساب بعضها أو في مجموعة الشخصيات الذين لم يحسب حساب كل واحدة منها..إلى عشرات ومئات من النقائص والاختلاف،الناشئة من طبيعة الإدراك البشري المحدود،ومن الجهل البشري بما وراء اللحظة الحاضرة،فوق جهله بكل مكونات اللحظة الحاضرة – في أية لحظة حاضرة! – وعكس ذلك كله هو ما يتسم به المنهج القرآني الشامل المتكامل،الثابت الأصول ثبات النواميس الكونية الذي يسمح بالحركة الدائمة – مع ثباته – كما تسمح بها النواميس الكونية! وتدبر هذه الظاهرة،في آفاقها هذه،قد لا يتسنى لكل إدراك،ولا يتسنى لكل جيل.بل المؤكد أن كل إدراك سيتفاوت مع الآخر في إدراكها وكل جيل سيأخذ بنصيبه في إدراكها ويدع آفاقا منها للأجيال المترقية،في جانب من جوانب المعرفة أو التجربة..إلا أنه يتبقى من وراء كل الاختلاف البشري الكثير في إدراك هذه الظاهرة – كاختلافه الكثير في كل شيء آخر! – بقية يلتقي عليها كل إدراك،ويلتقي عليها كل جيل..

وهي أن هذه الصنعة شيء وصنعة البشر شيء آخر.وأنه لا اختلاف في هذه الصنعة ولا تفاوت،وإنما وحدة وتناسق..ثم يختلف الناس بعد ذلك ما يختلفون في إدراك آماد وآفاق وأبعاد وأنواع ذلك التناسق!.

وإلى هذا القدر الذي لا يخطئه متدبر – حين يتدبر – يكل اللّه تلك الطائفة،كما يكل كل أحد،وكل جماعة،وكل جيل.وإلى هذا القدر من الإدراك المشترك يكل إليهم الحكم على هذا القرآن وبناء اعتقادهم في أنه من عند اللّه.ولا يمكن أن يكون من عند غير اللّه.

ويحسن أن نقف هنا وقفة قصيرة،لتحديد مجال الإدراك البشري في هذا الأمر وفي أمر الدين كله.فلا يكون هذا التكريم الذي كرمه اللّه للإنسان بهذا التحكيم،سبيلا إلى الغرور،وتجاوز الحد المأمون والانطلاق من السياج الحافظ من المضي في التيه بلا دليل! إن مثل هذه التوجيهات في القرآن الكريم يساء إدراكها،وإدراك مداها.فيذهب بها جماعة من المفكرين الإسلاميين – قديما وحديثا – إلى إعطاء الإدراك البشري سلطة الحكم النهائية في أمر الدين كله.ويجعلون منه ندا لشرع اللّه.بل يجعلونه هو المسيطر على شرع اللّه! الأمر ليس كذلك..الأمر أن هذه الأداة العظيمة – أداة الإدراك البشري – هي بلا شك موضع التكريم من اللّه – ومن ثم يكل إليها إدراك الحقيقة الأولى:حقيقة أن هذا الدين من عند اللّه.لأن هناك ظواهر يسهل إدراكها وهي كافية بذاتها للدلالة – دلالة هذا الإدراك البشري ذاته – على أن هذا الدين من عند اللّه..ومتى أصبحت هذه القاعدة الكبيرة مسلما بها،أصبح من منطق هذا الإدراك ذاته أن يسلم – بعد ذلك – تلقائيا بكل ما ورد في هذا الدين – لا يهم عندئذ أن يدرك حكمته الخفية أو لا يدركها.فالحكمة متحققة حتما ما دام من عند اللّه.ولا يهم عندئذ أن يرى «المصلحة» متحققة فيه في اللحظة الحاضرة.فالمصلحة متحققة حتما ما دام من عند اللّه..والعقل البشري ليس ندا لشريعة اللّه – فضلا على أن يكون الحاكم عليها – لأنه لا يدرك إلا إدراكا ناقصا في المدى المحدود ويستحيل أن ينظر من جميع الزوايا وإلى جميع المصالح – لا في اللحظة الواحدة ولا في التاريخ كله – بينما شريعة اللّه تنظر هذه النظرة فلا ينبغي أن يكون الحكم فيها،أو في حكم ثابت قطعي من أحكامها موكولا إلى الإدراك البشري..وأقصى ما يتطلب من الإدراك البشري أن يتحرى إدراك دلالة النص وانطباقه لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه! فالمصلحة متحققة أصلا بوجود النص من قبل اللّه تعالى..إنما يكون هذا فيما لا نص فيه،مما يجدّ من الأقضية وهذا سبق بيان المنهج فيه،وهو رده إلى اللّه

والرسول..وهذا هو مجال الاجتهاد الحقيقي.إلى جانب الاجتهاد في فهم النص،والوقوف عنده،لا تحكيم العقل البشري في أن مدلوله يحمل المصلحة أو لا يحملها!!! إن مجال العقل البشري الأكبر في معرفة نواميس الكون والإبداع في عالم المادة..وهو ملك عريض!!! يجب أن نحترم الإدراك البشري بالقدر الذي أراده اللّه له من التكريم في مجاله الذي يحسنه - ثم لا نتجاوز به هذا المجال.كي لا نمضي في التيه بلا دليل.إلا دليلا يهجم على ما لا يعرف من مجاهل الطريق..وهو عندئذ أخطر من المضي بلا دليل !!![٦٥]

١١- التكامل (أو الترابط)::

إن هذه العقيدة لا تتسم بالشمول الذى ذكرنا مجالاته ومحاوره المختلفة فحسب،بل بالتكامل والترابط كذلك.وهذه مستقلة عن الشمول،وإن كانت وثيقة الصلة به .

١- فى مجال الاعتقاد:

قلنا إنها تشمل الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والقدر خيره وشره.ولكن الشمول في ذاته لا يعني ترابط هذه المعتقدات بعضها ببعض.فقد تكون موجودة بعضها إلى جوار بعض،دون ترابط بين أركانها المختلفة،كل منها يعمل في حقل مستقل غير مرتبط بالآخر.وليس هذا هو الحال في هذه العقيدة.فإن كل ركن من هذه الأركان ذو صلة وثيقة بسائرها،بحيث تكون في النهاية كلاً متكاملاً،يؤثر بمجموعه المترابط في حياة الإنسان.

وإن شئت الدقة فقل إن سائر أركان العقيدة الإسلامية مرتبط بركنها الأول وهو الأكبر وهو الإيمان بالله.

فالإيمان بالله هو الأساس،وهو لب العقيدة وصلبها،ثم تأتي بقية الأركان فتتصل به فتتكامل.

فالإيمان باليوم الآخر - كما رأينا في حديثنا عنه - مرتبط بعدل الله وحكمته وبالحق الذي خلق الله به السماوات والأرض،وخلق به الحياة والموت،أي أنه مرتبط ارتباطاً مباشراً بتصورنا لصفات الله جل وعلا،بحيث يصبح تصورنا لها ناقصاً ومختلاً إذا لم نؤمن

---

[٦٥] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٧٢١)

بذلك اليوم الذي يحق فيه الحق وتكتمل الصورة ويصل كل شيء فيه إلى دلالته الحقيقية الكاملة.

والإيمان بالملائكة متصل بقدرة الله من جانب:(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [فاطر:١].

ومتصل بمعرفة المنهج الذي يريد الله أن تسير حياتنا عليه من جانب آخر،لأنهم هم الرسل الذين يرسلهم الله ليبلغوا وحيه لمن يختارهم من البشر لهداية البشرية.

وبذلك لا يكون الإيمان بالملائكة ركناً منفصلاً في هذه العقيدة قائماً بذاته وإنما هو متصل بالإيمان بالله،ومترابط مع بقية الأركان.

ونستطيع على هذا الضوء أن ندرك ترابط بقية الأركان بعضها ببعض،وترابط سائرها بالإيمان بالله.فالإيمان بالكتب متصل مباشرة بالمنهج الرباني أي بما يشرعه الله للبشر لتستقيم حياتهم في الحياة الدنيا والآخرة.وكذلك الإيمان بالنبيين،لأنهم هم الذين يحملون إلينا المنهج الرباني بما يوحي الله إليهم عن طريق ملائكته.

أما الإيمان بالقدر فقد رأينا في حديثنا القريب عنه كيف أنه متصل بإيماننا بوحدانية الله مباشرة،لأنه هو الإجابة المباشرة على هذا السؤال:هل هناك في الكون من يشترك مع الله في تدبير شئونه وإجراء أحداثه،أم أنه هو الله وحده ؟

وبذلك يتضح لنا الترابط جلياً بين هذه الأركان كلها في مجال الاعتقاد.

٢- وفى مجال العمل:

قلنا:إن العقيدة تشمل العمل للدنيا والعمل للآخرة في ذات الوقت،وهنا نقول:إن من خصائص هذه العقيدة أنها لا تفصل بين العمل للدنيا والعمل للآخرة.

فليس هناك في الإسلام عمل هو للدنيا وحدها،وعمل هو للآخرة وحدها ! إنما الأعمال كلها للدنيا والآخرة في وقت واحد.

العبادات التي يُظَنّ أنها للآخرة وحدها،كلها ذات مقتضى متصل بالحياة الدنيا:(إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) [العنكبوت:٤٥].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة:١٨٣].

أي هنا في الحياة الدنيا:

وهكذا في سائر العبادات هي للآخرة وفي ذات الوقت لها غاية تتحقق هنا في الأرض.

والأعمال التي يظن أنها للدنيا وحدها من جانب آخر كالطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس وعمارة الأرض..إلخ كلها تعمل في الدنيا ولكن يشترط فيها شروط تربطها بالآخرة.يشترط فيها التزام الحلال والحرام والالتزام بأمر الله من أجل الثواب أو العقاب الذي يترتب على ذلك في الآخرة.وكلها في نظر الإسلام"عبادة"متى ما روعي فيها الالتزام بأمر الله،وتوجه بها الإنسان إلى الله.بل هي"العبادة"التي تشير إليها الآية:(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:٥٦].

والآيتان الأخريان:(قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،لا شَرِيكَ لَهُ) [الأنعام:١٦٢،١٦٣].

وبذلك تتصل الدنيا والآخرة وتترابط في عقيدة الإسلام .

٣- وفى مجال الكائن البشرى:

قلنا:إنها تشمل حركة جسمه وتفكر عقله وانطلاقة روحه.ولكن هذه ليست مستقلة بعضها عن بعض.صحيح أن هناك ساعة تغلب فيها حركة الجسم كالطعام والشراب والجنس وساعة يغلب فيها تفكر العقل كساعات التأمل أو ساعات التفكير في شأن من شئون العلم أو العمل،وساعة تغلب فيها انطلاقة الروح كساعة التعبد.

ولكنّ الإسلام لا يدع واحدة من هذه تنفصل انفصالاً كاملاً بحيث تنقطع صلتها عن الباقيات.

في الطعام والشراب والجنس..إلخ،يتحرى الإنسان الحرام والحلال ويذكر اسم الله.فلا تعود حركة جسد مستقلة !

وفي التفكر كذلك يتوقى الإنسان التفكير الشرير ويتحرى التفكير الخير،ويتقي الله.فلا يعود تفكراً عقلياً خالصاً !

وفي العبادة الإسلامية يتحرك الجسد ويعمل العقل مع انطلاقة الروح.وخذ الصلاة مثلاً،إنها ليست انطلاقة روح مستقلة،إنما يشارك فيها الجسم بالقيام والقعود والركوع والسجود،ويشارك فيها الفكر بالتدبر في آيات الله،ويقول الرسول ﷺ:" لَيسَ لَكَ مِنْ صَلاتكَ إلاّ ما وَعَيْتَ ".

وبذلك يترابط الكائن البشري كله في أداء متطلبات هذه العقيدة فلا ينفصل جسمه عن عقله أو عن روحه !

٤- وفى مجال المجموع البشرى:

قلنا:إنها تشمل الفرد والجماعة والأمة والدولة..ونقول هنا:إن هذه العقيدة لا تأخذ أيّا من هذه بمعزل عن الأخرى.فهي لا تنشئ الفرد الصالح بمعايير،والجماعة الصالحة بمعايير أخرى.إنما هي ذات المعايير وإن اختلفت التكاليف بين الفرد والجماعة.

المعايير هي الإيمان بالله وتقوى الله والالتزام بما أنزل الله.ثم تكون بعد ذلك تكاليف يقوم بها الفرد بمفرده وتكاليف أخرى تقوم بها الجماعة مجتمعة.ولكن يلتقي الفرد والمجموع معاً على أسس واحدة وتربية ذات اتجاه موحد.ومن ثمَّ لا تفترق الأمة – حين تلتقي – إلى طوائف وشيع متنافرة كل منها يعمل في اتجاه،ولا إلى فرد متخاصم مع المجموع.ولا تتحول كما يحدث في الجاهليتين المعاصرتين في الغرب والشرق إلى فرد طاغ ومجموع مفكك،أو مجموع طاغ وفرد مسحوق !

وكذلك تلتقي الأمة والدولة على أمر واحد،هو عبادة الله والحكم بما أنزل الله،وهو أمر من صلب الاعتقاد،لقوله تعالى:(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) [المائدة:٤٤].

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وهو مقتضى الإيمان بالله لقوله تعالى:(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [آل عمران:١١٠].

فيحدث الترابط بينهما والاتفاق .

٥- وفى مجال العلاقات:

قلنا:إنها تشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بالآخرين.وهنا نقول:إن هـذه كلها تترابط وتلتقي عن طريق المحور المشترك فيها جميعاً وهو الإيمان بالله وعبادته.فعلاقـة الإنسان بربه هي الإيمان والعبادة،وعلاقته بنفسه هي تزكيتها،والتزكية تتم عـن طريـق الإيمان والعبادة،وعن طريق الالتزام بأوامر الله وهو مقتضى الإيمان والعبادة.وعلاقتـه (أو علاقاته) بغيره تتم كلها عن طريق تنفيذ أوامر الله والتحاكم إلى ما أنزل الله

وبذلك تنتظم العلاقات كلها في سلك واحد قوامه الإيمان بالله..

وهكذا يبدو الترابط والتكامل بين أركان هذه العقيدة على جميـع المحـاور وفي جميـع المجالات[٦٦].

١٢- العموم والشمول والصلاح:

شمول لجميع حاجات الفرد،في قلبه وعاطفته وأحاسيسه وفي مشاعره وجوارحه وفي متطلبات حياته الفردية والأسرية والاجتماعية والعالمية،فهي شاملة لكل ما يحتاجه أو ما يحقق السعادة للناس في الدنيا والآخرة.

إن هذه العقيدة تشمل الإنسان كله،جسمه وعقله وروحه،كما تشمل سلوكه وفكره ومشاعره،كما تشمل دنياه وآخرته.

ليس في كيان الإنسان ولا في حياته شيء لا يتصل بهذه العقيدة ولا تتصل العقيدة به.

إنها تصاحبه في كل لحظة من لحظات حياته،وفي كل عمل يعمله،أو فكر يفكره،أو شعور يختلج في ضميره.

ويتضح لنا الشمول في مجالات متعددة،وعلى محاور مختلفة،تلتقي كلها في النهاية:

١- ففي مجال الاعتقاد تشمل - كما رأينا - الإيمان بالله واليوم الاخر والملائكة والنبيين والكتب السماوية والقدر خيره وشره.

٢- وفي مجال العمل تشمل العمل للدنيا والعمل للآخرة في ذات الوقت.

٣- وفي مجال الكائن البشري تشمل حركة جسمه وتفكّر عقله وانطلاقة روحه.

٤- وفي مجال المجموع البشري تشمل الفرد والجماعة والأمة والدولة في ذات الوقت.

---

[٦٦] - ركائز الإيمان لمحمد قطب بتحقيقي (ص :٤٢٣) فما بعدها

٥- وفي مجال العلاقات تشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بغيره (في داخل الأسرة وفي داخل المجتمع وفيما بين المسلمين وغير المسلمين،وفيما بين الإنسان والكون كذلك !).

ولن توجد دائرة أوسع من هذه ولا أشمل.لأن هذه تشمل كل شيء في الوجود ! [٦٧]

فهي عامة،شاملة،صالحة لكل زمان ومكان،وحال،وأمة.بل إن الحياة لا تستقيم إلا بها.قال تعالى:{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا..} (٣) سورة المائدة

إن قول اللّه سبحانه لهذه الأمة:«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ،وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً»..يتضمن توحيد المصدر الذي تتلقى منه هذه الأمة منهج حياتها ونظام مجتمعها،وشرائع ارتباطاتها ومصالحها إلى يوم القيامة،كما يتضمن استقرار هذا الدين بكل جزئياته الاعتقادية والتعبدية والتشريعية فلا تعديل فيها ولا تغيير فقد اكتمل هذا الدين وتم وانتهى أمره.وتعديل شيء فيه كإنكاره كله لأنه إنكار لما قرره اللّه من تمامه وكماله وهذا الإنكار هو الكفر الذي لا جدال فيه..أما العدول عنه كله إلى منهج آخر،ونظام آخر،وشريعة أخرى فلا يحتاج منا إلى وصف،فقد وصفه اللّه - سبحانه - في السورة.ولا زيادة بعد وصف اللّه - سبحانه - لمستزيد..

إن هذه الآية تقرر - بما لا مجال للجدال فيه - أنه دين خالد،وشريعة خالدة.وأن هذه الصورة التي رضيها اللّه للمسلمين دينا هي الصورة الأخيرة..إنها شريعة ذلك الزمان وشريعة كل زمان وليس لكل زمان شريعة،ولا لكل عصر دين..إنما هي الرسالة الأخيرة للبشر،قد اكتملت وتمت،ورضيها اللّه للناس دينا.

فمن شاء أن يبدل،أو يحور أو يغير،أو يطور! إلى آخر هذه التعبيرات التي تلاك في هذا الزمان،فليبتغ غير الإسلام دينا..«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ».

إن هذا المنهج الإلهي المشتمل على التصور الاعتقادي،والشعائر التعبدية،والشرائع المنظمة لنشاط الحياة كله يحكم ويصرف ويهيمن على نشاط الحياة كله وهو يسمح للحياة بأن

---

[٦٧] -ركائز الإيمان للعلامة محمد قطب بتحقيقي (ص ٤٢٢)

تنمو في إطاره وترتقي وتتطور دون خروج على أصل فيه ولا فرع،لأنه لهذا جاء،ولهذا كان آخر رسالة للبشر أجمعين..

إن تطور الحياة في ظل هذا المنهج لا يعني مجافاتها أو إهمالها لأصل فيه ولا فرع ولكن يعني أن طبيعة المنهج تحتوي كل الإمكانيات التي تسع ذلك التطور بلا خروج على أصل أو فرع.ويعني أن كل تطور في الحياة كان محسوبا حسابه في ذلك المنهج لأن اللّه – سبحانه – لم يكن يخفى عليه – وهو يضع هذا المنهج في صورته الأخيرة،ويعلن إكماله وارتضاءه للناس دينا – أن هناك تطورات ستقع،وأن هناك حاجات ستبرز،وأن هناك مقتضيات ستتطلبها هذه التطورات والحاجات.فلا بد إذن أن يكون هذا المنهج قد احتوى هذه المقتضيات جميعا..[٦٨]

ويقف المؤمن أمام هذه الكلمات الهائلة فلا يكاد ينتهي من استعراض ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة،وتوجيهات عميقة،ومقتضيات وتكاليف..

إن المؤمن يقف أولا:أمام إكمال هذا الدين يستعرض موكب الإيمان،وموكب الرسالات،وموكب الرسل،منذ فجر البشرية،ومنذ أول رسول – آدم عليه السلام – إلى هذه الرسالة الأخيرة.رسالة النبي الأمي إلى البشر أجمعين..فماذا يرى؟..يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل.موكب الهدى والنور.ويرى معالم الطريق،على طول الطريق.ولكنه يجد كل رسول – قبل خاتم النبيين – إنما أرسل لقومه.ويرى كل رسالة – قبل الرسالة الأخيرة – إنما جاءت لمرحلة من الزمان..رسالة خاصة،لمجموعة خاصة،في بيئة خاصة..ومن ثم كانت كل تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه متكيفة بهذه الظروف..كلها تدعو إلى إله واحد – فهذا هو التوحيد – وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد – فهذا هو الدين – وكلها تدعو إلى التلقي عن هذا الإله الواحد والطاعة لهذا الإله الواحد – فهذا هو الإسلام – ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف..

---

[٦٨] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ٨٣٣)

حتى إذا أراد اللّه أن يختم رسالاته إلى البشر أرسل إلى الناس كافة،رسولا خاتم النبيين برسالة «للإنسان» لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة،في زمان خاص،في ظروف خاصة..رسالة تخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير:

«فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»..وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة «الإنسان» من جميع أطرافها،وفي كل جوانب نشاطها وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان..وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة «الإنسان» منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات،لكي تستمر،وتنمو،وتتطور،وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار..وقال اللّه - سبحانه - للذين آمنوا:«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ.وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي.وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً»..

فأعلن لهم إكمال العقيدة،وإكمال الشريعة معا..فهذا هو الدين..ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين - بمعناه هذا - نقصا يستدعي الإكمال.ولا قصورا يستدعي الإضافة.ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير..وإلا فما هو بمؤمن وما هو بمقر بصدق اللّه وما هو بمرتض ما ارتضاه اللّه للمؤمنين! إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن،هي شريعة كل زمان،لأنها - بشهادة اللّه - شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان لا لجماعة من بني الإنسان،في جيل من الأجيال،في مكان من الأمكنة،كما كانت تجيء الرسل والرسالات.

الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي.والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان دون أن تخرج عليه،إلا أن تخرج من اطار الإيمان! واللّه الذي خلق «الإنسان» ويعلم من خلق هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة.

فلا يقول:إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم،إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من اللّه بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان! ويقف المؤمن ثانيا:أمام إتمام نعمة اللّه على المؤمنين،بإكمال هذا الدين وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة.

النعمة التي تمثل مولد «الإنسان» في الحقيقة،كما تمثل نشأته واكتماله.«فالإنسان» لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له.وقبل أن يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين.وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته على ربه،كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضيه له ربه.

و«الإنسان» لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة اللّه وحده وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع اللّه وبسلطانه لا من صنع أحد ولا بسلطانه.

إن معرفة «الإنسان» بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين هي بدء مولد «الإنسان»..إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوي يمكن أن يكون «حيوانا» أو أن يكون «مشروع إنسان» في طريقه إلى التكوين! ولكنه لا يكون «الإنسان» في أكمل صورة للإنسان،إلا بمعرفة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن..

والمسافة بعيدة بعيدة بين هذه الصورة،وسائر الصور التي اصطنعها البشر في كل زمان!

وإن تحقيق هذه الصورة في الحياة الإنسانية،لهو الذي يحقق «للإنسان» «إنسانيته» كاملة..يحققها له وهو يخرجه بالتصور الاعتقادي،في اللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر،من دائرة الحس الحيواني الذي لا يدرك إلا المحسوسات،إلى دائرة «التصور» الإنساني،الذي يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات.

عالم الشهادة وعالم الغيب..عالم المادة وعالم ما وراء المادة..وينقذه من ضيق الحس الحيواني المحدود!

ويحققها له وهو يخرجه بتوحيد اللّه،من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده،والتساوي والتحرر والاستعلاء أمام كل من عداه.فإلى اللّه وحده يتجه بالعبادة،ومن اللّه وحده يتلقى المنهج والشريعة والنظام،وعلى اللّه وحده يتوكل ومنه وحده يخاف ..

ويحققها له،بالمنهج الرباني،حين يرفع اهتماماته ويهذب نوازعه،ويجمع طاقته للخير والبناء والارتقاء،والاستعلاء على نوازع الحيوان،ولذائذ البهيمة وانطلاق الأنعام!

ولا يدرك حقيقة نعمة اللّه في هذا الدين،ولا يقدرها قدرها،من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذق ويلاتها – والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشرعه اللّه – فهذا الذي عرف الجاهلية وذاق ويلاتها..ويلاتها في التصور والاعتقاد،وويلاتها في واقع الحياة..هو الذي يحس ويشعر،ويرى ويعلم،ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة اللّه في هذا الدين..

الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى،وويلات الحيرة والتمزق،وويلات الضياع والخواء،في معتقدات الجاهلية وتصوراتها في كل زمان وفي كل مكان..هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الإيمان.«٤»

والذي يعرف ويعاني ويلات الطغيان والهوى،وويلات التخبط والاضطراب،وويلات التفريط والإفراط في كل أنظمة الحياة الجاهلية،هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الحياة في ظل الإيمان بمنهج الإسلام.ولقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة،يعرفون ويدركون ويتذوقون هذه الكلمات.لأن مدلولاتها كانت متمثلة في حياتهم،في ذات الجيل الذي خوطب بهذا القرآن..

كانوا قد ذاقوا الجاهلية..ذاقوا تصوراتها الاعتقادية.وذاقوا أوضاعها الاجتماعية.وذاقوا أخلاقها الفردية والجماعية.وبلوا من هذا كله ما يدركون معه حقيقة نعمة اللّه عليهم بهذا الدين وحقيقة فضل اللّه عليهم ومنته بالإسلام.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية وسار بهم في الطريق الصاعد،إلى القمة السامقة – كما فصلنا ذلك في مستهل سورة النساء «٦» – فإذا هم على القمة ينظرون من عل إلى سائر أمم الأرض من حولهم نظرتهم إلى ماضيهم في جاهليتهم كذلك.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التصورات الاعتقادية حول ربوبية الأصنام،والملائكة،والجن،والكواكب،والأسلاف وسائر هذه الأساطير الساذجة والخرافات السخيفة لينقلهم إلى أفق التوحيد.إلى أفق الإيمان بإله واحد،قادر قاهر،رحيم ودود،سميع

بصير،عليم خبير.عادل كامل.قريب مجيب.لا واسطة بينه وبين أحد والكل له عباد،والكل له عبيد..ومن ثم حررهم من سلطان الكهانة،ومن سلطان الرياسة،يوم حررهم من سلطان الوهم والخرافة..

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في الأوضاع الاجتماعية.من الفوارق الطبقية ومن العادات الزرية ومن الاستبداد الذي كان يزاوله كل من تهيأ له قدر من السلطان (لا كما هو سائد خطأ من أن الحياة العربية كانت تمثل الديمقراطية!).

«فقد كانت القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجاه في عرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها في الجنوب إلى أقصاها في الشمال.وما كان الشاعر النجاشي إلا قادحا مبالغا في القدح حين استضعف مهجوه،لأن:

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

«وما كان حجر بن الحارث إلا ملكا عربيا حين سام بني أسد أن يستعبدهم بالعصا،وتوسل إليه شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول:

أنت المملك فيهم وهم العبيد إلى القيامة ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامة

«وكان عمر بن هند ملكا عربيا حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار وحين استكثر على سادة القبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته في داره.

«وكان النعمان بن المنذر ملكا عربيا حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوما للرضى يغدق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء ويوما للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء.

«وقد قيل عن عزة كليب وائل:إنه سمي بذلك لأنه كان يرمي الكليب حيث يعجبه الصيد،فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه.وقيل:«لا حر بوادي عوف» لأنه من عزته كان لا يأوي بواديه من يملك حرية في جواره.فكلهم أحرار في حكم العبيد..».

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التقاليد والعادات والأخلاق والصلات الاجتماعية..كان قد التقطهم من سفح البنت الموءودة،والمرأة المنكودة،والخمر والقمار

والعلاقات الجنسية الفوضوية،والتبرج والاختلاط مع احتقار المرأة ومهانتها،والثارات والغارات والنهب والسلب،مع تفرق الكلمة وضعف الحيلة أمام أي هجوم خارجي جدي،كالذي حدث في عام الفيل من هجوم الأحباش على الكعبة،وتخاذل وخذلان القبائل كلها،هذه القبائل التي كان بأسها بينها شديدا «٢»! وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة تطل من القمة السامقة على البشرية كلها في السفح،في كل جانب من جوانب الحياة.في جيل واحد.عرف السفح وعرف القمة.عرف الجاهلية وعرف الإسلام.ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معنى قول اللّه لهم:

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ،وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي،وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً»..

ويقف المؤمن ثالثا:أمام ارتضاء اللّه الإسلام دينا للذين آمنوا..يقف أمام رعاية اللّه – سبحانه – وعنايته بهذه الأمة،حتى ليختار لها دينها ويرتضيه..وهو تعبير يشي بحب اللّه لهذه الأمة ورضاه عنها،حتى ليختار لها منهج حياتها..

وإن هذه الكلمات الهائلة لتلقي على عاتق هذه الأمة عبئا ثقيلا،يكافىء هذه الرعاية الجليلة..أستغفر اللّه..

فما يكافىء هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شيء تملك هذه الأمة بكل أجيالها أن تقدمه..وإنما هو جهد الطاقة في شكر النعمة،ومعرفة المنعم..وإنما هو إدراك الواجب ثم القيام بما يستطاع منه،وطلب المغفرة والتجاوز عن التقصير والقصور فيه.

إن ارتضاء اللّه الإسلام دينا لهذه الأمة،ليقتضي منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيار.ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار..وإلا فما أنكد وما أحمق من يهمل – بله أن يرفض – ما رضيه اللّه له،ليختار لنفسه غير ما اختاره اللّه!..وإنها – إذن – لجريمة نكدة لا تذهب بغير جزاء،ولا يترك صاحبها يمضي ناجيا أبدا وقد رفض ما ارتضاه له اللّه..ولقد يترك اللّه الذين لم يتخذوا الإسلام دينا لهم،يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين..فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه..

واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم اللّه..فلن يتركهم اللّه أبدا ولن يمهلهم أبدا،حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون![69]

١٣- أنها سبب للنصر والظهور والتمكين:

قال تعالى:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُم في الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ من قَبْلهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْد خَوْفهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَني لَا يُشْرِكُونَ بي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلكَ فَأُوْلَئكَ هُمُ الْفَاسقُونَ} (٥٥) سورة النـــــور

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد اللّه حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله وتوجه النشاط الإنساني كله.فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى اللّه لا يبتغي به صاحبه إلا وجه اللّه وهي طاعة للّه واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة،لا يبقى معها هوى في النفس،ولا شهوة في القلب،ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول اللّه - ﷺ - من عند اللّه.

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله،بخواطر نفسه،وخلجات قلبه.وأشواق روحه،وميول فطرته،وحركات جسمه،ولفتات جوارحه،وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعا.ويتوجه بهذا كله إلى اللّه..

يتمثل هذا في قول اللّه سبحانه في الآية نفسها تعليلا للاستخلاف والتمكين والأمن:«يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً» والشرك مداخل وألوان،والتوجه إلى غير اللّه بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك باللّه.

ذلك الإيمان منهج حياة كامل،يتضمن كل ما أمر اللّه به،ويدخل فيما أمر اللّه به توفير الأسباب،وإعداد العدة،والأخذ بالوسائل،والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض..أمانة الاستخلاف..

فما حقيقة الاستخلاف في الأرض؟

---

[69] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٨٤٢)

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم..إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء وتحقيق المنهج الذي رسمه اللّه للبشرية كي تسير عليه وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض،اللائق بخليقة أكرمها اللّه.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح،لا على الهدم والإفساد.وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة،لا على الظلم والقهر.وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري،لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان! وهذا الاستخلاف هو الذي وعده اللّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات..وعدهم اللّه أن يستخلفهم في الأرض – كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم – ليحققوا النهج الذي أراده اللّه ويقرروا العدل الذي أراده اللّه ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها اللّه..فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض،وينشرون فيها البغي والجور،وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان..فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض.إنما هم مبتلون بما هم فيه،أو مبتلى بهم غيرهم،ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها اللّه آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده:«وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ»..وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب،كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها.فقد وعدهم اللّه إذن أن يستخلفهم في الأرض،وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض.ودينهم يأمر بالإصلاح،ويأمر بالعدل،ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض.ويأمر بعمارة هذه الأرض،والانتفاع بكل ما أودعها اللّه من ثروة،ومن رصيد،ومن طاقة،مع التوجه بكل نشاط فيها إلى اللّه.

« وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً»..ولقد كانوا خائفين،لا يأمنون،ولا يضعون سلاحهم أبدا حتى بعد هجرة الرسول – ﷺ – إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة.

وعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ،فِي قَوْلِهِ:""وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهَمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ،وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا" إِلَى آخِرِ الآيَةِ،قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺوَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ سِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ سِرًّا وَهُمْ خَائِفُونَ لا

يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ،حَتَّى أُمِرُوا بَعْدَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْقِتَالِ وَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمْسُونَ فِي السِّلاحِ،وَيُصْبِحُونَ فِي السِّلاحِ،فَغَبَرُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ،ثُمَّ إِنَّ رَجُلا مِنْ أَصْحَابِهِ،قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَبَدَ الدَّهْرِ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا،مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ وَنَضَعُ فِيهِ السِّلاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:لَنْ تَغْبُرُوا إِلا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ"،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا" إِلَى آخرِها[٧٠] فأظهر اللّه نبيه على جزيرة العرب،فأمنوا ووضعوا السلاح.ثم إن اللّه قبض نبيه - ﷺ - فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان.حتى وقعوا فيما وقعوا فيه،فأدخل اللّه عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط،وغيروا فغير بهم..

«وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ»..الخارجون على شرط اللّه.ووعد اللّه.وعهد اللّه..

لقد تحقق وعد اللّه مرة.وظل متحققا وواقعا ما قام المسلمون على شرط اللّه:«يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً»..لا من الآلهة ولا من الشهوات.ويؤمنون - من الإيمان - ويعملون صالحا.ووعد اللّه مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة.إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن.

لتخلف شرط اللّه في جانب من جوانبه الفسيحة أو في تكليف من تكاليفه الضخمة حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء،وجازت الابتلاء،وخافت فطلبت الأمن،وذلت فطلبت العزة،وتخلفت فطلبت الاستخلاف..

كل ذلك بوسائله التي أرادها اللّه،وبشروطه التي قررها اللّه..تحقق وعد اللّه الذي لا يتخلف،ولا تقف في طريقة قوة من قوى الأرض جميعا.

لذلك يعقب على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة وبألا يحسب الرسول - ﷺ - وأمته حسابا لقوة الكافرين الذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذي ارتضى لهم:«وَأَقِيمُوا

---

[٧٠] - تفسير ابن أبي حاتم - (١٠ / ١٩٣) (١٥٥٦٨) حسن مرسل

الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ،وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ.وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ»..

فهذه هي العدة..الاتصال باللّه،وتقويم القلب بإقامة الصلاة.والاستعلاء على الشح،وتطهير النفس والجماعة بإيتاء الزكاة.وطاعة الرسول والرضى بحكمه،وتنفيذ شريعة اللّه في الصغيرة والكبيرة،وتحقيق النهج الذي أراده للحياة:«لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» في الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضلال،وفي الآخرة من الغضب والعذاب والنكال.

فإذا استقمتم على النهج،فلا عليكم من قوة الكافرين.فما هم بمعجزين في الأرض،وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم في طريق.وأنتم أقوياء بإيمانكم،أقوياء بنظامكم،أقوياء بعدتكم التي تستطيعون.وقد لا تكونون في مثل عدتهم من الناحية المادية.ولكن القلوب المؤمنة التي تجاهد تصنع الخوارق والأعاجيب.

إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد اللّه في تلك الآيات.ولا بد أن يبحث عن مصداقها في تاريخ الحياة البشرية،وهو يدرك شروطها على حقيقتها،قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب،أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات.

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج اللّه،وحكمت هذا النهج في الحياة،وارتضته في كل أمورها..

إلا تحقق وعد اللّه بالاستخلاف والتمكين والأمن.وما من مرة خالفت عن هذا النهج إلا تخلفت في ذيل القافلة،وذلت،وطرد دينها من الهيمنة على البشرية واستبد بها الخوف وتخطفها الأعداء.

ألا وإن وعد اللّه قائم.ألا وإن شرط اللّه معروف.فمن شاء الوعد فليقم بالشرط.ومن أوفى بعهده من اللّه؟[٧١]

وقال تعالى { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) } [الصافات:١٧١ - ١٧٣]

[٧١] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢٥٢٨)

والوعد واقع وكلمة اللّه قائمة.ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض وقام بناء الإيمان،على الرغم من جميع العوائق،وعلى الرغم من تكذيب المكذبين،وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين.ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار.وذهبت سطوتهم ودولتهم وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل.تسيطر على قلوب الناس وعقولهم،وتكيف تصوراتهم وأفهامهم.وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض.وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل،وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل.باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعث منها.وحقت كلمة اللّه لعباده المرسلين.إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون.

هذه بصفة عامة.وهي ظاهرة ملحوظة.في جميع بقاع الأرض.في جميع العصور.

وهي كذلك متحققة في كل دعوة للّه،يخلص فيها الجند،ويتجرد لها الدعاة.إنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق،وقامت في طريقها العراقيل.ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار،وقوى الدعاية والافتراء،وقوى الحرب والمقاومة،وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها.ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده اللّه لرسله.والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه.الوعد بالنصر والغلبة والتمكين.

هذا الوعد سنة من سنن اللّه الكونية.سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة يترل عليها الماء..

ولكنها مرهونة بتقدير اللّه،يحققها حين يشاء.ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة.

ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة،ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين! ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند اللّه وأتباع رسله.ويريد اللّه صورة أخرى أكمل وأبقى.فيكون ما يريده اللّه.ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون..ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش

وأراد اللّه أن تفوقم القافلة الرابحة الهينة وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة.وكان ما أراده اللّه هو الخير لهم وللإسلام.وكان هو النصر الذي أراده اللّه لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام.

ولقد يهزم جنود اللّه في معركة من المعارك،وتدور عليهم الدائرة،ويقسو عليهم الابتلاء لأن اللّه يعدهم للنصر في معركة أكبر.ولأن اللّه يهيئ الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع،وفي خط أطول،وفي أثر أدوم.

لقد سبقت كلمة اللّه،ومضت إرادته بوعده،وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد:«وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ».[٧٢]

وذلك لا يكون إلا لأهل العقيدة الصحيحة،فهم الظاهرون،وهم الناجون،وهم المنصورون،فعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ »[٧٣] ".

وقال تعالى:{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} (٥١) سورة غافر

فأما في الآخرة فقد لا يجادل أحد من المؤمنين بالآخرة في هذه النهاية.ولا يجد ما يدعوه إلى المجادلة.

وأما النصر في الحياة الدنيا فقد يكون في حاجة إلى جلاء وبيان.

إن وعد اللّه قاطع جازم:«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا..»..بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبا مطرودا،وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب،وفيهم من يلقى في الأخدود،وفيهم من يستشهد،وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد..فأين وعد اللّه لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل،ويفعل بها الأفاعيل! ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور.ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير.

---

[٧٢] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٥ / ٣٠٠١)

[٧٣] - صحيح مسلم- المكنز (٥٠٥٩)

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان،وحيز محدود من المكان.وهي مقاييس بشرية صغيرة.فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان،ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان.ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك.وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها.فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها.وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها! والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم،قريبة الرؤية لأعينهم.ولكن صور النصر شتى.وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة..إبراهيم عليه السّلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها..أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك – في منطق العقيدة – أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار.كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار.هذه صورة وتلك صورة.وهما في الظاهر بعيد من بعيد.فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب!..والحسين – رضوان اللّه عليه – وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب،المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصرا أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة.فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصرا.فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف،وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان اللّه عليه.يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين.من المسلمين.وكثير من غير المسلمين! وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام،كما نصرها باستشهاده.وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة،ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة،بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه،فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد.وربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال..

ما النصر؟ وما الهزيمة؟ إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور.ومن القيم.قبل أن نسأل:أين وعد اللّه لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا! على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة.ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة.لقد انتصر محمد – ﷺ – في حياته.لأن هذا النصر يرتبط

بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض.فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعا.من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة.فشاء اللّه أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته،ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة،ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهودة.

ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة،واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية.

وفق تقدير اللّه وترتيبه.

وهنالك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك.إن وعد اللّه قائم لرسله وللذين آمنوا.ولا بد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها.وحقيقة الإيمان كثيرا ما يتجوز الناس فيها.وهي لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله.وإن هنالك لأشكالا من الشرك خفية لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه للّه وحده،ويتوكل عليه وحده،ويطمئن إلى قضاء اللّه فيه،وقدره عليه،ويحس أن اللّه وحده هو الذي يصرفه فلا خيرة له إلا ما اختار اللّه.ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول.وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدي اللّه،ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير.

فسيكل هذا كله للّه.ويلتزم.ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير..وذلك معنى من معاني النصر..النصر على الذات والشهوات.وهو النصر الداخلي الذي لا يتم نصر خارجي بدونه بحال من الأحوال.[٧٤]

فمن أخذ بتلك العقيدة أعزه الله،ومن تركها خذله الله.

وقد عَلِم ذلك كلٌّ من قرأ التاريخ،فمتى حاد المسلمون عن دينهم ـــ حاق بهم ما حاق،كما حدث لهم في الأندلس وغيرها.[٧٥]

١٤– أنها ترفع قدر أهلها:

[٧٤] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٥ / ٣٠٨٥)

[٧٥] – انظر التفاصيل في كتابي ((المفصل في عوامل النصر والهزيمة))

فمن اعتقدها،وزاد علماً بها،وعملاً بمقتضاها،ودعوة للناس إليها ـــ أعلا الله قدره،ورفع له ذكره،ونشر بين الناس فضله،فرداً كان أو جماعة؛ذلك أن العقيدة الصحيحة هي أفضل ما اكتسبته القلوب،وخير ما أدركته العقول؛فهي تثمر المعارف النافعة،والأخلاق العالية

قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (١١) سورة المجادلة

وقال تعالى:{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} (٤٤) سورة الزخرف

ونص هذه الآية هنا يحتمل أحد مدلولين:

أن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة،فلا حجة بعد التذكير.

أو أن هذا القرآن يرفع ذكرك وذكر قومك.وهذا ما حدث فعلا..

فأما الرسول – ﷺ – فإن مئات الملايين من الشفاه تصلي وتسلم عليه،وتذكره ذكر المحب المشتاق آناء الليل وأطراف النهار منذ قرابة ألف وأربع مئة عام.ومئات الملايين من القلوب تخفق بذكره وحبه منذ ذلك التاريخ البعيد إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها.

وأما قومه فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لا تحس بهم،وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة.وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية.وهو الذي واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها به.فلما أن تخلوا عنه أنكرتهم الأرض،واستصغرتهم الدنيا وقذفت بهم في ذيل القافلة هناك،بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين! وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التي اختارها اللّه لدينه،واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة،إذا هي تخلت عن الأمانة:«وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ»..وهذا المدلول الأخير أوسع وأشمل.وأنا إليه أميل.[٧٦]

وقال تعالى:{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} (٣٣) سورة فصلت

[٧٦] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٥ / ٣١٩١)

إن كلمة الدعوة حينئذ هي أحسن كلمة تقال في الأرض،وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء.ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة ومع الاستسلام للّه الذي تتوارى معه الذات.فتصبح الدعوة خالصة للّه ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ.[٧٧]

وفي مقابل المتاع القليل الذاهب جنات.وخلود.وتكريم من اللّه:

«جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ»..«خالِدِينَ فِيها»..«نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»..«وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ»..

وما يشك أحد يضع ذلك النصيب في كفة،وهذا النصيب في كفة،أن ما عند اللّه خير للأبرار.وما تبقى في القلب شبهة في أن كفة الذين اتقوا أرجح من كفة الذين كفروا في هذا الميزان.وما يتردد ذو عقل في اختيار النصيب الذي يختاره لأنفسهم أولو الألباب! إن اللّه – سبحانه – في موضع التربية،وفي مجال إقرار القيم الأساسية في التصور الإسلامي لا يعد المؤمنين هنا بالنصر،ولا يعدهم بقهر الأعداء،ولا يعدهم بالتمكين في الأرض،ولا يعدهم شيئا من الأشياء في هذه الحياة..مما يعدهم به في مواضع أخرى،ومما يكتبه على نفسه لأوليائه في صراعهم مع أعدائه.

إنه يعدهم هنا شيئا واحدا.هو «ما عِنْدَ اللَّهِ».فهذا هو الأصل في هذه الدعوة.وهذه هي نقطة الانطلاق في هذه العقيدة:التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية،ومن كل مطمع – حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة اللّه وقهر أعداء اللّه – حتى هذه الرغبة يريد اللّه أن يتجرد منها المؤمنون،ويكلوا أمرها إليه،وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها! هذه العقيدة:عطاء ووفاء وأداء..فقط.وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض،وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء..ثم انتظار كل شيء هناك! ثم يقع النصر،ويقع التمكين،ويقع الاستعلاء..ولكن هذا ليس داخلا في البيعة.ليس جزءا من الصفقة.

ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا.وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء..والابتلاء..

---

[٧٧] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (ص / ٣١٢١)

على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة في مكة وعلى هذا كان البيع والشراء.و لم يمنح اللّه المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء و لم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية،إلا حين تجردوا هذا التجرد،ووفوا هذا الوفاء:

فعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:لَمَّا جَاءَتِ الْأَنْصَارُ وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺالْعَقَبَةَ ،فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ تَكَلَّمُوا وَأَوْجِزُوا فَإِنَّ عَلَيْنَا عُيُونًا"فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَاشْتَرِطْ لِنَفْسِكَ وَاشْتَرِطْ لِأَصْحَابِكَ ،فَقَالَ ﷺ:" أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ،وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ ،وَلِأَصْحَابِي الْمُسَاوَاةَ فِي ذَاتِ أَيْدِيكُمْ"ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً لَمْ يَخْطُبِ الْمُرْدُ وَلَا الشِّيبُ خُطْبَةً مِثْلَهَا قَالَ:فَمَا لَنَا قَالَ:" الْجَنَّةُ"قَالَ:ابْسُطْ يَدَكَ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعُكَ.ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:فَقَالَ يَعْنِي أَبَا أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ،إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ ،فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَسَّتْكُمْ وَقُتِلَ خِيَارُكُمْ وَمُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ ،وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ ،فَقَالُوا يَا أَسْعَدُ أَمِطْ عَنْهُ يَدَكَ فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا ،قَالَ:فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشَرْطِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ."[٧٨]

هكذا..«الجنة»..والجنة فقط! لم يقل:النصر والعز والوحدة.والقوة.والتمكين.والقيادة.والمال.

والرخاء – مما منحهم اللّه وأجراه على أيديهم – فذلك كله خارج عن الصفقة! وهكذا..ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل..لقد أخذوها صفقة بين متبايعين أنهي أمرها،وأمضي عقدها.

و لم تعد هناك مساومة حولها! وهكذا ربى اللّه الجماعة التي قدر أن يضع في يدها مقاليد الأرض،وزمام القيادة،وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كل أطماعها،وكل

---

[٧٨] – أخبار مكة للفاكهي – (٤ / ٢٣٢)(٢٥٤٠) صحيح لغيره

رغباتها،وكل شهواتها،حتى ما يختص منها بالدعوة التي تحملها،والمنهج الذي تحققه،والعقيدة التي تموت من أجلها.فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقي له أرب لنفسه في نفسه،أو بقيت فيه بقية لم تدخل في السلم كافة [79]

١٥- العقيدة الإسلامية عقيدة الألفة والاجتماع:

فما اتحد المسلمون،وما اجتمعت كلمتهم في مختلف الأعصار والأمصار إلا بتمسكهم بعقيدتهم،وأخذهم بها،وما تفرقوا واختلفوا إلا لبعدهم عنها.

قال تعالى:{ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }[آل عمران:١٠٣]

يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بالتَّمَسُّكِ بِحَبْلِ اللهِ،أيْ بِعَهْدِهِ وَدِينِهِ وَذِمَّتِهِ وَقُرْآنِهِ،وَمَا أمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الإِلْفَةِ وَالمَحَبَّةِ وَالاجْتِمَاعِ،وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ،وَيَطْلُبُ إلَيْهِمْ أنْ يَذْكُرُوا نِعْمَتَهُ عَلَيهِمْ إذْ ألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ،وَآخَى بَيْنَهُم بَعْدَ العَدَاوَةِ المُسْتَحْكِمَةِ،وَالفُرْقَةِ التي كَانَتْ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ،فَقَدْ كَانُوا عَلَى مِثْلِ شَفِيرِ النَّارِ،بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَضَلاَلِهِمْ وَاقْتِتَالِهِمْ،فَهَدَاهُمُ اللهُ وَأَنْقَذَهُمْ.

وَكَمَا بَيَّنَ لَهُمْ رَبُّهُمْ،فِي هَذِهِ الآيَاتِ،مَا يُضْمِرُهُ لَهُمُ اليَهُودُ مِنْ شَرٍّ وَخِدَاعٍ وَغِشٍّ،وَمَا كَانُوا عَلَيهِ فِي حَالِ جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنْ كُفْرٍ وَفُرْقَةٍ وَاقْتِتَالٍ،وَمَا صَارُوا إليهِ بِفَضْلِ الإِسْلاَمِ مِنْ وَحْدَةٍ وَإِخَاءٍ،كَذَلِكَ يُبَيِّن سَائِرَ حُجَجِهِ فِي تَنْزِيلِهِ عَلَى رَسُولِهِ،لِيُعِدَّهُمْ لِلاهْتِدَاءِ الدَّائِمِ،حَتَّى لا يَعُودُوا إلى عَمَلِ أهْلِ الجَاهِلِيَّةِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالعَدَاوَةِ وَالاقْتِتَالِ.[80]

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام..من الركيزة الأولى..أساسها الاعتصام بحبل اللّه - أي عهده ونهجه ودينه - وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر،ولا على أي هدف آخر،ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة! «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا»..

---

[79] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٥٥٠)

[80] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٣٩٦)

هذه الأخوة المعتصمة بحبل اللّه نعمة يمتن اللّه بها على الجماعة المسلمة الأولى.وهي نعمة يهبها اللّه لمن يحبهم من عباده دائما.وهو هنا يذكرهم هذه النعمة.يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية «أَعْداءً»..وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد.وهما الحيان العربيان في يثرب.يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعا.ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلا فيه،ولا تعيش إلا معه.فألف اللّه بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام..وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة.وما كان إلا حبل اللّه الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة اللّه إخوانا.

ما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة في اللّه،تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية،والثارات القبلية،والأطماع الشخصية والرايات العنصرية،ويتجمع الصف تحت لواء اللّه الكبير المتعال..«وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ،إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً،فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ،فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً»..

ويذكرهم كذلك نعمته عليهم في إنقاذهم من النار التي كانوا على وشك أن يقعوا فيها،إنقاذهم من النار بهدايتهم إلى الاعتصام بحبل اللّه – الركيزة الأولى – وبالتأليف بين قلوبهم،فأصبحوا بنعمة اللّه إخوانا – الركيزة الثانية –:«وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها».

والنص القرآني يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط:«الْقَلْبِ»..فلا يقول:فألف بينكم.إنما ينفذ إلى المكمن العميق:«فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» فيصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة بيد اللّه وعلى عهده وميثاقه.كذلك يرسم النص صورة لما كانوا فيه.بل مشهدا حيا متحركا تتحرك معه القلوب:«وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»..وبينما حركة السقوط في حفرة النار متوقعة،إذا بالقلوب ترى يد اللّه،وهي تدرك وتنقذ! وحبل اللّه وهو يمتد ويعصم.وصورة النجاة والخلاص بعد الخطر والترقب! وهو مشهد متحرك حي تتبعه القلوب واجفة خافقة،وتكاد العيون تتملاه من وراء الأجيال! وقد ذكر محمد بن إسحاق في السيرة وغيره أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج.وذلك أن رجلا من اليهود

مر بملأ من الأوس والخزرج،فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة،فبعث رجلا معه،وأمره أن يجلس بينهم،ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم «بعاث»!و تلك الحروب.ففعل.فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم،وغضب بعضهم على بعض،وتثاوروا،ونادوا بشعارهم.وطلبوا أسلحتهم.

وتوعدوا إلى «الحرّة»..فبلغ ذلك النبي – ﷺ – فأتاهم،فجعل يسكنهم،ويقول:«أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم» وتلا عليهم هذه الآية،فندموا على ما كان منهم،واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضي اللّه عنهم.

وكذلك بين اللّه لهم فاهتدوا،وحق فيهم قول اللّه سبحانه في التعقيب في الآية:« كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

فهذه صورة من جهد يهود لتقطيع حبل اللّه بين المتحابين فيه،القائمين على منهجه،لقيادة البشرية في طريقه..هذه صورة من ذلك الكيد الذي تكيده يهود دائما للجماعة المسلمة،كلما تجمعت على منهج اللّه واعتصمت بحبله.وهذه ثمرة من ثمار طاعة أهل الكتاب.كادت ترد المسلمين الأولين كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض.وتقطع بينهم حبل اللّه المتين،الذي يتآخون فيه مجتمعين.وهذه صلة هذه الآية بالآيات قبلها في هذا السياق.

على أن مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة.فهي تشي – مع ما قبلها في السياق وما بعدها – بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصف المسلم في المدينة،وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل.والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب،ومن الاستماع إلى كيدهم ودسهم،ومن التفرق كما تفرقوا..هذه التحذيرات تشي بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة،ومن بذرهم لبذور الشقاق والشك والبلبلة باستمرار..وهو دأب يهود في كل زمان.وهو عملها اليوم وغدا في الصف المسلم،في كل مكان![٨١]

---

[٨١] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١ / ٤٤٢)

وقال تعالى: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (٦٣) سورة الأنفال

ولقد وقعت المعجزة التي لا يقدر عليها إلا اللّه والتي لا تصنعها إلا هذه العقيدة فاستحالت هذه القلوب النافرة،وهذه الطباع الشموس،إلى هذه الكتلة المتراصة المتآخية الذلول بعضها لبعض،المحب بعضها لبعض،المتآلف بعضها مع بعض،بهذا المستوي الذي لم يعرفه التاريخ والذي تتمثل فيه حياة الجنة وسمتها البارزة - أو يمهد لحياة الجنة وسمتها البارزة -:«وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ».

إن هذه العقيدة عجيبة فعلا.إنها حين تخالط القلوب،تستحيل إلى مزاج من الحب والألفة ومودات القلوب،التي تلين جاسيها،وترقق حواشيها،وتندي جفافها،وتربط بينها برباط وثيق عميق رفيق.فإذا نظرة العين،ولمسة اليد،ونطق الجارحة،وخفقة القلب،ترانيم من التعارف والتعاطف،والولاء والتناصر،والسماحة والهوادة،لا يعرف سرها إلا من ألف بين هذه القلوب ولا تعرف مذاقها إلا هذه القلوب! وهذه العقيدة تهتف للبشرية بنداء الحب في اللّه وتوقع على أوتارها ألحان الخلوص له والالتقاء عليه ،فإذا استجابت وقعت تلك المعجزة التي لا يدري سرها إلا اللّه،ولا يقدر عليها إلا اللّه.

وعَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ،حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنْمٍ،أَنَّ أَبَا مَالِكٍ الأَشْعَرِيَّ جَمَعَ قَوْمَهُ فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ الأَشْعَرِيِّينَ اجْتَمِعُوا وَاجْمَعُوا نِسَاءَكُمْ،وَأَبْنَاءَكُمْ أُعَلِّمْكُمْ صَلاَةَ النَّبِيِّ ﷺالَّتِي صَلَّى لَنَا بِالْمَدِينَةِ فَاجْتَمَعُوا،وَجَمَعُوا نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ،فَتَوَضَّأَ وَأَرَاهُمْ كَيْفَ يَتَوَضَّأُ،فَأَحْصَى الْوُضُوءَ إِلَى أَمَاكِنِهِ حَتَّى لَمَّا أَنْ فَاءَ الْفَيْءُ،وَانْكَسَرَ الظِّلُّ قَامَ،فَأَذَّنَ فَصَفَّ الرِّجَالَ فِي أَدْنَى الصَّفِّ،وَصَفَّ الْوِلْدَانَ خَلْفَهُمْ،وَصَفَّ النِّسَاءَ خَلْفَ الْوِلْدَانِ،ثُمَّ أَقَامَ الصَّلاَةَ،فَتَقَدَّمَ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَكَبَّرَ،فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَسُورَةٍ يُسِرُّهُمَا،ثُمَّ كَبَّرَ فَرَكَعَ فَقَالَ:سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ثَلاَثَ مِرَارٍ،ثُمَّ قَالَ:سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ،وَاسْتَوَى قَائِمًا،ثُمَّ كَبَّرَ،وَخَرَّ سَاجِدًا،ثُمَّ كَبَّرَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ،ثُمَّ كَبَّرَ فَسَجَدَ،ثُمَّ كَبَّرَ فَانْتَهَضَ قَائِمًا،فَكَانَ تَكْبِيرُهُ فِي أَوَّلِ رَكْعَةٍ سِتَّ تَكْبِيرَاتٍ،وَكَبَّرَ حِينَ قَامَ إِلَى الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ،فَلَمَّا قَضَى صَلاَتَهُ أَقْبَلَ إِلَى

قَوْمِهِ بِوَجْهِهِ،فَقَالَ:احْفَظُوا تَكْبِيرِي،وَتَعَلَّمُوا رُكُوعِي وَسُجُودِي؛فَإِنَّهَا صَلاَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺالَّتِي كَانَ يُصَلِّي لَنَا كَذَي السَّاعَةَ مِنَ النَّهَارِ.

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺلَمَّا قَضَى صَلاَتَهُ أَقْبَلَ إِلَى النَّاسِ بِوَجْهِهِ فَقَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَاعْقِلُوا،وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ،النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللهِ.فَجَثَى رَجُلٌ مِنَ الأَعْرَابِ مِنْ قَاصِيَةِ النَّاسِ،وَأَلْوَى بِيَدِهِ إِلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺفَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللهِ انْعَتْهُمْ لَنَا حَلِّمْهُمْ لَنَا،يَعْنِي صِفْهُمْ لَنَا،شَكِّلْهُمْ لَنَا فَسُرَّ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،لِسُؤَالِ الأَعْرَابِيِّ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:هُمْ نَاسٌ مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ وَنَوَازِعِ الْقَبَائِلِ لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ تَحَابُّوا فِي اللهِ وَتَصَافَوْا،يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيُجْلِسُهُمْ عَلَيْهَا فَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُورًا،وَثِيَابَهُمْ نُورًا،يَفْزَعُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَفْزَعُونَ،وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ الَّذِينَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ.[82]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ عِبَادًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ،يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ لِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ "،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هُمْ ؟،وَمَا أَعْمَالُهُمْ ؟،أَخْبِرْنَا مَنْ هُمْ ؟ قَالَ:" هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ،وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا،فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ،وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ،لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ،وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ "،ثُمَّ قَرَأَ:{ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [يونس:٦٢].[83]

وعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ،أَنّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:"إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ فَأَخَذَ بِيَدِهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُمَا ذُنُوبُهُمَا،كَمَا تَتَحَاتُ الْوَرَقُ مِنَ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ فِي يَوْمِ رِيحٍ عَاصِفٍ،وَإِلا غُفِرَ لَهُمَا،وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُمَا مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ".[84]

---

[82] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٦٠٦)(٢٢٩٠٦) ٢٣٢٩٤- حسن

[83] - شعب الإيمان - (١١ / ٣١٥)(٨٥٨٥) حسن

[84] - المعجم الكبير للطبراني - (٦ / ٧٠)(٦٠٢٧) حسن

وتتوارد أقوال الرسول تترى في هذا الباب وتشهد أعماله بأصالة هذا العنصر في رسالته عليه الصلاة والسلام كما تشهد الأمة التي بناها على الحب أنها لم تكن مجرد كلمات مجنحة،ولا مجرد أعمال مثالية فردية إنما كانت واقعا شامخا قام على هذا الأساس الثابت،بإذن اللّه،الذي لا يقدر على تأليف القلوب هكذا سواه.[85]

١٦- أنها تحمي معتنقيها من التخبط والفوضى والضياع:

فالمنهج واحد،والمبدأ واضح ثابت لا يتغير،فيسلم معتنقها من اتباع الهوى،ويسلم من التخبط في توزيع الولاء والبراء،والمحبة والبغضاء،بل تعطيه معياراً دقيقاً لا يخطىء أبداً،فيسلم من التشتت والتشرد والضياع،فيعرف من يوالي،ويعرف من يعادي،ويعرف ما له وما عليه.

قال تعالى:{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (١٠١) سورة آل عمران

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ،وَيَتَوَكَّلْ عَلَيهِ فَإنَّ ذَلِكَ يُبْعِدُهُ عَنِ الغَيِّ وَالضَّلاَلِ،وَيُوصِلُهُ إلى الهِدَايَةِ وَالرَّشَادِ،وَطَرِيقِ السَّدَادِ.

أجل.إنه الاعتصام باللّه يعتصم.واللّه سبحانه باق.وهو - سبحانه - الحي القيوم.

ولقد كان رسول اللّه - ﷺ - يتشدد مع أصحابه - رضوان اللّه عليهم - في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج،بقدر ما كان يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة،كشؤون الزرع،وخطط القتال،وأمثالها من المسائل العملية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي،ولا بالنظام الاجتماعي،ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان..وفرق بين هذا وذلك بين.فمنهج الحياة شي ء،والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر.والإسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج اللّه،هو الإسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة..

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ ثَابِتٍ،قَالَ:جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي مَرَرْتُ بِأَخٍ لِي مِنْ قُرَيْظَةَ،فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَاةِ أَلاَ أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ ؟ قَالَ:فَتَغَيَّرَ

[85] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٣ / ١٥٤٨)

وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ عَبْدُ اللهِ:فَقُلْتُ لَهُ:أَلاَ تَرَى مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ:رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا،وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا،وَبِمُحَمَّدٍ ﷺرَسُولاً،قَالَ:فَسُرِّيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،ثُمَّ قَالَ:وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ،وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ،إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ،وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ.[٨٦]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ،قَالَ:جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَعَهُ جَوَامِعُ مِنَ التَّوْرَاةِ فَقَالَ:مَرَرْتُ عَلَى أَخٍ لِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ،فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَاةِ أَفَلَا أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقُلْتُ:أَمَا تَرَى مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ:رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا،وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا،وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا،فَذَهَبَ مَا كَانَ بِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺثُمَّ قَالَ:" وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى أَصْبَحَ فِيكُمْ،ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ،أَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الْأُمَمِ وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ "[٨٧]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:لاَ تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ،فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ،وَقَدْ ضَلُّوا،فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ،أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ،فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ،مَا حَلَّ لَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي.[٨٨]

هؤلاء هم أهل الكتاب.وهذا هو هدى رسول اللّه – ﷺ – في التلقي عنهم في أي أمر يختص بالعقيدة والتصور،أو بالشريعة والمنهج..ولا ضير – وفق روح الإسلام وتوجيهه – من الانتفاع بجهود البشر كلهم في غير هذا من العلوم البحتة،علما وتطبيقا..مع ربطها بالمنهج الإيماني:من ناحية الشعور بها،وكونها من تسخير اللّه للإنسان.ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها في خير البشرية،وتوفير الأمن لها والرخاء.

وشكر اللّه على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية.شكره بالعبادة،وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية..

---

[٨٦] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٥ / ٤٤٩)(١٥٨٦٤) ١٥٩٥٨– حسن لغيره

[٨٧] – معرفة الصحابة لأبي نعيم – (٣ / ١٦٠١) (٤٠٣٠) حسن لغيره

[٨٨] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٥ / ١٢٣)(١٤٦٣١) ١٤٦٨٥– حسن

فأما التلقي عنهم في التصور الإيماني،وفي تفسير الوجود،وغاية الوجود الإنساني.وفي منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها،وفي منهج الأخلاق والسلوك أيضا..أما التلقي في شيء من هذا كله،فهو الذي تغير وجه رسول اللّه – ﷺ – لأيسر شيء منه.وهو الذي حذر اللّه الأمة المسلمة عاقبته.وهي الكفر الصراح..

هذا هو توجيه اللّه – سبحانه – وهذا هو هدى رسوله – ﷺ – فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون،فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا – ﷺ – عن المستشرقين وتلامذة المستشرقين! وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء،ومن الفلاسفة والمفكرين:

الإغريق والرومان والأوروبيين والأمريكان! وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة! وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن،الذي انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين..أي دين..ثم نزعم – واللّه – أننا مسلمون! وهو زعم إثمه أثقل من إثم الكفر الصريح.فنحن بهذا نشهد على الإسلام بالفشل والمسخ.حيث لا يشهد عليه هذه الشهادة الآثمة من لا يزعمون – مثلنا – أنهم مسلمون! إن الإسلام منهج.وهو منهج ذو خصائص متميزة:من ناحية التصور الاعتقادي،ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها.ومن ناحية القواعد الأخلاقية،التي تقوم عليها هذه الارتباطات،ولا تفارقها،سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها.فلا بد أن تكون هناك جماعة من الناس تحمل هذا المنهج لتقود به البشرية.ومما يتناقض مع طبيعة القيادة – كما أسلفنا – أن تتلقى هذه الجماعة التوجيهات من غير منهجها الذاتي..

ولخير البشرية جاء هذا المنهج يوم جاء.ولخير البشرية يدعو الدعاة لتحكيم هذا المنهج اليوم وغدا.بل الأمر اليوم ألزم،والبشرية بمجموعها تعاني من النظم والمناهج التي انتهت إليها ما تعاني.وليس هناك منقذ إلا هذا المنهج الإلهي،الذي يجب أن يحتفظ بكل خصائصه كي يؤدي دوره للبشرية وينقذها مرة أخرى.

لقد أجرزت البشرية انتصارات شتى في جهادها لتسخير القوى الكونية.وحققت في عالم الصناعة والطب ما يشبه الخوارق – بالنسبة للماضي – وما تزال في طريقها إلى انتصارات جديدة..ولكن ما أثر هذا كله في حياتها؟ ما أثره في حياتها النفسية؟ هل وجدت السعادة؟ هل وجدت الطمأنينة؟ هل وجدت السلام؟ كلا! لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف..والأمراض العصبية والنفسية،والشذوذ والجريمة على أوسع نطاق!..

إنها لم تتقدم كذلك في تصور غاية الوجود الإنساني وأهداف الحياة الإنسانية..وحين تقاس غاية الوجود الإنساني وأهداف الحياة الإنسانية في ذهن الرجل المتحضر المعاصر،إلى التصور الإسلامي في هذا الجانب،تبدو هذه الحضارة في غاية القزامة! بل تبدو لعنة تحط من تصور الإنسان لنفسه ومقامه في هذا الوجود،وتسفل به،وتصغر من اهتماماته ومن أشواقه!..والخواء يأكل قلب البشرية المكدود،والحيرة تهد روحها المتعبة..

إنها لا تجد اللّه..لقد أبعدتها عنه ملابسات نكدة.والعلم الذي كان من شأنه،لو سار تحت منهج اللّه،أن يجعل من كل انتصار للبشرية في ميدانه خطوة تقربها من اللّه،هو ذاته الذي تبعد به البشرية أشواطا بسبب انطماس روحها ونكستها..إنها لا تجد النور الذي يكشف لها غاية وجودها الحقيقية فتنطلق إليها مستعينة بهذا العلم الذي منحه اللّه لها ووهبها الاستعداد له.ولا تجد المنهج الذي ينسق بين حركتها وحركة الكون،وفطرتها وفطرة الكون،وقانونها وناموس الكون.ولا تجد النظام الذي ينسق بين طاقاتها وقواها،وآخرتها ودنياها،وأفرادها وجماعاتها،وواجباتها وحقوقها..تنسيقا طبيعيا شاملا مريحا..

وهذه البشرية هي التي يعمل ناس منها على حرمانها من منهج اللّه الهادي.وهم الذين يسمون التطلع إلى هذا المنهج «رجعية!» ويحسبونه مجرد حنين إلى فترة ذاهبة من فترات التاريخ..وهم بجهالتهم هذه أو بسوء نيتهم يحرمون البشرية التطلع إلى المنهج الوحيد الذي يمكن أن يقود خطاها إلى السلام والطمأنينة،كما يقود خطاها إلى النمو والرقي..ونحن الذين نؤمن بهذا المنهج نعرف إلى ماذا ندعو.إننا نرى واقع البشرية النكد،ونشم رائحة المستنقع الآسن الذي تتمرغ فيه.ونرى.نرى هنالك على الأفق الصاعد راية النجاة تلوح للمكدودين في هجير الصحراء المحرق،والمرتقى الوضيء النظيف يلوح للغارقين في المستنقع

ونرى أن قيادة البشرية إن لم ترد إلى هذا المنهج فهي في طريقها إلى الارتكاس الشائن لكل تاريخ الإنسان،ولكل معنى من معاني الإنسان! وأولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج ويتفرد،ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم..كما يظل المنهج نظيفا سليما.إلى أن يأذن اللّه بقيادته للبشرية مرة أخرى.واللّه أرحم بعباده أن يدعهم لأعداء البشر،الداعين إلى الجاهلية من هنا ومن هناك!..وهذا ما أراد اللّه سبحانه أن يلقنه للجماعة المسلمة الأولى في كتابه الكريم وما حرص رسول اللّه – ﷺ – أن يعلمها إياه في تعليمه القويم..[٨٩]

١٧– أنها تمنح معتنقيها الراحة النفسية والفكرية:

فلا قلق في النفس،ولا اضطراب في الفكر؛لأن هذه العقيدة تصل المؤمن بخالقه ـــ عز وجل ـــ فيرضى به رباً مدبراً،وحاكماً مشرعاً،فيطمئن قلبه بقدره،وينشرح صدره لحكمه،ويستنير فكره بمعرفته.

فال تعالى:{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) }[الفتح:٤ – ٦]

لقد كَانَ مِنْ شُرُوطِ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ شَرْطَانِ تَرَكَا أَثَراً فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ:

١– أَنْ لاَ يَدْخُلَ الْمُسْلِمُونَ مَكَّةَ عَامَهُمْ ذَاكَ،وَأَنْ يَأْتُوا مُعْتَرِينَ فِي العَامِ،الذي يَلِيه.

٢– أنْ يَرُدَّ الْمُسْلِمُونَ مَنْ جَاءَهُمْ مِنْ قُرَيشٍ مُسْلِماً إِلى قَوْمِهِم،وَأَنْ لاَ تَرُدَّ قُرَيشٌ مَنْ جَاءَها مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُرْتَداً عَنِ الإِسْلامِ.

وَظَنَّ بَعْضُ الْمُسْلِمين أَنَّ فِي هذينِ الشَّرْطَينِ غبْناً للمُسْلِمينَ،حَتّى إن رَسُولَ اللهِ لَمَّا أَمرَ الْمُسْلِمِينَ بِنَحْرِ الهَدْيِ،وَبِحَلْقِ شُعُورِهِمْ،لَمْ يَمْتَثِلوا لأَمْرِهِ فِي بَادِئِ الأَمرِ،فَقَدْ ثَارَتْ في

[٨٩] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١ / ٤٣٩)

نُفُوسِهِم الحَمِيَّةُ للإِسْلامِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى المُؤْمنِينَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهم،وَلِيَزْدَادُوا يَقينا في دِينِهِمْ بطَاعَةِ اللهِ،وَطَاعَةِ رَسُولِه،وَاللهُ تَعَالى هُوَ الذي يُدَبِّرُ أمرَ الكَوْنِ،فَيَجْعَلُ جَمَاعَةً مِنْ جُنْدِه يُقَاتِلُون لإِعْلاَءِ كَلِمَةِ الحَقِّ،وَيَجْعَلُ غَيْرَهم يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ الشَّيْطَانِ،وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَرْسَلَ عَلَيْهِم جُنْداً مِنَ السَّماءِ يَقْضُونَ عَلَيهم،لكنَّهُ سُبْحَانَه وَتَعَالى شَرَعَ الجِهَادَ والقِتَالَ لما في ذلكَ مِنَ المَصْلَحَةِ التي لاَ يَعْلَمُها إلاَّ هُوَ،وَاللهُ عَليمٌ بالأُمُورِ،حَكِيمٌ في شَرْعِه وَتَدْبِيرِه. وَإنما قَدَّرَ اللهُ تَعَالى ذَلكَ لِيَعْرِفَ المُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ نِعْمَةَ اللهِ،وَيَشْكُرُوهَا فَيَدْخُلُوا الجَنَّةَ لِيَبْقَوْا فيها خَالدِينَ أَبداً،وَلِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ بأَعْمَالِهِم الصَّالحة،وفي ذلكَ ظَفَرٌ لَهُم بما يَرْجُونَ،وَمَا يَسْعَوْنَ إليه،وَهذا الظَّفَرُ بالبْغيةِ،وَدُخُولُ الجَنَّةِ،هُوَ الفَوزُ العَظيمُ.

وَلِيُعَذِّبَ اللهُ المُنَافقِينَ وَالمُنَافقَاتِ،وَالمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمِ وَالمُشْرِكَاتِ،في الدُّنيا بالقَهْرِ والغَلَبةِ،وَبتَسْلِيطِ النَّبيِّ وَالمُسْلمينَ عَلَيهِمْ،وفي الآخرَةِ بالعَذَابِ الأَليمِ في نَارِ جَهَنَّمَ،وَقَدْ كَانَ هؤلاءِ المُنَافقُونَ وَالمُشْرِكُونَ يَظُنُّونَ أَنَّ اللهَ لَنْ يَنْصُرَ الرَّسُولَ وَالمُؤْمِنِينَ عَلَى الكَافِرينَ،وَكَانُوا يَتَرَبَّصُونَ بهم الدَّوائِرِ وَقَدْ دَعَا اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى هؤُلاءِ بأَنْ تَدُورَ عَلَيهِمْ أَحْدَاثُ الزَّمَنِ بالسَّوْءِ،وأَنْ تَنْزِلَ بهمِ النَّكَبَاتُ وَالمَصَائِبُ،ثُمَّ لَعَنَهم اللهُ وَغَضِبَ عَلَيهِمْ،وَأَنْذَرَهُم بأَنَّهُ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أليماً في نَارِ جَهَنَّمَ،وَسَاءَتْ جَهَنَّمُ مَصِيراً يَصِيرُ إليهِ المُنَافقُونَ وَالمُشْرِكُونَ[٩٠].

والسكينة لفظ معبر مصور ذو ظلال والسكينة حين يترلها اللّه في قلب،تكون طمأنينة وراحة،ويقينا وثقة،ووقارا وثباتا،واستسلاما ورضى.

ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى،وتفور بانفعالات متنوعة.كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول اللّه – ﷺ – بدخول المسجد الحرام ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول – ﷺ – للرجوع عن البيت في هذا العام،بعد الإحرام،وبعد إشعار الهدي وتقليده.كان هذا أمرا شاقا على نفوسهم ما في ذلك ريب.

[٩٠] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ٤٤٦٦)

قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺفَقُلْتُ:أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ ؟ قَالَ:بَلَى قُلْتُ:أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ ؟ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ قَالَ:بَلَى،قَالَ:قُلْتُ:فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا ؟ قَالَ:إِنِّي رَسُولُ اللهِ،وَلَسْتُ أَعْصِيهِ،وَهُوَ نَاصِرِي.قُلْتُ:أَوَلَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ:بَلَى قَالَ:أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ قُلْتُ:لاَ.قَالَ:فَإِنَّكَ آتِيهِ،وَمُتَطَوِّفٌ بِهِ،قَالَ:فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَقُلْتُ:يَا أَبَا بَكْرٍ،أَلَيْسَ هَذَا نَبِيُّ اللهِ حَقًّا ؟ قَالَ:بَلَى.قُلْتُ:أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ قَالَ:بَلَى.قُلْتُ:فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا ؟ قَالَ:أَيُّهَا الرَّجُلُ،إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ،وَلَنْ يَعْصِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،وَهُوَ نَاصِرُهُ،فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ،وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ:تَطَوَّفْ بِغَرْزِهِ حَتَّى تَمُوتَ،فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَعَلَى الْحَقِّ.قُلْتُ:أَوَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ:بَلَى.قَالَ:أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّهُ يَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ قُلْتُ:لاَ.قَالَ:فَإِنَّكَ آتِيهِ،وَمُتَطَوِّفٌ بِهِ"[91]

فهذه صورة مما كان يجيش في القلوب..

وكان المؤمنون ضيقي الصدور بشروط قريش الأخرى،من رد من يسلم ويأتي محمدا بغير إذن وليه.

ومن حميتهم الجاهلية في رد اسم الرحمن الرحيم.وفي رد صفة رسول اللّه - ﷺ - وقد روي أن عليا - رضي اللّه عنه - أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها،فمحاها رسول اللّه بنفسه وهو يقول:«اللهم إنك تعلم أني رسولك»..

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة،يبدو هذا في بيعتهم الإجماعية ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع.فلم يكن هينا على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه.يبدو هذا في تباطئهم في النحر والحلق،حتى قالها رسول اللّه - ﷺ - ثلاثا.وهم من هم طاعة لأمر رسول اللّه وامتثالا.كالذي حكاه عنهم لقريش عروة ابن مسعود الثقفي.ولم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول اللّه يفعل هذا بنفسه،فهزهم هذه الحركة العملية ما لم يهزهم القول،وثابوا إلى الطاعة كالذي كان في دهشة المأخوذ! وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة،لا ينوون قتالا،ولم يستعدوا

---

[91] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٦ / ٤٢٨) وصحيح البخارى- المكنز - (٢٧٣١ و٢٧٣٢)

له نفسيا ولا عمليا.ثم فوجئوا بموقف قريش،وبما شاع من قتلها لعثمان،وبإرسال النفر الذين رموا في عسكر المسلمين بالنبل والحجارة.

فلما عزم رسول اللّه – ﷺ – على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم.ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له.وهو بعض ما كان يجيش في قلوبهم من انفعالات وتأثرات.وهم ألف وأربعمائة وقريش في دارها،ومن خلفهم الأعراب والمشركون.

وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى:«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ»..

ويذوق طعم اللفظ وطعم العبارة،ويتصور الموقف يومئذ ويعيش فيه مع هذه النصوص،ويحس برد السكينة وسلامها في تلك القلوب.

ولما كان اللّه يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ،أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان،والحمية الإيمانية لا لأنفسهم،ولا لجاهلية فيهم.فقد تفضل عليهم بهذه السكينة:«لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ» والطمأنينة درجة بعد الحمية والحماسة،فيها الثقة التي لا تقلق،وفيها الرضى المطمئن باليقين.

ومن ثم يلوّح بأن النصر والغلب لم يكن عسيرا ولا بعيدا،بل كان هينا يسيرا على اللّه لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون،فإن للّه جنودا لا تحصى ولا تغلب،تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء:«وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً»..فهي حكمته وهو علمه،تسير الأمور وفقهما كما يريد.

وعن العلم والحكمة:«أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ».ليحقق لهم ما قدره من فوز ونعيم:«لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ،خالِدِينَ فِيها،وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ،وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً»..

وإذا كان هذا في حساب اللّه فوزا عظيما،فهو فوز عظيم! فوز عظيم في حقيقته،وفوز عظيم في نفوس من ينالونه من عند اللّه مقدرا بتقديره،موزونا بميزانه..ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب اللّه لهم وكانوا قد تطلعوا بعد ما سمعوا افتتاح السورة،وعلموا منه ما

أفاض اللّه على رسوله.تطلعوا إلى نصيبهم هم،وسألوا عنه،فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضى والفرح واليقين.

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدر في هذا الحادث وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات،بما يصدر عنهم من عمل وتصرف:« وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ،الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ،عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ.وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ،وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً.وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً»..

وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في صفة ظن السوء باللّه وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين.وفي أنهم جميعا «عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ» فهم محصورون فيها،وهي تدور عليهم وتقع بهم.وفي غضب اللّه عليهم ولعنته لهم،وفيما أعده لهم من سوء المصير..ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءا،بل إنها أحط ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات،وإن اختلف هذا الأذى وذاك في مظهره ونوعه.

وقد جعل اللّه صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء باللّه.فالقلب المؤمن حسن الظن بربه،يتوقع منه الخير دائما.يتوقع منه الخير في السراء والضراء.ويؤمن بأن اللّه يريد به الخير في الحالين.

وسر ذلك أن قلبه موصول باللّه.وفيض الخير من اللّه لا ينقطع أبدا.فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة،وأحسها إحساس مباشرة وتذوق.فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة باللّه.ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها،فيسوء ظنهم باللّه وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور،ويبنون عليها أحكامهم.ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين،كلما كانت ظواهر الأمور توحي بهذا على غير ثقة بقدر اللّه وقدرته،وتدبيره الخفي اللطيف.

وقد جمع اللّه في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع وبين حالهم عنده،وما أعده لهم في النهاية.[٩٢]

١٨- سلامة القصد والعمل:

بحيث يَسْلَمُ معتنقها من الانحراف في عبادة الله ـــ عز وجل ـــ فلا يعبد غير الله،ولا يرجو سواه.

قال تعالى:{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }[الفاتحة:٥]

وهنا كذلك مفرق طريق..مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية،وبين العبودية المطلقة للعبيد! وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل.التحرر من عبودية الأوهام.والتحرر من عبودية النظم،والتحرر من عبودية الأوضاع.وإذا كان الله وحده هو الذي يُعبد،والله وحده هو الذي يُستعان،فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص،كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات..وهنا يعرض موقف المسلم من القوى الإنسانية،ومن القوى الطبيعية..

فأما القوى الإنسانية - بالقياس إلى المسلم - فهي نوعان:قوة مهتدية،تؤمن بالله،وتتبع منهج الله...وهذه يجب أن يؤازرها،ويتعاون معها على الخير والحق والصلاح..وقوة ضالة لا تتصل بالله ولا تتبع منهجه.وهذه يجب أن يحاربها ويكافحها ويغير عليها.

ولا يهولن المسلم أن تكون هذه القوة الضالة ضخمة أو عاتية.فهي بضلالها عن مصدرها الأول - قوة الله - تفقد قوتها الحقيقة.تفقد الغذاء الدائم الذي يحفظ لها طاقتها.وذلك كما ينفصل جرم ضخم من نجم ملتهب،فما يلبث أن ينطفىء ويبرد ويفقد ناره ونوره،مهما كانت كتلته من الضخامة.على حين تبقى لأية ذرة متصلة بمصدرها المشع قوتها وحرارتها ونورها:{ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة:٢٤٩]} غلبتها باتصالها بمصدر القوة الأول،وباستمدادها من النبع الواحد للقوة وللعزة جميعاً.

---

[٩٢] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٣١٨)

وأما القوى الطبيعية فموقف المسلم منها هو موقف التعرف والصداقة،لا موقف التخوف والعداء.ذلك أن قوة الإنسان وقوة الطبيعة صادرتان عن إرادة الله ومشيئته،محكومتان بإرادة الله ومشيئته،متناسقتان متعاونتان في الحركة والاتجاه.

إن عقيدة المسلم توحي إليه أن الله ربه قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقاً مساعداً متعاوناً؛ وأن سبيله إلى كسب هذه الصداقة أن يتأمل فيها.ويتعرف إليها،ويتعاون وإياها،ويتجه معها إلى الله ربه وربها.وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحياناً،فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها و لم يتعرف إليها،و لم يهتد إلى الناموس الذي يسيرها.

ولقد درج الغربيون – ورثة الجاهلية الرومانية – على التعبير عن استخدام قوى الطبيعة بقولهم:« قهر الطبيعة »..ولهذا التعبير دلالته الظاهرة على نظرة الجاهلية المقطوعة الصلة بالله،وبروح الكون المستجيب لله.فأما المسلم الموصول القلب بربه الرحمن الرحيم،الموصول الروح بروح هذا الوجود المسبحة لله رب العالمين..فيؤمن بأن هنالك علاقة أخرى غير علاقة القهر والجفوة.أنه يعتقد أن الله هو مبدع هذه القوى جميعاً.خلقها كلها وفق ناموس واحد،لتتعاون على بلوغ الأهداف المقدرة لها بحسب هذا الناموس.وأنه سخرها للإنسان ابتداء ويسر له كشف أسرارها ومعرفة قوانينها.وأن على الإنسان أن يشكر الله كلما هيأ له أن يظفر بمعونة من إحداها.فالله هو الذي يسخرها له،وليس هو الذي يقهرها:{ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ [الحج:٦٥] }.

وإذن فإن الأوهام لن تملأ حسه تجاه قوى الطبيعة؛ ولن تقوم بينه وبينها المخاوف..إنه يؤمن بالله وحده،ويعبد الله وحده،ويستعين بالله وحده.وهذه القوى من خلق ربه.وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها،فتبذل له معونتها،وتكشف له عن أسرارها.فيعيش معها في كون مأنوس صديق ودود..وما أروع قول الرسول – ﷺ – وهو ينظر إلى جبل أُحد:« هذا جبل يحبنا ونحبه » ففي هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الأول محمد – ﷺ – من ود وألفة وتجاوب،بينه وبين الطبيعة في أضخم وأخشن مجاليها.[٩٣]

١٩– الربوبية المطلقة هي مفرق الطريق :

[٩٣] – في ظلال القرآن – (١ / ٦)

بين وضوح التوحيد الكامل الشامل،والغبش الذي ينشأ من عدم وضوح هـذه الحقيقـة بصورتها القاطعة.وكثيراً ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله بوصفه الموجد الواحـد للكون،والاعتقاد بتعدد الأرباب الذين يتحكمون في الحياة.ولقـد يبـدو هـذا غريبـاً مضحكاً.ولكنه كان وما يزال.ولقد حكى لنا القرآن الكريم عن جماعة مـن المشـركين كانوا يقولون عن أربابهم المتفرقة:{أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَـا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} (٣) سورة الزمر ،كما قـال عـن جماعـة مـن أهـل الكتاب:{اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (٣١) سورة التوبة

وكانت عقائد الجاهليات السائدة في الأرض كلها يوم جـاء الإسـلام،تعج بالأربـاب المختلفة،بوصفها أرباباً صغاراً تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون!

فإطلاق الربوبية في هذه السورة،وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعاً،هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة.

لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد،تقر له بالسيادة المطلقة،وتنفض عـن كاهلـها زحمـة الأرباب المتفرقة،وعنت الحيرة كذلك بين شتى الأرباب..ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم إلى رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة.وإلى أن هذه الرعاية لا تنقطـع أبـداً ولا تفتـر ولا تغيب،لا كما كان أرقى تصور فلسفي لأرسطو مثلاً يقول بأن الله أوجد هذا الكون ثم لم يعد يهتم به،لأن الله أرقى من أن يفكر فيما هو دونه! فهو لا يفكر إلا في ذاته! وأرسطو - وهذا تصوره - هو أكبر الفلاسفة،وعقله هو أكبر العقول!

لقد جاء الإسلام وفي العالم ركام من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار..يختلط فيها الحـق بالباطل،والصـحيح بالزائف،والـدين بالخرافة،والفلسـفة بالأسطورة..والضمير الإنساني تحت هذا الركام الهائل يتخبط في ظلمـات وظنـون،ولا يستقر منها على يقين.

وكان التيه الذي لا قرار فيه ولا يقين ولا نور،هو ذلك الذي يحيط بتصور البشرية لإلهها،وصفاته وعلاقته بخلائقه،ونوع الصلة بين الله والإنسان على وجه الخصوص.

ولم يكن مستطاعاً أن يستقر الضمير البشري على قرار في أمر هذا الكون،وفي أمر نفسه وفي منهج حياته،قبل أن يستقر على قرار في أمر عقيدته وتصوره لإلهه وصفاته،وقبل أن ينتهي إلى يقين واضح مستقيم في وسط هذا العماء وهذا التيه وهذا الركام الثقيل.

ولا يدرك الإنسان ضرورة هذا الاستقرار حتى يطلع على ضخامة هذا الركام،وحتى يرود هذا التيه من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار التي جاء الإسلام فوجدها ترين على الضمير البشري،والتي أشرنا إلى طرف منها فيما تقدم صغير.

ومن ثم كانت عناية الإسلام الأولى موجهه إلى تحرير أمر العقيدة،وتحديد التصور الذي يستقر عليه الضمير في أمر الله وصفاته،وعلاقته بالخلائق،وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين.

ومن ثم كان التوحيد الكامل الخالص المجرد الشامل،الذي لا تشوبه شائبة من قريب ولا من بعيد..هو قاعدة التصور التي جاء بها الإسلام،وظل يجلوها في الضمير،ويتتبع فيه كل هاجسة وكل شائبة حول حقيقة التوحيد،حتى يخلصها من كل غبش.ويدعها مكينة راكزة لا يتطرق إليها وهم في صورة من الصور..

كذلك قال الإسلام كلمة الفصل بمثل هذا الوضوح في صفات الله وبخاصة ما يتعلق منها بالربوبية المطلقة.فقد كان معظم الركام في ذلك التيه الذي تخبط فيه الفلسفات والعقائد كما تخبط فيه الأوهام والأساطير.[٩٤]

فتوحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في عالم العقيدة؛وبين تحرير البشرية من عقال الوهم والخرافة والسلطان الزائف ،أو استعبادها للأرباب المتفرقة ونزواتهم ،وللوسطاء عند الله من خلقه ! وللملوك والرؤساء والحكام الذين يغتصبون أخص خصائص الألوهية – وهي الربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية – فيعبدون الناس لربوبيتهم الزائفة المغتصبة.

---

[٩٤] – في ظلال القرآن – (١ / ٢)

وما من نظام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو أخلاقي أو دولي ،يمكن أن يقوم على أسس واضحة فاصلة ثابتة ،لا تخضع للهوى والتأويلات المغرضة ،إلا حين تستقر عقيدة التوحيد هكذا بسيطة دقيقة.

وما يمكن أن يتحرر البشر من الذل والخوف والقلق؛ويستمتعوا بالكرامة الحقيقة التي أكرمهم بها الله ،إلا حين يتفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية ،ويتجرد منها العبيد في كل صورة من الصور.

وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام؛ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت ،على ألوهية الله – سبحانه – للكون؛وتصريف أموره في عالم الأسباب والنواميس الكونية:إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس ،الذي يحكمهم بشرعه ،ويصرفهم بأمره ،ويدينهم بطاعته ؟

لقد كان الطواغيت المجرمون في الأرض يغتصبون هذا الحق ويزاولونه في حياة الناس ،ويذلونهم بهذا الاغتصاب لسلطان الله ،ويجعلونهم عبيدا لهم من دون الله.وكانت الرسالات والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائما لانتزاع هذا السلطان المغتصب من أيدي الطواغيت ورده إلى صاحبه الشرعي..الله سبحانه..

والله – سبحانه – غني عن العالمين.لا ينقص في ملكه شيئا عصيان العصاة وطغيان الطغاة.ولايزيد في ملكه شيئا طاعة الطائعين وعبادة العابدين..ولكن البشر – هم أنفسهم – الذين يذلون ويصغرون ويسفلون حين يدينون لغير الله من عباده؛وهم الذين يعزون ويكرمون ويستعلون حين يدينون لله وحده ،ويتحررون من العبودية للعبيد..ولما كان اللّه – سبحانه – يريد لعباده العزة والكرامة والاستعلاء فقد أرسل رسله ليردوا الناس إلى عبادة اللّه وحده.وليخرجوهم من عبادة العبيد..لخيرهم هم أنفسهم..واللّه غني عن العالمين.

إن الحياة البشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذي يريده اللّه للإنسان إلا بأن يعزم البشر أن يدينوا للّه وحده،وأن يخلعوا من رقابهم نير الدينونة لغير اللّه.ذلك النير المذل لكرامة الإنسان في أية صورة قد كان!

والدينونة للّه وحده تتمثل في ربوبيته للناس وحده.والربوبية تعني القوامة على البشر،وتصريف حياتهم بشرع وأمر من عند اللّه،لا من عند أحد سواه.[٩٥]

٢٠- تؤثر في السلوك والأخلاق والمعاملة:

فهي تأمر أهلها بكل خير،وتنهاهم عن كل شر،فتأمرهم بالعدل والاعتدال،وتنهاهم عن الظلم والانحراف ،قال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }[النحل:٩٠]

إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَأْمُرُ فِي كِتَابِهِ الذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِالعَدْلِ وَالإِنْصَافِ،وَيَنْدُبُ إِلَى الإِحْسَانِ وَالفَضْلِ،وَيَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحْمِ وَإِعْطَاءِ ذَوِي القُرْبَى مَا هُمْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ،وَيَنْهَى عَنِ ارْتِكَابِ المُحَرَّمَاتِ وَالمُنْكَرَاتِ وَالفَوَاحِشِ،مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ،مِمَّا يَأْتِيهِ العَبْدُ سِرّاً وَخِفْيَةً وَاللهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالخَيْرِ،وَيَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَالشَّرِّ،لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ مَا أَوْدَعَهُ اللهُ فِي الفِطْرَةِ مِنْ وَحْيٍ قَوِيمٍ أَصِيلٍ،فَتَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ.

لقد جاء هذا الكتاب لينشىء أمة وينظم مجتمعا،ثم لينشىء عالما ويقيم نظاما.جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس إنما العقيدة وحدها هي الآصرة والرابطة والقومية والعصبية.

ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات،واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب،والثقة بالمعاملات والوعود والعهود:

جاء «بِالْعَدْلِ» الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل،لا تميل مع الهوى،ولا تتأثر بالود والبغض،ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب،والغنى والفقر،والقوة والضعف.إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع،وتزن بميزان واحد للجميع.

وإلى جوار العدل..«الْإِحْسانِ»..يلطف من حدة العدل الصارم الجازم،ويدع الباب مفتوحا لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثارا لود القلوب،وشفاء لغل الصدور.ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جرحا أو يكسب فضلا.

[٩٥] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ١٨٥١)

والإحسان أوسع مدلولا،فكل عمل طيب إحسان،والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل،فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه،وعلاقاته بأسرته،وعلاقاته بالجماعة،وعلاقاته بالبشرية جميعا.

ومن الإحسان «إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى"إنما يبرز الأمر به تعظيما لشأنه،وتوكيدا عليه.وما يبني هذا على عصبية الأسرة،إنما يبنيه على مبدأ التكافل الذي يتدرج به الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العام.وفق نظريته التنظيمية لهذا التكافل.

« وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ»..والفحشاء كل أمر يفحش أي يتجاوز الحد.ومنه ما خصص به غالبا وهو فاحشة الاعتداء على العرض،لأنه فعل فاحش فيه اعتداء وفيه تجاوز للحد حتى ليدل على الفحشاء ويختص بها.والمنكر كل فعل تنكره الفطرة ومن ثم تنكره الشريعة فهي شريعة الفطرة.وقد تنحرف الفطرة أحيانا فتبقى الشريعة ثابتة تشير إلى أصل الفطرة قبل انحرافها.والبغي الظلم وتجاوز الحق والعدل.

وما من مجتمع يمكن أن يقوم على الفحشاء والمنكر والبغي.ما من مجتمع تشيع فيه الفاحشة بكل مدلولاتها،والمنكر بكل مغرراته،والبغي بكل معقباته،ثم يقوم..

والفطرة البشرية تنتفض بعد فترة معينة ضد هذه العوامل الهدامة،مهما تبلغ قوتها،ومهما يستخدم الطغاة من الوسائل لحمايتها.وتاريخ البشرية كله انتفاضات وانتفاضات ضد الفحشاء والمنكر والبغي.فلا يهم أن تقوم عهود وأن تقوم دول عليها حينا من الدهر،فالانتقاض عليها دليل على أنها عناصر غريبة على جسم الحياة،فهي تنتفض لطردها،كما ينتفض الحي ضد أي جسم غريب يدخل إليه.وأمر اللّه بالعدل والإحسان ونهيه عن الفحشاء والمنكر والبغي يوافق الفطرة السليمة الصحيحة،ويقويها ويدفعها للمقاومة باسم اللّه.لذلك يجيء التعقيب:«يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» فهي عظة للتذكر تذكر وحي الفطرة الأصيل القويم.[96]

٢١- تدفع معتنقيها إلى الحزم والجد في الأمور.

[96] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢١٩٠)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ:اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ:شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ،وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ،وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ،وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ،وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ "المستدرك للحاكم"[97]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي أَوْ قَالَ بِمَنْكِبَيَّ،فقَالَ:كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ،أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ،قَالَ:فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ،يَقُولُ:إِذَا أَصْبَحْتَ،فَلاَ تَنْتَظِرُ الْمَسَاءَ،وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرُ الصَّبَاحَ،وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ،وَمَنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ"صحيح ابن حبان [98]

٢٢- تبعث في نفس المؤمن تعظيم الكتاب والسنة:

لأنه يعلم أن الكتاب والسنَّة حق وصواب،وهدى ورحمة؛فينبعث بذلك إلى تعظيمهما،والأخذ بهما ،قال تعالى:{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا }[الأحزاب:٣٦]

فلَيْسَ لِمُؤمِنٍ وَلا لِمُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ قَضَاءً،أَنْ يَتَخَيَّروا مِنْ أَمْرِهِمْ غيرَ مَا قَضَاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ لَهُمْ،وَلاَ أَنْ يُخَالِفُوا أَمْرَ اللهِ وَأَمرَ رَسُولِهِ وَقَضَاءَهُما.وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَمَرَا بِهِ،وَنَهَيَا عَنْهُ،فَقَدْ جَارَ عَنِ السَّبِيلِ القَوِيمِ،وَسَلَكَ غَيْرَ طَرِيقِ الهُدَى وَالرَّشَادِ.[99]

وليس لهم أن يختاروا الدور الذي يقومون به،لأنهم لا يعرفون الرواية كاملة وليس لهم أن يختاروا الحركة التي يحبونها لأن ما يحبونه قد لا يستقيم مع الدور الذي خصص لهم! وهم ليسوا أصحاب الرواية ولا المسرح وإن هم إلا أجراء،لهم أجرهم على العمل،وليس لهم ولا عليهم في النتيجة! عندئذ أسلموا أنفسهم حقيقة للّه.أسلموها بكل ما فيها فلم يعد لهم منها شيء.وعندئذ استقامت نفوسهم مع فطرة الكون كله واستقامت حركاتهم مع دورته

[97] - المستدرك للحاكم (٧٨٤٦) صحيح

[98] - صحيح ابن حبان - (٢ / ٤٧٢) (٦٩٨) وصحيح البخارى- المكنز (٦٤١٦)

[99] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٣٤٥٠)

العامة وساروا في فلكهم كما تسير تلك الكواكب والنجوم في أفلاكها،لا تحاول أن تخرج عنها،ولا أن تسرع أو تبطئ في دورتها المتناسقة مع حركة الوجود كله.

وعندئذ رضيت نفوسهم بكل ما يأتي به قدر اللّه،لشعورهم الباطن الواصل بأن قدر اللّـــه هو الذي يصرف كل شي ء،وكل أحد،وكل حادث،وكل حالة.واستقبلوا قدر اللّه فيهم بالمعرفة المدركة المريحة الواثقة المطمئنة.

وشيئا فشيئا لم يعودوا يحسون بالمفاجأة لقدر اللّه حين يصيبهم،ولا بالجزع الذي يعـــالج بالتجمل أو بالألم الذي يعالج بالصبر.إنما عادوا يستقبلون قدر اللّه استقبال العارف المنتظر المرتقب لأمر مألوف في حسه،معروف في ضميره،ولا يثير مفاجأة ولا رجفة ولا غرابـــة! ومن ثم لم يعودوا يستعجلون دورة الفلك ليقضوا أمرا هم يريدون قضـــاءه،ولم يعـــودوا يستبطئون الأحداث لأن لهم أربا يستعجلون تحقيقه،ولو كان هذا الأرب هو نصر دعوتهم وتمكينها! إنما ساروا في طريقهم مع قدر اللّه،ينتهي بهم إلى حيث ينتـــهي،وهم راضـــون مستروحون،يبذلون ما يملكون من أرواح وجهود وأموال في غير عجلة ولا ضيق،وفي غير من ولا غرور،وفي غير حسرة ولا أسف.وهم على يقين أنهم يفعلون ما قدر اللّه لهـــم أن يفعلوه وأن ما يريده اللّه هو الذي يكون،وأن كل أمر مرهون بوقته وأجله المرسوم.

إنه الاستسلام المطلق ليد اللّه تقود خطاهم،وتصرف حركاتهم وهم مطمئنون لليـــد الـــتي تقودهم،شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين،سائرون معها في بساطة ويسر ولين.

وهم – مع هذا – يعملون ما يقدرون عليه،ويبذلون ما يملكون كله،ولا يضيعون وقتا ولا جهدا،ولا يتركون حيلة ولا وسيلة.ثم لا يتكلفون ما لا يطيقون،ولا يحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص،ومن ضعف وقوة ولا يدعون ما لا يجدونه في أنفسهم من مشاعر وطاقات،ولا يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا،ولا أن يقولوا غير ما يفعلون.

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر اللّه،والعمل الجاهد بكل ما في الطاقـــة،والوقوف المطمئن عند ما يستطيعون..هذا التوازن هو السمة التي طبعت حياة تلك المجموعـــة الأولى وميزتها وهي التي أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التي تنوء بها الجبال! واســـتقرار ذلك المقوم الأول في أعماق الضمائر هو الذي كفل لتلك الجماعة الأولى تحقيـــق تلـــك

الخوارق التي حققتها في حياتها الخاصة،وفي حياة المجتمع الإنساني إذ ذاك.وهو الذي جعل خطواتها وحركاتها تتناسق مع دورة الأفلاك،وخطوات الزمان،ولا تحتك بها أو تصطدم،فتتعوق أو تبطئ نتيجة الاحتكاك والاصطدام.

وهو الذي بارك تلك الجهود،فإذا هي تثمر ذلك الثمر الحلو الكثير العظيم في فترة قصيرة من الزمان.

ولقد كان ذلك التحول في نفوسهم بحيث تستقيم حركتها مع حركة الوجود،وفق قدر اللّه المصرف لهذا الوجود..كان هذا التحول في تلك النفوس هو المعجزة الكبرى التي لا يقدر عليها بشر إنما تتم بإرادة اللّه المباشرة التي أنشأت الأرض والسماوات،والكواكب والأفلاك ونسقت بين خطاها ودوراتها ذلك التنسيق الإلهي الخاص.

وإلى هذه الحقيقة تشير هذه الآيات الكثيرة في القرآن..حيث يقول اللّه تبارك وتعالى:«إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ»..أو يقول:«لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ»..أو يقول:«إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ»..فذلك هو الهدى بحقيقته الكبيرة ومعناه الواسع.هدى الإنسان إلى مكانه في هيكل هذا الوجود وتنسيق خطاه مع حركة هذا الوجود.

ولن يؤتي الجهد كامل ثماره إلا حين يستقيم القلب على هدى اللّه بمعناه وتستقيم حركة الفرد مع دورة الوجود ويطمئن الضمير إلى قدر اللّه الشامل الذي لا يكون في الوجود أمر إلا وفق مقتضاه.

ومن هذا البيان ينجلي أن هذا النص القرآني:«وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ»..أشمل وأوسع وأبعد مدى من أي حادث خاص يكون قد نزل فيه.وأنه يقرر كلية أساسية،أو الكلية الأساسية،في منهج الإسلام![١٠٠]

٢٣- تَكْفُل لمعتنقيها الحياة الكريمة:

ففي ظل العقيدة الإسلامية يتحقق الأمن والحياة الكريمة؛ذلك أنها تقوم على الإيمان بالله،ووجوب إفراده بالعبادة دون من سواه،وذلك ــ بلا شك ــ سبب الأمن والخير

[١٠٠] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٥ / ٢٨٦٦)

والسعادة في الدارين؛فالأمن قرين الإيمان،وإذا فقد الإيمان فقد الأمن،قال ــ تعالى ــ:(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)[الأنعام:٨٢].

فأهل التقوى والإيمان لهم الأمن التام،والاهتداء التام في العاجل والآجل،وأهل الشرك والمعصية هم أهل الخوف وأولى الناس به،فهم مهددون بالعقوبات والنقمات في سائر الأوقات.

بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ مَنْ هُوَ الحَقِيقُ بالأَمْنِ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ فَقَالَ:الذينَ أَخْلَصُوا العبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً،وَلَمْ يَخْلِطُوا إِيمَانَهُمْ (يَلْبِسُوا) بِظُلْمٍ،وَلاَ كُفْرٍ،وَلاَ شِرْكٍ بِاللهِ،فَهَؤُلاءِ هُمُ الآمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الخُلُودِ فِي العَذَابِ،وَأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.[101]

وإذا كان الشرك باللّه مصدر المخاوف والأوهام،فلا غرابة في أن المشركين يعيشون دائما في قلق واضطراب وخوف من مغيبات القدر والمستقبل.أما المؤمنون الموحدون فلهم الأمن المطلق بشرط وجود الوصفين:وهما الإيمان،وهو كمال القوة النظرية،وعدم الإيمان بالظلم،وهو كمال القوة العملية.والمراد من الظلم هنا:هو الشرك لأنه الظلم الأكبر،ولقوله تعالى حكاية عن لقمان،إذ قال لابنه وهو يعظه:يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ،إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ والمراد هنا:الذين آمنوا باللّه،و لم يثبتوا للّه شريكا في العبادة.[102]

إن الحق سبحانه وتعالى هو الذي سخر لك الكائنات،فعليك أن تذكر اسم الحق لتنفعل لك تلك الكائنات،ومن يغفل عن ذلك فقد لبَّس وخلط إيمانه بظلم.وإذا ما رأيت ثمرة من ثمارك إياك أن تقول كما قال قارون:} أُوتِيتُهُ عَلَىا عِلْمٍ عِندِي { بل اذكر وقل:" ما شاء الله "؛ لأنك إن قلت:} أُوتِيتُهُ عَلَىا عِلْمٍ { فالحق قد قال في شأن قارون:{ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ }[القصص:٨١] أين ذهب علم قارون الذي جاء به؟.

إذن فكل أمر من الأمور يجب أن تنسبه لله،فإن اختل شيء فيك من هذه المسألة فاعلم أنك لبَّست وخلطت إيمانك بظلم،والحق سبحانه وتعالى منا ذلك حتى تكون النعمة

---

[101] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٨٧٢)

[102] - التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ج ٧ ، ص : ٢٧٥

مباركة إقبالاً عليها أو انتفاعاً بها،ولا ينشأ من العمل الذي تعمله مبتدئاً بـــ"بســـم الله"إلا ما يعينك على طاعته،ويعينك على بر،ويعينك على خير،ولا تصرفه إلا في عافية.

وبعد ذلك يؤهلك مجموع هذه الأشياء في كل حركاتك وأعمالك إلى أن تأخذ أمناً آخر أجمع وأتم وأكمل من أمن الدنيا؛ إنّك تأخذ أمن الآخرة بأن تدخل الجنة.

إذن { أُوْلَـــائِكَ لَهُمُ الأَمْنُ } أي الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم،والحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل دائماً بمنهجه؛ لأن إمدادات الله سبحانه وتعالى مستمرة،ورحماته وتجلياتـــه لا تنقطع عن خلقه أبداً؛ لأنه قيوم أي إنه بطلاقة قدرته وشمول قيوميته يقوم سبحانه باقتدار وحكمة على كل أسباب مخلوقاته،فكن دائماً في صحبة القيوم؛ ليتجلى عليك بصـــفات حفظه،وصفات قدرته،وصفات علمه،وصفات حكمته،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺلِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ:" يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ عِنْدكَ مَنْفَعَةً فِي الْإِسْـــلَامِ فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشْفَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ"فَقَالَ:مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْـــدِي مَنْفَعَةً مِنْ أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طُهُورًا تَامًّا فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ،أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ مَا كَتَبَ لِي أَنْ أُصَلِّي "[١٠٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْـــدُ الْمُسْـــلِمُ أَوِ الْمُـــؤْمِنُ فَغَسَـــلَ وَجْهَهُ،خَرَجَتْ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ،وَمَعَ آخرِ قَطْرِ الْمَـــاءِ،أَوْ نَحْوَ هَذَا،فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَتْ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ،أَوْ مَعَ آخِـــرِ قَطْرِ الْمَاءِ،حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ.[١٠٤]

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل بمنهجه اتصالاً وثيقا؛ ليعطينا،لا ليأخذ منـــا؛ لأن الفرق بين عبودية البشر للبشر والعبودية الخالصة لله أن البشر يأخذ خير عبده،ولكن عبوديتنا لله تعطينا خيره من خزائن لا تنفد،نأخذ منه كلما ازددنا له عبوديـــة،إذن الحـــق دائماً يريد أن يصلنا به.

---

[١٠٣] - صحيح البخارى- المكنز - (١١٤٩) وصحيح مسلم- المكنز - (٦٤٧٨) وشـــعب الإيمـــان - (٤ / ٢٤١) (٢٤٦٠)

[١٠٤] - صحيح مسلم- المكنز - (٦٠٠) وصحيح ابن حبان - (٣ / ٣١٥) (١٠٤٠)

{ أُوْلَـائِكَ لَهُمُ الأَمْنُ } الأمن في الدنيا؛ والأمن بمجموع ما كان في الدنيا مع الأمن في الآخرة.
ولقائل أن يقول:هناك أناس لا يسمون باسم الله،ولا يخطر الله على بـالهم،ويتحركون في طاقات الأرض ومادها،وينعمون بها ويسعدون،وقد يسعدون بابتكارات سواهم.

ونقول:نعم هذا صحيح؛ لأن فيه فرقاً بين عطاء الفعل،والبركة في عطاء الفعـل.إذا زرع الكافر فالأرض تعطى له،وإذا قام بأي عمل يأخذ نتيجته،لكن لا يأخذ البركة في العطاء.
وما هي البركة في العطاء؟ البركة في العطاء أن يكون ما أخذته من هذا العطاء لا يعينـك على معصية،بل دائماً يعينك على طاعة.ونحن نرى كثيراً من الناس يصدق علـيهم قولـه سبحانه:{ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَـا } فإيـاك أن تغـالط وتقول:إنهم لا يقولون:{ بسم الله الرَّحْمانِ الرَّحِيـمِ } ومع ذلك فهم قد أخذوا طيبات الحياة الدنيا،إنك حين تنظر إليهم تجد كل مرتقيـات حضـارتهم،وطموحات بحـوثهم واكتشافاتهم تتجه دائماً إلى الشر، لم يأت لهم ابتكار إلا استعملوه في الشر إلى أن يأذن الله فيشغلهم عن أشيائهم بما يصب عليهم من العذاب والنكبات ولهم في الآخرة العقاب على شركهم وكفرهم.
إذن { أُوْلَـائِكَ لَهُمُ الأَمْنُ } أي إنّ هؤلاء الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك لهم الأمـن في جزيئات أعمالهم والأمن المتجمع من جزيئات أعمالهم يعطي لهم الأمن في الجنة.{ وَهُـمْ مُّهْتَدُونَ } والهداية هي الطريق الذي يوصل إلى الغاية.ولا يقال إنك موفق في الحركة إلا إذا أدت بك هذه الحركة إلى غاية مرسـومة في ذهنـك مـن نجـاح بعـد المـذاكرة والاجتهاد.ولا مخلوق ولا مصنوع يحدد غايته،فاترك لله تحديد مهتمك،فسبحانه هو الذي خلقك،وفي عرف البشر،لا توجد صنعة تحدد مهمتها أبداً،بل إن الصانع هو الذي يحدد لها الغاية منها؛ فالغاية توجد أولاً قبل الصنعة،وما دامت الغاية موجودة قبل الصنعة فمن الذي يشقى بالتجارب إذن؟.

في الابتكارات العلمية المعملية المادية التي تنشأ من التفاعل مع المادة نجد أن الذي يشقى بالتجربة أولاً هو العالم،وأنت لا تعلم التجربة إلا بعد ما تظهر نتائجها الطيبة،والمسائل النظرية التي تتعب العالم يأتي التعب منها لأنها ليست مربوطة أولاً بالماديات المقننة وبمعرفة الغاية،ولا بمعرفة الوسيلة لهذه الغاية.فمن المهتدي إذن؟

إن المهتدي هو من يعرف الغاية التي يسعى إليها،والوسيلة التي تؤهله إلى هذه الغاية.وإذا حدث له عطب في ملكات نفسه،يستعين في إصلاح العطب ويلجأ إلى من صنع هذه الملكات،وهو الله سبحانه،كما يرد الإنسان الآلة التي تتعطل لصانعها.ونجد كثيراً من الشعراء يسرحون في خيالهم فيقول الواحد منهم:ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ومن أين للغايات بعد المذاهب؟ونقول له:من خلقك أوضح لك الغاية.[105]

٢٤- تعترف بالعقل وتحدد مجاله:

فالعقيدة الإسلامية تحترم العقل السوي،وترفع من شأنه،ولا تحجر عليه،ولا تنكر نشاطه،والإسلام لا يرضى من المسلم أن يطفئ نور عقله،ويركن إلى التقليد الأعمى في مسائل الاعتقاد وغيرها.

قال تعالى:{ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [الرعد:١٩]

لا يَسْتَوِي الْمُهْتَدِي مِنَ النَّاسِ،الذي يَعْلَمُ أَنَّ الذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقُّ،الذي لاَ شَكَّ فيه،مَعَ الضَّالِّ،الذي لاَ يَعْلَمُ ذَلِكَ،لأَنَّهُ يَكُونُ كَالأَعْمَى لاَ يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ،وَلاَ يَفْهَمُهُ،وَلَوْ فَهِمَهُ مَا انْقَادَ إِلَيْهِ،وَلاَ صَدَّقَ به وَلاَ انْتَفَعَ.؟ فَالذينَ يَتَّعِظُونَ وَيَعْتَبِرُونَ هُمْ أَصْحَابُ العُقُولِ السَّلِيمَةِ،وَالبَصَائِرِ الْمُدْرِكَةِ (أُولُو الأَلْبَابِ)[106].

إن المقابل لمن يعلم أن أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا،إنما المقابل هو الأعمى! وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق.وهو الحق في الوقت

---

[105] - تفسير الشعراوي - (/ ٨٦٤)

[106] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ١٧٢٧)

ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف.فالعمى وحده هو الذي ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلا على أعمى.

والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان:مبصرون فهم يعلمون،وعمي فهم لا يعلمون! والعمى عمى البصيرة،وانطماس المدارك،واستغلاق القلوب،وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح،وانفصالها عن مصدر الإشعاع..«إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ»..الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحقّ فتتذكر،وتنبه إلى دلائله فتتفكر.[107]

إن الذين لا يستجيبون لهذا الحق هم – بشهادة اللّه سبحانه – عمي.وأنهم لا يتفكرون ولا يعقلون.وأن الذين يستجيبون له هم أولو الألباب،وهؤلاء تطمئن قلوبهم بذكر اللّه،وتتصل بما هي عارفة له ومصطلحة عليه بفطرتها العميقة،فتسكن وتستريح.

وإن الإنسان ليجد مصداق قول اللّه هذا في كل من يلقاه من الناس معرضا عن هذا الحق الذي تضمنه دين اللّه،والذي جاء به في صورته الكاملة محمد رسول اللّه..فإن هي إلا جبلات مؤوفة مطموسة.وإن هي إلا كينونات معطلة في أهم جوانبها بحيث لا تتلقى إيقاعات هذا الوجود كله من حولها،وهو يسبح بحمد ربه وينطق بوحدانيته وقدرته وتدبيره وتقديره.

وإذا كان الذين لا يؤمنون بهذا الحق عميا – بشهادة اللّه سبحانه – فإنه لا ينبغي لمسلم يزعم أنه يؤمن برسول اللّه،ويؤمن بأن هذا القرآن وحي من عند اللّه..لا ينبغي لمسلم يزعم هذا الزعم أن يتلقى في شأن من شؤون الحياة عن أعمى! وبخاصة إذا كان هذا الشأن متعلقا بالنظام الذي يحكم حياة الإنسان أو بالقيم والموازين التي تقوم عليها حياته أو بالعادات والسلوك والتقاليد والآداب التي تسود مجتمعه..

وهذا هو موقفنا من نتاج الفكر – غير الإسلامي – بجملته – فيما عدا العلوم المادية البحتة وتطبيقاتها العملية مما قصده رسول اللّه – ﷺ – بقوله:«أنتم أعلم بشؤون دنياكم».فإنه ما ينبغي قط لمسلم يعرف هدى اللّه ويعرف هذا الحق الذي جاء به رسول اللّه،أن يقعد مقعد التلميذ الذي يتلقى من أي إنسان لم يستجب لهذا الهدى و لم يعلم أنه

[107] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٤ / ٢٠٥٦)

الحق..فهو أعمى بشهادة اللّه سبحانه..ولن يرد شهادة اللّه مسلم..ثم يزعم بعد ذلك أنه مسلم!!! إنه لا بد لنا أن نأخذ هذا الدين مأخذ الجد وأن نأخذ تقريراته هذه مأخذ الجزم..وكل تميع في مثل هذه القضية هو تميع في العقيدة ذاهّا إن لم يكن هو رد شهادة اللّه – سبحانه – وهو الكفر البواح في هذه الصورة! وأعجب العجب أن ناسا من الناس اليوم يزعمون أهم مسلمون ثم يأخذون في منهج الحياة البشرية عن فلان وفلان من الذين يقول عنهم اللّه سبحانه:إهم عمي.ثم يظلون يزعمون بعد ذلك أهم مسلمون!

إن هذا الدين جد لا يحتمل الهزل،وجزم لا يحتمل التميع،وحق في كل نص فيه وفي كل كلمة..فمن لم يجد في نفسه هذا الجد وهذا الجزم وهذه الثقة فما أغنى هذا الدين عنه.واللّه غني عن العالمين !

وما يجوز أن يثقل الواقع الجاهلي على حس مسلم،حتى يتلقى من الجاهلية في منهج حياته وهو يعلم أن ما جاءه به محمد – ﷺ – هو الحق وأن الذي لا يعلم أن هذا هو الحق «أعمى».ثم يتبع هذا الأعمى،ويتلقى عنه،بعد شهادة اللّه سبحانه وتعالى..

وأخيرا نقف أمام المعلم الأخير من المعالم التي تقيمها هذه السورة لهذا الدين..

إن هناك علاقة وثيقة بين الفساد الذي يصيب حياة البشر في هذه الأرض وبين ذلك العمى عن الحق الذي جاء من عند اللّه لهداية البشر إلى الحق والصلاح والخير.فالذين لا يستجيبون لعهد اللّه على الفطرة،ولا يستجيبون للحق الذي جاء من عنده ويعلمون أنه وحده الحق..هم الذين يفسدون في الأرض كما أن الذين يعلمون أنه الحق ويستجيبون له هم الذين يصلحون في الأرض،وتزكو بهم الحياة[١٠٨]

فالعلم الحق هو المعرفة.هو إدراك الحق.هو تفتح البصيرة.هو الاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود.

وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التي تزحم الذهن،ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى،ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس.

[١٠٨] – في ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع – (٤ / ٢٠٧٤)

وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقي والمعرفة المستنيرة..هذا هو..القنوت للّـه.وحساسية القلب،واستشعار الحذر من الآخرة،والتطلع إلى رحمة اللّه وفضله ومراقبة اللّه هذه المراقبة الواجفة الخاشعة..هذا هو الطريق،ومن ثم يدرك اللب ويعرف،وينتفع بما يرى وما يسمع وما يجرب وينتهي إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة.فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة،والمشاهدات الظاهرة،فهم جامعو معلومات وليسوا بالعلماء..

«إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ»..وإنما يعرف أصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق.المنتفعة بما ترى وتعلم،التي تذكر اللّه في كل شيء تراه وتلمسه ولا تنساه،ولا تنسى يوم لقاه..[١٠٩]

٢٥- تعترف بالعواطف الإنسانية،وتوجهها الوجهة الصحيحة:

فالعواطف أمر غريزي،ولا يتجرد منه أي إنسان سوي،والعقيدة الإسلامية ليست عقيدة هامدة جامدة،بل هي عقيدة حيَّة،تعترف بالعواطف الإنسانية،وتقدرها حق قدرها،وفي الوقت نفسه لا تطلق العنان لها،بل تُقوِّمها،وتسمو بها،وتوجهها الوجهة الصحيحة،التي تجعل منها أداة خير وتعمير،بدلاً من أن تكون معولَ هدمٍ وتدمير.

قال تعالى:{وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} (١٢٩) سورة النساء إن اللّه الذي فطر النفس البشرية،يعلم من فطرتها أنها ذات ميول لا تملكها.ومن ثم أعطاها لهذه الميول خطاما.خطاما لينظم حركتها فقط،لا ليعدمها ويقتلها! من هذه الميول أن يميل القلب البشري إلى إحدى الزوجات ويؤثرها على الأخريات.فيكون ميله إليها أكثر من الأخرى أو الأخريات.وهذا ميل لا حيلة له فيه ولا يملك محوه أو قتله..فماذا؟ إن الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه ولا يجعل هذا إثما يعاقبه عليه فيدعه موزعا بين ميل لا يملكه وأمر لا يطيقه! بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء – ولو حرصوا – لأن الأمر خارج عن إرادتهم..ولكن هنالك ما هو داخل في إرادتهم.هناك

---

[١٠٩] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٥ / ٣٠٤٢)

العدل في المعاملة.العدل في القسمة.العدل في النفقة.العدل في الحقوق الزوجية كلها،حتى الابتسامة في الوجه،والكلمة الطيبة باللسان..وهذا ما هم مطالبون به.هذا هو الخطام الذي يقود ذلك الميل.لينظمه لا ليقتله! «فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ»..

فهذا هو المنهي عنه.الميل في المعاملة الظاهرة،والميل الذي يحرم الأخرى حقوقها فلا تكون زوجة ولا تكون مطلقة..ومعه الهتاف المؤثر العميق في النفوس المؤمنة والتجاوز عما ليس في طاقة الإنسان.

«وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً».

ولأن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بجملة ما فيها من مزاج فريد مؤلف من القبضة من الطين والنفخة من روح اللّه.وبجملة ما فيها من استعدادات وطاقات.وبواقعيتها المثالية،أو مثاليتها الواقعية،التي تضع قدميها على الأرض،وترف بروحها إلى السماء،دون تناقض ودون انفصام.

لأن الإسلام كذلك..كان نبي الإسلام – ﷺ – هو الصورة الكاملة للإنسانية حين تبلغ أوجها من الكمال فتنمو فيها جميع الخصائص والطاقات نموا متوازنا متكاملا في حدود فطرة الإنسان.

وكان هذا الرسول – ﷺ – وهو يقسم بين نسائه فيما يملك،ويعدل في هذه القسمة،لا ينكر أنه يؤثر بعضهن على بعض.وأن هذا خارج عما يملك.فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ،فَيَقُولُ:اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ،فَلا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلا أَمْلِكُ قَالَ إِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي:يَعْنِي الْقَلْبَ،وَهَذَا فِي الْعَدْلِ بَيْنَ نِسَائِهِ ".. [١١٠]

فأما حين تجف القلوب،فلا تطيق هذه الصلة ولا يبقى في نفوس الزوجين ما تستقيم معه الحياة،فالتفرق إذن خير.لأن الإسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال،ولا بالقيود والأغلال إنما يمسكهم بالمودة والرحمة أو بالواجب والتجمل.فإذا بلغ الحال أن لا تبلغ هذه الوسائل كلها علاج القلوب المتنافرة،فإنه لا يحكم عليها أن تقيم في سجن من الكراهية

---

[١١٠] – المستدرك للحاكم(٢٧٦١) صحيح

والنفرة أو في رباط ظاهري وانفصام حقيقي! «وَإِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ.وَكانَ اللَّهُ واسِعاً حَكِيماً»..

فاللّه يعد كلا منهما أن يغنيه من فضله هو،ومما عنده هو وهو - سبحانه - يسع عباده ويوسع عليهم بما يشاء في حدود حكمته وعلمه بما يصلح لكل حال.

إن دراسة هذا المنهج،وهو يعالج مشاعر النفوس،وكوامن الطباع،وأوضاع الحياة في واقعيتها الكلية..

تكشف عن عجب لا ينقضي،من تنكر الناس لهذا المنهج..هذا المنهج الميسر،الموضوع للبشر،الذي يقود خطاهم من السفح الهابط،في المرتقى الصاعد،إلى القمة السامقة وفق فطرتهم واستعداداتهم ولا يفرض عليهم أمرا من الارتفاع والتسامي،إلا وله وتر في فطرتهم يوقع عليه وله استعداد في طبيعتهم يستجيشه وله جذر في تكوينهم يستنبته..ثم هو يبلغ بهم - بعد هذا كله - إلى ما لا يبلغه بهم منهج آخر..في واقعية مثالية.أو مثالية واقعية..هي صورة طبق الأصل من تكوين هذا الكائن الفريد.[111]

وقال تعالى:{وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} (٢٣٥) سورة البقرة

والمتوفى عنها زوجها كانت تلقى الكثير من العنت من الأهل وقرابة الزوج والمجتمع كله..وعند العرب كانت إذا مات زوجها دخلت مكانا رديئا ولبست شر ثيابها و لم تمس طيبا ولا شيئا مدة سنة،ثم تخرج فتقوم بعدة شعائر جاهلية سخيفة تتفق مع سخف الجاهلية،من أخذ بعرة وقذفها ومن ركوب دابة:حمار أو شاة...

إلخ..فلما جاء الإسلام خفف عنها هذا العنت،بل رفعه كله عن كاهلها و لم يجمع عليها بين فقدان الزوج واضطهاد الأهل بعده..وإغلاق السبيل في وجهها دون حياة شريفة،وحياة عائلية مطمئنة.جعل عدتها أربعة أشهر وعشر ليال - ما لم تكن حاملا

[111] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٧٧٠)

فعدتها عدة الحامل – وهي أطول قليلا من عدة المطلقة.تستبرئ فيها رحمها،ولا تجرح أهل الزوج في عواطفهم بخروجها لتوها.وفي أثناء هذه العدة تلبس ثيابا محتشمة ولا تتزين للخطاب.فأما بعد هذه العدة فلا سبيل لأحد عليها.سواء من أهلها أو من أهل الزوج.ولها مطلق حريتها فيما تتخذه لنفسها من سلوك شريف في حدود المعروف من سنة اللّه وشريعته،فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات،ولها أن تتلقى خطبة الخطاب،ولها أن تزوج نفسها ممن ترتضي.لا تقف في سبيلها عادة بالية،ولا كبرياء زائفة.وليس عليها من رقيب إلا اللّه:«وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»..هذا شأن المرأة..

ثم يلتفت السياق إلى الرجال الراغبين فيها في فترة العدة فيوجههم توجيها قائما على أدب النفس،وأدب الاجتماع،ورعاية المشاعر والعواطف،مع رعاية الحاجات والمصالح:«وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ»..

إن المرأة في عدتها ما تزال معلقة بذكرى لم تمت،وبمشاعر أسرة الميت،ومرتبطة كذلك بما قد يكون في رحمها من حمل لم يتبين،أو حمل تبين والعدة معلقة بوضعه..وكل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة.لأن هذا الحديث لم يحن موعده،ولأنه يجرح مشاعر،ويخدش ذكريات.

ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أبيح التعريض – لا التصريح – بخطبة النساء.أبيحت الإشارة البعيدة التي تلمح منها المرأة أن هذا الرجل يريدها زوجة بعد انقضاء عدتها.

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:يَقُولُ:إِنِّي فِيك لرَاغِبٌ وَإِنِّي أُرِيدُ امْرَأَةً أَمْرُهَا كَذَا وَكَذَا وَيُعَرِّضُ لَهَا بِالْقَوْلِ.[١١٢]

كذلك أبيحت الرغبة المكنونة التي لا يصرح بها لا تصريحا ولا تلميحا.لأن اللّه يعلم أن هذه الرغبة لا سلطان لإرادة البشر عليها:«عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ»..

وقد أباحها اللّه لأنها تتعلق بميل فطري،حلال في أصله،مباح في ذاته،والملابسات وحدها هي التي تدعو إلى تأجيل اتخاذ الخطوة العملية فيه.والإسلام يلحظ ألا يحطم الميول الفطرية

---

[١١٢] - مصنف ابن أبي شيبة – (٤ / ٢٥٧)(١٧١٠٤) صحيح

إنما يهذبها،ولا يكبت النوازع البشرية إنما يضبطها.ومن ثم ينهى فقط عما يخالف نظافة الشعور،وطهارة الضمير:«وَلكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا»..

لا جناح في أن تعرضوا بالخطبة،أو أن تكنوا في أنفسكم الرغبة،ولكن المحظور هو المواعدة سرا على الزواج قبل انقضاء العدة.ففي هذا مجانبة لأدب النفس،ومخالسة لذكرى الزوج،وقلة استحياء من اللّه الذي جعل العدة فاصلا بين عهدين من الحياة.

«إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً»..لا نكر فيه ولا فحش،ولا مخالفة لحدود اللّه التي بينها في هذا الموقف الدقيق:«وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ»..ولم يقل:ولا تعقدوا النكاح..إنما قال:«وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ»..زيادة في التحرج..فالعزيمة التي تنشئ العقدة هي المنهي عنها..وذلك من نحو قوله تعالى:«تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها»..توحي بمعنى في غاية اللطف والدقة.«وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ»..

وهنا يربط بين التشريع وخشية اللّه المطلع على السرائر.فللهواجس المستكنة وللمشاعر المكنونة هنا قيمتها في العلاقات بين رجل وامرأة.تلك العلاقات الشديدة الحساسية،العالقة بالقلوب،الغائرة في الضمائر.

وخشية اللّه،والحذر مما يحيك في الصدور أن يطلع عليه اللّه هي الضمانة الأخيرة،مع التشريع،لتنفيذ التشريع.

فإذا هز الضمير البشري هزة الخوف والحذر،فصحا وارتعش رعشة التقوى والتحرج،عاد فسكب فيه الطمأنينة للّه،والثقة بعفو اللّه،وحلمه وغفرانه:«وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ»..

غفور يغفر خطيئة القلب الشاعر باللّه،الحذر من مكنونات القلوب.حليم لا يعجل بالعقوبة فلعل عبده الخاطئ أن يتوب.[١١٣]

٢٦- العقيدة الإسلامية كفيلة بحل جميع المشكلات:

سواء مشكلات الفرقة والشتات،أو مشكلات السياسة والاقتصاد،أو مشكلات الجهل والمرض والفقر،أو غير ذلك.

---

[١١٣] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٢٥٥)

فلقد جمع الله بها القلوب المشتتة،والأهواء المتفرقة،وأغنى بها المسلمين بعد العَيْلَة،وعلّمهم بها بعد الجهل،وبصّرهم بعد العمى،وأطعمهم من جوع،وآمنهم من خوف

قال تعالى:{ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[الأنفال:٢٦]

يُنَبِّهُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ إِلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ الوَفِيرَةِ،فَقَدْ كَانُوا قَلِيلِي العَدَدِ،مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ،يَعْتَدِي عَلَيْهِمُ النَّاسُ،خَائِفِينَ مِنْ مُجْرِمِي قُرَيْشٍ،فَقَوَّاهُمْ وَآوَاهُمْ،وَنَصَرَهُمْ وَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ،وَكُلُّ هَذِهِ النِّعَمِ التِي أَنْعَمَ بِهَا اللهُ عَلَيْهِمْ تَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا،فَاللهُ تَعَالَى مُنْعِمٌ يُحِبُّ الشُّكْرَ مِنْ عِبَادِهِ[١١٤].

والعصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة إنشاء هذا الدين في واقع الأرض وفي حياة الناس قد لا تكون قد مرت بالمرحلتين،ولا تذوقت المذاقين..ولكن هذا القرآن يهتف لها بهذه الحقيقة كذلك.ولئن كانت اليوم إنما تعيش في قوله تعالى:«إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ»..فأولى لها أن تستجيب لدعوة الحياة التي يدعوها إليها رسول اللّه وأن تترقب في يقين وثقة،موعود اللّه للعصبة المسلمة،موعوده الذي حققه للعصبة الأولى،ووعد بتحقيقه لكل عصبة تستقيم على طريقه،وتصبر على تكاليفه..وأن تنتظر قوله تعالى:«فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ،وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

وهي إنما تتعامل مع وعد اللّه الصادق - لا مع ظواهر الواقع الخادع - ووعد اللّه هو واقع العصبة المسلمة الذي يرجح كل واقع!.[١١٥]

فاللّه يحقق لمن امتثل أوامره سعادة الدنيا،وعزة السلطان،والتمكين في الأرض،والأمن من المخاوف،والنصر على الأعداء،ويمنحهم أيضا الفوز والنجاة والرضوان في الآخرة.فإن تنكروا للأوامر الإلهية و لم يشكروا النعم،كحال المسلمين اليوم،صاروا أذلة ضعافا.وسنة

---

[١١٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ١١٨٧)

[١١٥] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٣ / ١٤٩٧)

الله في ذلك هي:إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ،وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [الأعـــراف ٧/ ١٢٨].[116]

وبعد كل ما حدث من وقائع،يذكّر الحق عز وجل هنا صاحب الحال الأعلـــى بالماضـــي الأدنى،ليثبت له:أن الذي نقلك مـــن أدنى حيـــاة إلى أعلـــى حيـــاة،موجود ولا يـــزال موجوداً،وما دام قد شاءت قدرته أن ينقلك من الأدنى للأعلى،فقدرته سبحانه وتعـــالى – إن شاءت – نقلتك من الأعلى إلى الأدنى.فإذا كنت في حال أعلى؛ إياك أن تنسى أنـــك كنت في حال أدنى.وعليك أن تعترف بجميل عطاء الخالق المنعم المتفضل وتقـــول:إن ربي القوي العظيم هو الذي وهبني ورفع مكانتي و لم أفعل ذلك بمهارتي،وحتى إن كنـــت قـــد ارتقيت بالمهارة،فالمهارة عطاء منه سبحانه وتعالى،لذلك يقول المولى عز وجـــل هنـــا:{ وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ }.أي اجعلوا هذا الأمر على بالكم دائمـــا وإياكم أن تخافوا أية قوة مهما بلغت هذه القوة،ولكن أعدوا لكل قوة ما يناســـبها مـــن أسلوب المواجهة الكثير؛ لأنكم حملة دعوة،ومن يحمل الدعوة قد يعاني مـــن المصـــاعب والمتاعب والمشقات؛ لكن يجب ألاَّ يفت ذلك في عضدكم.

لقد كان المسلمون الأوائل قلة تعاني من إذلال واضطهاد الكافرين الأقوياء.وكان المســـلم من الأوائل لا يجد أحياناً من يحميه من اضطهاد المتجبرين،فيلجأ إلى كافر يتوسم فيه الرحمة ويقول له:أجرني من إخوانك الكفر.وحين بلغ الضعف بالمسلمين الأوائل أشده،و لم يجدوا حامياً لهم من ظلم وتعذيب الكفار،عرض عليهم ﷺ أن يهاجروا إلى الحبشـــة؛ لأنَّ فيهـــا ملكاً لا يظلم عنده أحد.وكانت الهجرة إلى الحبشة هرباً من قوة الخصوم،و لم يظل حـــال المسلمين كذلك،بل نصرهم الله لا بقوقم،ولكنه سبحانه وتعالى شـــاء لهـــم أن يأخـــذوا بأسباب منهجه فانتصروا وعلت كلمة الله عز وجل.

إننا نتخذ من هذه المسألة حجة ومثلاً نواجه به من يشككون في قدرة المسلمين على إدارة الحياة والارتقاء بها؛ لأن العالم كله قد شهد ألف عام كان المسلمون فيها هم قادة العلـــم والفكر والابتكار،وكانت غالبية الدول تخضع لحكم دولة الإسلام.

[116] – التفسير المنير فى العقيدة و الشريعة و المنهج – (٩ / ٢٩٦)

لقد سبق أن قلت:إن هارون الرشيد الخليفة المسلم بعث لشارلمان ملك فرنسا بهدية هـــي ساعة دقاقة بالماء؛ تم تصميمها بدقة عالية تفوق طاقة خيال النـــاس في فرنســـا،ولحظة أن شاهدوها في فرنسا ظنوا أن الشياطين هي التي تحركها؛ لأن التقدم العلمي والتطبيقـــي في بغداد في ذلك الوقت فاق كل التصور الأوروبي حيث كانوا يعيشون في تخلـــف علمـــي شديد.

لكن المسألة انعكست في زماننا هذا وصرنا نعاني من تخلـــف في الأخـــذ بأســـباب الله للاستفادة بالعلم،فحين جاء"الراديو"وجاء"التليفزيون"إلى بعض البلاد الإسلامية،وجدنا من يقول عن الراديو:إن بداخله شيطاناً يتكلم ويلوّن ويغير من صوته.

و لم يغير أصحاب هذا الرأي اندهاشهم ورفضهم لوجدوا محطة الإذاعة وأجهزة الاستقبال في بلادهم إلا بعد أن قلنا لهم:حرّكوا مؤشر الراديو وستجدونه يذيع القرآن الكريم،وحين فعلوا ذلك استمعوا إلى صوت الشيخ محمد رفعت،وكان يقـــرأ في ســـورة مريم،وقلنـــا لأصحاب هذا الرأي:إن الشيطان لا يقرأ القرآن،بل إن الإذاعة وأجهزة الاســـتقبال هـــي اختراعات علمية توصل إليها من أخذوا بأسباب الله في العلم التطبيقي.

وحين جاء اختراع"الميكروفون"وطالب الكـــثير بوضـــعه في المســـاجد وقـــت صـــلاة الجمعة،وجدنا البعض يرفض دخول الميكروفون إلى المسجد،متجاهلاً أن هناك مســـاجد كبيرة يحتاج إسماع الناس فيها لخطبة الجمعة وجود أكثر من"ميكروفون ".وقلت لواحـــد من هؤلاء:ليصلح الله حالك وبالك،لماذا ترتدي نظارة طبية وتضـــعها علـــى عينيـــك؟ أجابني:لأن نظري ضعيف والنظارة تكبر لي الكتابة.فقلت:وهكـــذا"الميكروفـــون"يكـــبر الصوت ليسمعه من يجلس بعيداً عن المنبر والإمام،أثناء صلاة الجماعة وصلاة الجمعة.

فإذا كان بعض من الدول الإسلامية قد وصل بها الحال إلى هذا الحد من العجز في تقبـــل العلم،فهذا تنبيه لنا لأن نعيد الأخذ بأسباب الله في الكون،ولنطور العلوم،ونخدم بها منهج الله،بدلاً من أن نظل متخلفين رغم أن منهج الله يحضنا على الأخذ بالأسباب الموجودة في الكون،وكلنا يعلم أن كون الله في يده والنواميس في يده،يسخرها سبحانه وتعـــالى لمـــن يأخذ بالأباب.

ويذكرنا الحق تبارك وتعالى بقوله:{ وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ } [الأنفال:٢٦].والخطف هو أخذ بسرعة،أي أن يأخذ إنسان أو جماعة غير الحق،وعرفنا من قبل أنَّ أخذ غير الحق له صُوَر متعددة،والمثال:نجد تاجراً يعرض أيْ يفرش بضاعته من تمر أو تفاح،ويأتي أحد المارة لينظر إلى البضاعة المعروضة والمفروشة وليس معه نُقُود يشتري بها فيخطف تفاحة أو بعضاً من التمر ويجري بسرعة،ويحاول صاحب البضاعة أن يلحق به وحاول اللص أن يتخلص ويفلت منه؛ فهذا اسمه"غصب "،أما السرقة،فهي أخذ المال خفيةً من حرز وصاحبه غير موجود.ويختلف كل ذلك عن الاختلاس؛ لأن الاختلاس هو أن تأخذ مما في حوزتك وأنت مأمون عليه؛ إذن أخذ غير الحق له عدة صور هي:خطف،أو غصب،أو سرقة أو اختلاس.والحق تبارك وتعالى يقول:{ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ } [الأنفال:٢٦].أي يأخذونكم دون أن يدافع عنكم أحد.وها أنتم أولاء قد صرتم أقوياء باستقرار الإيمان في قلوبكم،وبمدد من الله عز وجل؛ لذلك يجب أن تذكروه دائماً امتناناً وتقديرا وعبادة،وشكراً،وخشوعاً.

فهو سبحانه وتعالى قد أعطاكم الاستقرار في المأوى الجديد – المدينة المنورة – ورحب بكم مجتمع الإيمان في المدينة المنورة.

وعندما دخلتم إلى المدينة أقمتم المسجد وهو سمة استمرار النور من السماء هداية للأرض.كان هذا هو أول عمل لكم ولم تنشغلوا من قبله بأي عمل آخر.واعتبركم الأنصارُ إخوةً،فصرتم أقوياء بأخوة الإيمان،وصاروا هم أيضا أقوياء بهذه الأخوة بعد أن كان اليهود هناك يستفتحون عليهم بالرسول القادم،جاء الرسول وكان في نصرة المستضعفين وصار منهجه قوة لكم وللأنصار،وكان المهاجر منكم يجد الدعوة من الأنصارى إلى بيته،لا للطعام ولا للشراب فقط،بل للإقامة أيضاً.

ثم حدث الملحظ العجيب،فالإنسان إذا أنعم الله عليه بنعم شتى،فقد يحب أن يمتع صاحبه من هذه النعم،إلا المرأة،فالزوج يغار على نسائه.لكن الأنصاري من هؤلاء إن كان متزوجاً من اثنين،يقول للمهاجر:لقد جئت من مكة إلى المدينة دون أهلك.فانظر إلى

زوجتيَّ،فأيهما تعجبك أطلقها وتتزوجها بعد انقضاء عدتها،هذا هو الملظ العجيب،وهي مسألة لا يمكن أن تمر على خيال العربي أبداً.

ويذيل الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله:{ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [الأنفال:٢٦] وقد رزقهم المولى سبحانه وتعالى وأمدهم بالخيرات والأسلحة والنفائس وهزموا صناديد قريش،ولم تكن الغنائم تحل لأحد من الأنبياء من قبل،لكنها أحلت لسيدنا رسول الله ﷺ.إذن فالذي صنع لكم كل ذلك حقيق أن يُذكر فلا ينسى وأن يشكر دائما.[117]

٢٧-الدخول في السلم الحقيقي:

قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (٢٠٨) سورة البقرة

إنها دعوة للمؤمنين باسم الإيمان.بهذا الوصف المحبب إليهم،والذي يميزهم ويفردهم،ويصلهم بالّله الذي يدعوهم..دعوة للذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة..

وأول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم للّه،في ذوات أنفسهم،وفي الصغير والكبير من أمرهم.أن يستسلموا الاستسلام الذي لا تبقى بعده بقية ناشزة من تصور أو شعور،ومن نية أو عمل،ومن رغبة أو رهبة،لا تخضع للّه ولا ترضى بحكمه وقضاه.استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية.الاستسلام لليد التي تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير،في الدنيا والآخرة سواء.

وتوجيه هذه الدعوة إلى الذين آمنوا إذ ذاك تشي بأنه كانت هنالك نفوس ما تزال يثور فيها بعض التردد في الطاعة المطلقة في السر والعلن.وهو أمر طبيعي أن يوجد في الجماعة إلى جانب النفوس المطمئنة الواثقة الراضية..وهي دعوة توجه في كل حين للذين آمنوا ليخلصوا ويتجردوا وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع ما يريد اللّه بهم،وما يقودهم إليه نبيهم ودينهم،في غير ما تلجلج ولا تردد ولا تلفت.

---

[117] - تفسير الشعراوي - (/ ١١٧٣)

والمسلم حين يستجيب هذه الاستجابة يدخل في عالم كله سلم وكله سلام.عالم كله ثقة واطمئنان،وكله رضى واستقرار.لا حيرة ولا قلق،ولا شرود ولا ضلال.سلام مع النفس والضمير.سلام مع العقل والمنطق.سلام مع الناس والأحياء.سلام مع الوجود كله ومع كل موجود.سلام يرف في حنايا السريرة.

وسلام يظلل الحياة والمجتمع.سلام في الأرض وسلام في السماء.

وأول ما يفيض هذا السلام على القلب يفيض من صحة تصوره للّه ربه،ونصاعة هذا التصور وبساطته..

إنه إله واحد.يتجه إليه المسلم وجهة واحدة يستقر عليها قلبه فلا تتفرق به السبل،ولا تتعدد به القبل ولا يطارده إله من هنا وإله من هناك – كما كان في الوثنية والجاهلية – إنما هو إله واحد يتجه إليه في ثقة وفي طمأنينة وفي نصاعة وفي وضوح.

وهو إله قوي قادر عزيز قاهر..فإذا اتجه إليه المسلم فقد اتجه إلى القوة الحقة الوحيدة في هذا الوجود.

وقد أمن كل قوة زائفة واطمأن واستراح.ولم يعد يخاف أحدا أو يخاف شيئا،وهو يعبد اللّه القوي القادر العزيز القاهر.ولم يعد يخشى فوت شيء.ولا يطمع في غير من يقدر على الحرمان والعطاء.

وهو إله عادل حكيم،فقوته وقدرته ضمان من الظلم،وضمان من الهوى،وضمان من البخس.وليس كآلهة الوثنية والجاهلية ذوات النزوات والشهوات.ومن ثم يأوي المسلم من إلهه إلى ركن شديد،ينال فيه العدل والرعاية والأمان.

وهو رب رحيم ودود.منعم وهاب.غافر الذنب وقابل التوب.يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

فالمسلم في كنفه آمن آنس،سالم غانم،مرحوم إذا ضعف،مغفور له متى تاب..

وهكذا يمضي المسلم مع صفات ربه التي يعرفه بها الإسلام فيجد في كل صفة ما يؤنس قلبه،وما يطمئن روحه،وما يضمن معه الحماية والوقاية والعطف والرحمة والعزة والمنعة والاستقرار والسلام

كذلك يفيض السلام على قلب المسلم من صحة تصور العلاقة بين العبد والــرب.وبــين الخالق والكون.

وبين الكون والإنسان..فاللّه خلق هذا الكون بالحق وخلــق كــل شــيء فيــه بقــدر وحكمة.وهذا الإنسان مخلوق قصدا،وغير متروك سدى،ومهيأ له كل الظروف الكونيــة المناسبة لوجوده،ومسخر له ما في الأرض جميعا.

وهو كريم على اللّه،وهو خليفته في أرضه.واللّه معينه على هذه الخلافة.والكون من حوله صديق مأنوس،تتجاوب روحه مع روحه،حين يتجه كلاهما إلى اللّه ربه.وهو مــدعو إلى هذا المهرجان الإلهي المقام في السماوات والأرض ليتملاه ويأنس به.وهو مدعو للتعــاطف مع كل شيء ومع كل حي في هذا الوجود الكبير،الذي يعج بالأصدقاء المدعوين مثله إلى ذلك المهرجان! والذين يؤلفون كلهم هذا المهرجان! والعقيدة التي تقف صــاحبها أمــام النبتة الصغيرة،وهي توحي إليه أن له أجرا حين يرويها من عطش،وحــين يعينــها علــى النماء،وحين يزيل من طريقها العقبات..هي عقيدة جميلة فوق أنها عقيدة كريمــة.عقيــدة تسكب في روحه السلام وتطلقه يعانق الوجود كله ويعانق كل موجود ويشيع من حوله الأمن والرفق،والحب والسلام.

والاعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ونفــي القلق والسخط والقنوط..إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة..إن الحساب الختامي هناك والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب.فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق جزاءه.ولا قلق على الأجر إذا لم يوف في هذه العاجلة بمقاييس الناس،فسوف يوفاه بميزان اللّه.ولا قنوط من العــدل إذا توزعت الحظوظ في الرحلة القصيرة على غير ما يريد،فالعدل لا بد واقع.وما اللّه يريد ظلما للعباد.

والاعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات.

بلا تحرج ولا حياء.فهناك الآخرة فيها عطاء،وفيها غناء،وفيها عوض عما يفوت.وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة وأن يخلع التجمل على حركات المتسابقين وأن يخفف السعار الذي ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هي فرصة هذا العمر القصير المحدود! ومعرفة المؤمن بأن غاية الوجود الإنساني هي العبادة،وأنه مخلوق ليعبد اللّه..من شأنها – ولا شك – أن ترفعه إلى هذا الأفق الوضيء.ترفع شعوره وضميره،وترفع نشاطه وعمله،وتنظف وسائله وأدواته.فهو يريد العبادة بنشاطه وعمله وهو يريد العبادة بكسبه وإنفاقه وهو يريد العبادة بالخلافة في الأرض وتحقيق منهج اللّه فيها.فأولى به ألا يغدر ولا يفجر وأولى به ألا يغش ولا يخدع وأولى به ألا يطغى ولا يتجبر وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة ولا وسيلة خسيسة.وأولى به كذلك ألا يستعجل المراحل،وألا يعتسف الطريق،وألا يركب الصعب من الأمور.فهو بالغ هدفه من العبادة بالنية الخالصة والعمل الدائب في حدود الطاقة..

ومن شأن هذا كله ألا تثور في نفسه المخاوف والمطامع،وألا يستبد به القلق في أية مرحلة من مراحل الطريق.

فهو يعبد في كل خطوة وهو يحقق غاية وجوده في كل خطرة،وهو يرتقي صعدا إلى اللّه في كل نشاط وفي كل مجال.

وشعور المؤمن بأنه يمضي مع قدر اللّه،في طاعة اللّه،لتحقيق إرادة اللّه..وما يسكبه هذا الشعور في روحه من الطمأنينة والسلام والاستقرار والمضي في الطريق بلا حيرة ولا قلق ولا سخط على العقبات والمشاق وبلا قنوط من عون اللّه ومدده وبلا خوف من ضلال القصد أو ضياع الجزاء..ومن ثم يحس بالسلام في روحه حتى وهو يقاتل أعداء اللّه وأعداءه.فهو إنما يقاتل للّه،وفي سبيل اللّه،ولإعلاء كلمة اللّه ولا يقاتل لجاه أو مغنم أو نزوة أو عرض ما من أعراض هذه الحياة.

كذلك شعوره بأنه يمضي على سنة اللّه مع هذا الكون كله.قانونه قانونه،ووجهته وجهته.فلا صدام ولا خصام،ولا تبديد للجهد ولا بعثرة للطاقة.وقوى الكون كله تتجمع إلى قوته،وتهتدي بالنور الذي يهتدي به،وتتجه إلى اللّه وهو معها يتجه إلى اللّه.

والتكاليف التي يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة.لا تتجاوز الطاقة ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاتــه لا تطلقهــا للعمل والبناء والنماء ولا تنسى حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجثماني والروحــي لا تلبيها في يسر وفي سماحة وفي رخاء..ومن ثم لا يحار ولا يقلق في مواجهة تكاليفه.يحمــل منها ما يطيق حمله،ويمضي في الطريق إلى اللّه في طمأنينة وروح وسلام.

والمجتمع الذي ينشئه هذا المنهج الرباني،في ظل النظام الذي ينبثق من هذه العقيدة الجميلــة الكريمة،والضمانات التي يحيط بها النفس والعرض والمال..كلها مما يشيع السـلم وينشــر روح السلام.

هذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق.هذا المجتمع الــذي حققــه الإسلام مرة في أرقى وأصفى صوره.ثم ظل يحققه في صور شتى على توالي الحقب،تختلف درجة صفائه،ولكنه يظل في جملته خيرا من كل مجتمع آخر صاغته الجاهليــة في الماضــي والحاضر،وكل مجتمع لوثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية! هذا المجتمع الــذي تربطه آصرة واحدة – آصرة العقيدة – حيث تذوب فيها الأجناس والأوطان،واللغــات والألوان،وسائر هذه الأواصر العرضية التي لا علاقة لها بجوهر الإنسان..

هذا المجتمع الذي يسمع اللّه يقول له:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (١٠) سورة الحجرات..والذي يرى صورته في قول رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى ».[١١٨]..

هذا المجتمع الذي من آدابه:{وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} (٨٦) سورة النساء..{وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَـا تَمْــشِ فِــي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (١٨) سورة لقمان..{وَلَـا تَسْــتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِــيمٌ} (٣٤) سورة فصلت..{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْــرًا

---

[١١٨] – صحيح مسلم– المكتر – (٦٧٥١)

مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (١١) سورة الحجرات..{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} (١٢) سورة الحجرات..

هذا المجتمع الذي من ضماناته:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} (٦) سورة الحجرات..{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} (١٢) سورة الحجرات

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (٢٧) سورة النور..وقول رَسُول اللَّه -ﷺ- « لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا.الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ.التَّقْوَى هَا هُنَا ».وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ « بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ ».[١١٩]..

ثم هذا المجتمع النظيف العفيف الذي لا تشيع فيه الفاحشة ولا يتبجح فيه الإغراء،ولا تروج فيه الفتنة،ولا ينتشر فيه التبرج،ولا تتلفت فيه الأعين على العورات،ولا ترف فيه الشهوات على الحرمات،ولا ينطلق فيه سعار الجنس وعرامة اللحم والدم كما تنطلق في المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا..هذا المجتمع الذي تحكمه التوجيهات الربانية الكثيرة،والذي يسمع الله – سبحانه – يقول:{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (١٩) سورة النور ..{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ

[١١٩] - صحيح مسلم- المكنز - (٦٧٠٦)

فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} (٢) سورة النور..{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (٤) سورة النور ..{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (٣٠) سورة النور..{وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (٣١) سورة النور

والذي يخاطب فيه نساء النبي – أطهر نساء الأرض في أطهر بيت في أطهر بيئة في أطهر زمان {يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)} سورة الأحزاب..

وفي مثل هذا المجتمع تأمن الزوجة على زوجها،ويأمن الزوج على زوجته،ويأمن الأولياء على حرماتهم وأعراضهم،ويأمن الجميع على أعصابهم وقلوبهم.حيث لا تقع العيون على المفاتن،ولا تقود العيون القلوب إلى المحارم.فإما الخيانة المتبادلة حينذاك وإما الرغائب المكبوتة وأمراض النفوس وقلق الأعصاب..بينما المجتمع المسلم النظيف العفيف آمن ساكن،ترف عليه أجنحة السلم والطهر والأمان! وأخيرا إنه ذلك المجتمع الذي يكفل لكل قادر عملا ورزقا،ولكل عاجز ضمانة للعيش الكريم،ولكل راغب في العفة والحصانة زوجة صالحة،والذي يعتبر أهل كل حي مسؤولين مسؤولية جنائية لومات فيهم جائع حتى ليرى بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالدية.

والمجتمع الذي تكفل فيه حريات الناس وكراماتهم وحرماتهم وأموالهم بحكم التشـــريع،بعد كفالتها بالتوجيه الرباني المطاع.فلا يؤخذ واحد فيه بالظنة،ولا يتسور على أحد بيتـــه،ولا يتجسس على أحد فيه متجسس،ولا يذهب فيه دم هدرا والقصاص حاضر ولا يضيع فيه على أحد ماله سرقة أو نهبا والحدود حاضرة.

المجتمع الذي يقوم على الشورى والنصح والتعاون.كما يقوم علـــى المســـاواة والعدالـــة الصارمة التي يشعر معها كل أحد أن حقه منوط بحكم شريعة اللّه لا بإرادة حـــاكم،ولا هوى حاشية،ولا قرابة كبير.

وفي النهاية المجتمع الوحيد بين سائر المجتمعات البشرية،الذي لا يخضع البشر فيه للبشر.إنما يخضعون حاكمين ومحكومين للّه ولشريعته وينفذون حاكمين ومحكـــومين حكـــم اللّـــه وشريعته.فيقف الجميع على قدم المساواة الحقيقيـــة أمـــام اللّـــه رب العـــالمين وأحكـــم الحاكمين،في طمأنينة وفي ثقة وفي يقين..

هذه كلها بعض معاني السلم الذي تشير إليه الآية وتدعو الذين آمنـــوا للـــدخول فيـــه كافة.ليسلموا أنفسهم كلها للّه فلا يعود لهم منها شي ء،ولا يعود لنفوسهم من ذاتها حظ إنما تعود كلها للّه في طواعية وفي انقياد وفي تسليم..

ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الحيرة وكيف يعربد القلق في النفوس التي لا تطمئن بالإيمان،في المجتمعات التي لا تعرف الإسلام،أو الـــتي عرفتـــه ثم تنكرت له،وارتدت إلى الجاهلية،تحت عنوان من شتى العنوانات في جميع الأزمان..هـــذه المجتمعات الشقية الحائرة على الرغم من كل ما قد يتوافر لها من الرخاء المـــادي والتقـــدم الحضاري،وسائر مقومات الرقي في عرف الجاهلية الضالة التصورات المختلة الموازين.

وحسبنا مثل واحد مما يقع في بلد أوربي من أرقى بلاد العالم كله وهو «السويد».حيـــث يخص الفرد الواحد من الدخل القومي ما يساوي خمسمائة جنيه في العام.وحيث يســـتحق كل فرد نصيبه من التأمين الصحي وإعانات المرض التي تصرف نقدا والعلاج المجـــاني في المستشفيات.وحيث التعليم في جميع مراحله بالمجان،مع تقديم إعانات ملابـــس وقـــروض

للطلبة المتفوقين وحيث تقدم الدولة حوالي ثلاثمائة جنيه إعانة زواج لتأثيث البيوت..وحيث وحيث من ذلك الرخاء المادي والحضاري العجيب..

ولكن ماذا؟ ماذا وراء هذا الرخاء المادي والحضاري وخلو القلوب من الإيمان باللّه؟

إنه شعب مهدد بالانقراض،فالنسل في تناقص مطرد بسبب فوضى الاختلاط! والطلاق بمعدل طلاق واحد لكل ست زيجات بسبب انطلاق النزوات وتبرج الفتن وحرية الاختلاط! والجيل الجديد ينحرف فيدمن على المسكرات والمخدرات ليعوض خواء الروح من الإيمان وطمأنينة القلب بالعقيدة.والأمراض النفسية والعصبية والشذوذ بأنواعه تفترس عشرات الآلاف من النفوس والأرواح والأعصاب..ثم الانتحار..

والحال كهذا في أمريكا..والحال أشنع من هذا في روسيا..

إنها الشقوة النكدة المكتوبة على كل قلب يخلو من بشاشة الإيمان وطمأنينة العقيدة.فلا يذوق طعم السلم الذي يدعى المؤمنون ليدخلوا فيه كافة،ولينعموا فيه بالأمن والظل والراحة والقرار:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً..وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ.إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»..

ولما دعا اللّه الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة...حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان.فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان.إما الدخول في السلم كافة،وإما اتباع خطوات الشيطان.إما هدى وإما ضلال.إما إسلام وإما جاهلية.إما طريق اللّه وإما طريق الشيطان.وإما هدى اللّه وإما غواية الشيطان..وبمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المسلم موقفه،فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات.

إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحدا منها،أو يخلط واحدا منها بواحد..كلا! إنه من لا يدخل في السلم بكليته،ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة اللّه وشريعته،ومن لا يتجرد من كل تصور آخر ومن كل منهج آخر ومن كل شرع آخر..إن هذا في سبيل الشيطان،سائر على خطوات الشيطان..

ليس هنالك حل وسط،ولا منهج بين بين،ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك! إنما هناك حق وباطل.هدى وضلال.إسلام وجاهلية.منهج اللّه أو غواية الشيطان.واللّه يدعو

المؤمنين في الأولى إلى الدخول في السلم كافة ويحذرهم في الثانية مـن اتبـاع خطـوات الشيطان.ويستجيش ضمائرهم ومشاعرهم،ويستثير مخاوفهم بتذكير هم بعداوة الشـيطان لهم،تلك العداوة الواضحة البينة،التي لا ينساها إلا غافل.والغفلة لا تكون مع الإيمان.

ثم يخوفهم عاقبة الزلل بعد البيان:«فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»..

وتذكيرهم بأن اللّه «عَزِيزٌ» يحمل التلويح بالقوة والقدرة والغلبة،وأنهم يتعرضون لقوة اللّه حين يخالفون عن توجيهه..وتذكير هم بأنه «حَكِيمٌ»..فيه إيحاء بأن ما اختاره لهـم هـو الخير،وما نهاهم هو الشر،وأنهم يتعرضون للخسارة حين لا يتبعون أمره ولا ينتهون عمـا نهاهم عنه..فالتعقيب بشطريه يحمل معنى التهديد والتحذير في المقام..[120]

٢٨- الإيمان الحقيقي يدفع صاحبه إلى التضحية والفداء في سبيل الله:

قال تعالى:{إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١١١) سورة التوبة

من بايع على هذا.من أمضى عقد الصفقة.من ارتضى الثمن ووفى.فهو المؤمن..فـالمؤمنون هم الذين اشترى اللّه منهم فباعوا..ومن رحمة اللّه أن جعل للصفقة ثمنا،وإلا فهو واهـب الأنفس والأموال،وهو مالك الأنفس والأموال.ولكنه كرم هذا الإنسان فجعلـه مريـدا وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع اللّه - وكرمه فقيده بعقوده وعهوده وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ونقضه لها هـو مقيـاس ارتكاسـه إلى عـالم البهيمة:..شر البهيمة..«إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُـمْ لا يُؤْمِنُـونَ الَّـذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ»..كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة - بلا شك - ولكنها في عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنـه إلا بسقوط إيمانه.

---

[120] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٢٠٦)

ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات:«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ،يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ»..عونك اللهم! فإن العقد رهيب..وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها،قاعدون،لا يجاهدون لتقرير ألوهية اللّه في الأرض،وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد.ولا يقتلون.ولا يقتلون.ولا يجاهدون جهادا ما دون القتل والقتال! ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين – على عهد رسول اللّه – ﷺ – فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم،أو يحسونها مجردة في مشاعرهم.كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها.لتحويلها إلى حركة منظورة،لا إلى صورة متأملة..هكذا أدركها عبد اللّه بن رواحة – رضي اللّه عنه – في بيعة العقبة الثانية. فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:" لَمَّا حَضَرَ الْمَوْسِمُ حَجَّ نَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ مِنْهُمْ مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ وَأَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَمِنْ بَنِي زُرَيْقٍ رَافِعُ بْنُ مَالِكٍ وَذَكْوَانُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ وَمِنْ بَنِي غَنْمِ بْنِ عَوْفٍ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ ثَعْلَبَةَ وَمِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانِ وَمِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَهُ وَالَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ مِنْ نُبُوَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ أَيْقَنُوا وَاطْمَأَنُّوا إِلَى دَعْوَتِهِ وَعَرَفُوا مَا كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ ذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ بِصِفَتِهِ وَمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ فَصَدَّقُوا وَآمَنُوا بِهِ وَكَانُوا مِنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ قَالُوا لَهُ:قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مِنَ الدِّمَاءِ وَنَحْنُ ثَمَّ نُحِبُّ مَا أَنْ نَشُدَّ بِهِ أَمْرَكَ وَنَحْنُ لِلَّهِ وَلَكَ مُجْتَهِدُونَ وَإِنَّا نُشِيرُ عَلَيْكَ بِمَا نَرَى فَامْكُثْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ حَتَّى نَرْجِعَ إِلَى قَوْمِنَا فَنُخْبِرَهُمْ بِشَأْنِكَ وَنَدْعُوَهُمْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ،فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَنَا وَيَجْمَعَ أَمْرَنَا،فَإِنَّا الْيَوْمَ مُتَبَاعِدُونَ مُتَبَاغِضُونَ،فَإِنْ تَقْدَمْ عَلَيْنَا وَلَمْ نَصْطَلِحْ لَمْ يَكُنْ لَنَا جَمَاعَةٌ عَلَيْكَ،وَلَكِنْ نُوَاعِدُكَ الْمَوْسِمَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ،فَرَضِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺالَّذِي قَالُوا،فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَدَعَوْهُمْ سِرًّا،وَأَخْبَرُوهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺوَالَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ بِالْقُرْآنِ،حَتَّى قَلَّ دَارٌ مِنْ دُورِهِمْ إِلَّا أَسْلَمَ فِيهَا نَاسٌ لَا مَحَالَةَ،ثُمَّ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ

ﷺأن ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلًا مِنْ قِبَلِكَ فَيَدْعُو النَّاسَ بِكِتَابِ اللَّهِ؛فَإِنَّهُ أَدْنَى أَنْ يُتَّبَعَ،فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺمُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ فَنَزَلَ فِي بَنِي غَنْمٍ عَلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ فَجَعَلَ يَدْعُو النَّاسَ سِرًّا فَيَفْشُو الْإِسْلَامُ وَيَكْثُرُ أَهْلُهُ وَهُمْ فِي ذَلِكَ مُسْتَخْفُونَ بِدُعَائِهِمْ ثُمَّ إِنَّ أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ أَقْبَلَ هُوَ وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ حَتَّى أَتَيَا بِئْرَ مَرَقٍ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا فَجَلَسَا هُنَاكَ وَبَعَثَا إِلَى رَهْطٍ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَأَتَوْهُمْ مُسْتَخْفِينَ فَبَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ يُحَدِّثُهُمْ وَيَقُصُّ عَلَيْهِمْ أُخْبِرَ بِهِمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَأَتَاهُمْ فِي لَأْمَتِهِ مَعَهُ الرُّمْحُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ:عَلَامَ تَأْتِينَا فِي دُورِنَا بِهَذَا الْوَحِيدِ الْفَرِيدِ الطَّرِيحِ الْغَرِيبِ يُسَفِّهُ ضُعَفَاءَنَا بِالْبَاطِلِ،وَيَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ،وَلَا أَرَاكُمْ بَعْدَهَا بِشَيْءٍ مِنْ جِوَارِنَا،فَرَجَعُوا ثُمَّ إِنَّهُمْ عَادُوا الثَّانِيَةَ لِبِئْرِ مَرَقٍ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا فَأُخْبِرَ بِهِمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَتَوَاعَدَهُمْ تَوَعُّدًا دُونَ الْوَعِيدِ الْأَوَّلِ،فَلَمَّا رَأَى أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ مِنْهُ لِينًا قَالَ:يَا ابْنَ خَالَةِ،اسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ،فَإِنْ سَمِعْتَ مُنْكَرًا فَارْدُدْهُ بِأَهْدَى مِنْهُ،وَإِنْ سَمِعْتَ حَقًّا فَأَجِبْ إِلَيْهِ،فَقَالَ:مَاذَا يَقُولُ ؟ فَقَرَأَ عَلَيْهِ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ:حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ:مَا أَسْمَعُ إِلَّا مَا أَعْرِفُ،فَرَجَعَ قَدْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَمْ يُظْهِرْ لَهُمُ الْإِسْلَامَ حَتَّى رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَدَعَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَظْهَرَ إِسْلَامَهُ وَقَالَ:مَنْ شَكَّ فِيهِ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ أَوْ أُنْثَى أَوْ ذَكَرٍ فَلْيَأْتِنَا بِأَهْدَى مِنْهُ نَأْخُذْ بِهِ،فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ أَمْرٌ لَتُحَزَّنَّ فِيهِ الرِّقَابُ،فَأَسْلَمَتْ بَنُو عَبْدِ الْأَشْهَلِ عِنْدَ إِسْلَامِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَدُعَائِهِ إِلَّا مَنْ لَمْ يُذْكَرْ،فَكَانَتْ أَوَّلَ دُورٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَتْ بِأَسْرِهِمْ،ثُمَّ إِنَّ بَنِي النَّجَّارِ أَخْرَجُوا مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ وَاشْتَدُّوا عَلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ فَانْتَقَلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَلَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ يَدْعُو وَيَهْدِي اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ حَتَّى قَلَّ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا أَسْلَمَ فِيهَا نَاسٌ لَا مَحَالَةَ،وَأَسْلَمَ أَشْرَافُهُمْ وَأَسْلَمَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ وَكُسِرَتْ أَصْنَامُهُمْ،وَكَانَتِ الْمُسْلِمُونَ أَعَزَّ أَهْلِهَا وَصَلُحَ أَمْرُهُمْ،وَرَجَعَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺوَكَانَ يُدْعَى الْمُقْرِئَ،ثُمَّ حَجَّ الْعَامَ الْمُقْبِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنْ ذَوِي أَسْنَانِهِمْ وَأَشْرَافِهِمْ وَثَلَاثُونَ شَابًّا،وَأَصْغَرُهُمْ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرٍو وَأَبُو مَسْعُودٍ وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ،وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،فَلَمَّا حَدَّثَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺبِالَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنَ

النُّبُوَّة وَالْكَرَامَة وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَى أَنْ يُبَايِعُوهُ وَيَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْــهُ أَنْفُسَــهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ أَجَابُوا وَصَدَّقُوا وَقَالُوا:اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ،قَالَ:" أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَنْ تَعْبُدُوهُ،وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُــونَ مِنْــهُ أَنْفُسَــكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ"فَلَمَّا طَابَتْ أَنْفُسُهُمْ بِذَلِكَ الشَّرْطِ اشْتَرَطَ لَهُ الْعَبَّاسُ وَأَخَذَ عَلَــيْهِمُ الْمَوَاثِيــقَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺوَعَظَّمَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺقَالَ:وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَوْمَ الْعَقَبَةِ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانِ وَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ حِبَالًا،وَالْحِبَــالُ الْحِلْفُ وَالْمَوَاثِيقُ،فَلَعَلَّنَا نَقْطَعُهَا ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى قَوْمِكَ وَقَدْ قَطَعْنَا الْحِبَالَ وَحَارَبْنَــا النَّــاسَ فِيكَ،فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺمِنْ قَوْلِهِ وَقَالَ:" الدَّمَ الدَّمَ،وَالْهَدْمَ وَالْهَدْمَ"فَلَمَّا رَضِــيَ أَبُــو الْهَيْثَمِ بِمَا رَجَعَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺمِنْ قَوْلِهِ أَقْبَلَ عَلَى قَوْمِهِ فَقَالَ:يَا قَوْمِ،هَذَا رَسُولُ اللَّــهِ حَقًّا،أَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ،وَإِنَّهُ الْيَوْمَ فِــي حَــرَمِ اللَّــهِ وَأَمْنِــهِ بَــيْنَ ظَهْــرَيْ قَوْمِــهِ وَعَشِيرَتِهِ،فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ تُخْرِجُوهُ تَرْمِكُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ،فَإِنْ كَانَــتْ طَابَــتْ أَنْفُسُكُمْ بِالْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَذَهَابِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ فَادْعُوهُ إِلَى أَرْضِكُمْ،فَإِنَّهُ رَسُــولُ اللَّهِ حَقًّا،وَإِنْ خِفْتُمْ خِذْلَانَهُ فَمِنَ الْآنَ،فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ:قَبِلْنَا عَنِ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِ اللَّــهِ،فَخَلِّ بَيْنَنَا يَا أَبَا الْهَيْثَمِ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ فَلْنُبَايِعْهُ فَقَالَ أَبُو الْهَيْثَمِ:فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُبَــايِعُ،ثُمَّ تَتَــابَعُوا كُلُّهُمْ،وَصَاحَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ هَذِهِ بَنُو الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ تَحَــالَفُ عَلَى قِتَالِكُمْ،فَفَزِعُوا عِنْدَ ذَلِكَ وَرَاعَهُمْ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" لَا يَرُعْكُمْ هَذَا الصَّوْتُ،فَإِنَّمَا هُوَ عَدُوُّ اللَّهِ إِبْلِيسُ،لَيْسَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ مِمَّنْ تَخَافُونَ"وَقَامَ رَسُولُ اللَّــهِ ﷺفَصَرَخَ بِالشَّيْطَانِ فَقَالَ:" يَا ابْنَ أَزَبَّ،أَهَذَا عَمَلُكَ ؟ سَأَفْرُغُ لَكَ"وَبَلَغَ قُرَيْشًا الْحَــدِيثُ فَأَقْبَلُوا حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَتَوَطَّئُونَ عَلَى رَحْلِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺوَمَا يُبْصِــرُونَهُمْ فَرَجَعَــتْ قُرَيْشٌ،وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ أَخُو بَنِي سَالِمٍ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ شِــئْتَ وَالَّــذِي أَكْرَمَكَ مِلْنَا عَلَى أَهْلِ مِنًى بِأَسْيَافِنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ وَكَانَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ اتَّفَقُوا عَلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ وَأَوْفَوْا بِالشَّرْطِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِنَصْرِ رَسُولِ اللَّــهِ ﷺثُمَّ صَدَرُوا رَابِحِينَ رَاشِدِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ وَجَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺوَلِلْمُــؤْمِنِينَ مَلْجَأً وَأَنْصَارًا وَدَارَ هِجْرَةٍ "

وعَنْ مُحَمَّد بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ:لَمَّا قَدمَ الْأَنْصَارُ الْمَدينَةَ بَعْدَمَا بَايَعُوا رَسُولَ اللَّــه ﷺظَهَــرَ الْإِسْلَامُ بهَا وَفي قُومهمْ بَقَايَا عَلَى دينهمْ منْ أَهْلِ الشِّرْك منْهُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ وَكَـــانَ ابْنُهُ مُعَاذٌ قَدْ شَهِدَ الْعَقَبَةَ وَبَايَعَ رَسُولَ اللَّه ﷺبهَا وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُـــوحِ سَـــيِّدًا مـــنْ سَادَات بَني سَلَمَةَ وَشَرِيفًا منْ أَشْرَافهمْ وَكَانَ قَد اتَّخَذَ في دَاره صَنَمًا منْ خَشَب يُقَالُ لَهُ مَنَاةُ كَمَا كَانَت الْأَشْرَافُ يَصْنَعُونَ يَتَّخذُهُ إِلَهًا وَيُطَهِّرُهُ فَلَمَّا أَسْلَمَ فتْيَانُ بَني سَلَمَةَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَابْنُهُ مُعَاذُ بْنُ عَمْرو في فتْيَان منْهُمْ ممَّنْ أَسْلَمَ وَشَهِدَ الْعَقَبَةَ كَانُوا يَـــدْخُلُونَ عَلَـــى صَنَمِ عَمْرٍو ذَلكَ فَيَحْملُونَهُ فَيَطْرَحُونَهُ في بَعْضِ حُفَرِ بَني سَلَمَةَ وَفيهَا عَذرَةُ النَّاسِ مُنَكَّسًا عَلَى رَأْسه فَإِذَا أَصْبَحَ عَمْرٌو قَالَ:وَيْلَكُمْ مَنْ عَدَا عَلَى إِلَهنَا في هَذه اللَّيْلَة ؟ قَالَ:ثُمَّ يَغْـــدُو يَلْتَمسُهُ حَتَّى إِذَا وَجَدَهُ غَسَلَهُ وَطَهَّرَهُ وَطَيَّبَهُ ثُمَّ قَالَ:وَايْمُ اللَّه لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ مَنْ صَنَعَ بِـــكَ هَذَا لَأُخْزِيَنَّهُ فَإِذَا أَمْسَى عَمْرٌو وَنَامَ عَدَوَا عَلَيْه فَفَعَلُوا به مثْلَ ذَلكَ فَلَمَّـــا أَكْثَـــرُوا عَلَيْـــه اسْتَخْرَجَهُ منْ حَيْثُ أَلْقَوْهُ يَوْمًا فَغَسَلَهُ وَطَهَّرَهُ وَطَيَّبَهُ ثُمَّ جَاءَ بسَيْفه فَعَلَّقَهُ عَلَيْه ثُمَّ قَالَ:إِنِّي وَاللَّه مَا أَعْلَمُ مَنْ يَفْعَلُ بكَ مَا نَرَى فَإِنْ كَانَ فيكَ خَيْرٌ فَامْتَنعْ بهَذَا السَّيْف مَعَـــكَ فَلَمَّـــا أَمْسَى وَنَامَ عَدَوَا عَلَيْه فَأَخَذُوهُ وَالسَّيْفُ في عُنُقه ثُمَّ أَخَذُوا كَلْبًا مَيِّتًا فَقَرَنُوهُ مَعَهُ بحَبْلٍ ثُمَّ أَلْقَوْهُ في بئْرٍ منْ آبَارِ بَني سَلَمَةَ فيهَا عَذرَةٌ منْ عُذَرِ النَّاسِ وَغَدَا عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ فَلَـــمْ يَجدْهُ في مَكَانَهُ الَّذي كَانَ فيه فَخَرَجَ في طَلَبه حَتَّى وَجَدَهُ في تلْكَ الْبئْرِ مَقْرُونًا بكَلْـــبٍ مَيِّت فَلَمَّا رَآهُ وَأَبْصَرَ شَأْنَهُ وَكَلَّمَهُ مَنْ أَسْلَمَ منْ قَوْمه أَسْلَمَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ وَحَسُـــنَ إِسْـــلَامُهُ وَزَادَ منْجَابٌ عَنْ زيَاد في حَديثه عَنْ مُحَمَّد بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ:وَحَدَّثَني إِسْحَاقُ بْنُ يَسَـــارٍ عَنْ رَجُلٍ منْ بَني سَلَمَةَ قَالَ:لَمَّا أَسْلَمَ فتْيَانُ بَني سَلَمَةَ أَسْلَمَت امْرَأَةُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُـــوحِ وَوَلَدُهُ قَالَ لامْرَأَته:لَا تَدْعي أَحَدًا منْ عيَالك في أَهْلكَ حَتَّى نَنْظُـــرَ مَـــا يَصْـــنَعُ هَؤُلَـــاءِ قَالَتْ:أَفْعَلُ وَلَكنْ هَلْ لَكَ أَنْ تَسْمَعَ منَ ابْنكَ فُلَان مَا رَوَى عَنْهُ ؟ قَالَ:فَلَعَلَّهُ صَبَأَ قَالَتْ:لَا وَلَكنْ كَانَ مَعَ الْقَوْمِ فَأَرْسَلَ إِلَيْه فَقَالَ:أَخْبرْني مَا سَمعْتَ منَ كَلَامِ هَـــذَا الرَّجُـــلِ فَقَـــرَأَ عَلَيْه:الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمينَ إِلَى قَوْله تَعَالَى:الصِّرَاطَ الْمُسْتَقيمَ فَقَالَ:مَـــا أَحْسَـــنَ هَـــذَا وَأَجْمَلَهُ وَكُلُّ كَلَامه مثْلُ هَذَا ؟ فَقَالَ:يَا أَبَتَاهُ وَأَحْسَنُ منْ هَذَا قَالَ:فَهَلْ لَكَ أَنْ تُبَايعَهُ ؟ قَدْ صَنَعَ ذَلكَ عَامَّةُ قَوْمكَ ؟ قَالَ:لَسْتُ فَاعلًا حَتَّى أُؤَامرَ مَنَاةَ فَأَنْظُرَ مَا يَقُولُ قَالَ:وَكَانُوا إِذَا

أَرَادُوا كَلَامَ مَنَاةَ جَاءَتْ عَجُوزٌ فَقَامَتْ خَلْفَهُ فَأَجَابَتْ عَنْهُ قَالَ:فَأَتَاهُ وَغُيِّبَت الْعَجُوزُ وَأَقَامَ عِنْدَهُ فَتَشَكَّرَ لَهُ وَقَالَ:يَا مَنَاةُ تَشْعُرُ أَنَّهُ قَدْ سِيلَ بِكَ وَأَنْتَ غَافِلٌ ؟ جَاءَ رَجُلٌ يَنْهَانَا عَنْ عِبَادَتِكَ وَيَأْمُرُنَا بِتَعْطِيلِكَ فَكَرِهْتُ أَنْ أُبَايِعَهُ حَتَّى أُؤَامِرَكَ،وَخَاطَبَهُ طَوِيلًا فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ،فَقَالَ:أَظُنُّكَ قَدْ غَضِبْتَ وَلَمْ أَصْنَعْ بَعْدُ شَيْئًا،فَقَامَ إِلَيْهِ فَكَسَرَهُ[121] .

هكذا..«ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل»..لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين انتهى أمرها،وأمضي عقدها،و لم يعد إلى مرد من سبيل:«لا نقيل ولا نستقيل» فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار والجنة:ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من اللّه؟ أليس اللّه هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن.

وعدا قديما في كل كتبه:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ»

«وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟». أجل! ومن أوفى بعهده من اللّه؟

إن الجهاد في سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن..كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين اللّه..إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ»..«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً»..

إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه.ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق!..بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق..إن دين اللّه لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية للّه وحده.ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق..بل لا بد أن يقطع عليه الطريق..ولا بد لدين اللّه أن ينطلق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» كله.ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقا!..وما دام في «الأرض» كفر.وما دام في «الأرض» باطل.وما دامت في «الأرض» عبودية لغير اللّه تذل كرامة «الإنسان» فالجهاد في سبيل اللّه ماض،والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء.وإلا فليس

[121] - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيِّ(222) حسن مرسل

بالإيمان،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ،وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ،مَاتَ عَلَى شُعْبَةِ نِفَاقٍ[122].

«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم للّه،وأخذ الجنة عوضا وثمنا،كما وعد اللّه..وما الذي فات؟

ما الذي فات المؤمن الذي يسلم للّه نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ واللّه ما فاته شيء.فالنفس إلى موت،والمال إلى فوت.سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل اللّه أم في سبيل سواه! والجنة كسب.كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك! ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش للّه.ينتصر – إذا انتصر – لإعلاء كلمته،وتقرير دينه،وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه.ويستشهد – إذا استشهد – في سبيله،ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة.

ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة – أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقلة الأرض،والإيمان ينتصر فيه على الألم،والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب.كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة وانتصار الإيمان فيه على الألم،وانتصار العقيدة فيه على الحياة..فإذا أضيفت إلى ذلك كله..الجنة..فهو بيع يدعو إلى الاستبشار وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال:«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى في هذه الآية:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ»..

فوعد اللّه للمجاهدين في سبيله في القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور..وهو لا يدع مجالا للشك في أصالة عنصر الجهاد في سبيل اللّه في طبيعة هذا المنهج الرباني باعتباره الوسيلة المكافئة للواقع البشري – لا في زمان بعينه ولا في مكان بعينه – ما دام أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل في تجمع عضوي حركي،يحمي

---

[122] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٣ / ٣٨٢)(٨٨٦٥) ٨٨٥٢– وصحيح مسلم– المكنز –(٥٠٤٠)

نفسه بالقوة المادية ويقاوم دين اللّه وكل تجمع إسلامي على أساسه بالقوة المادية كـــذلك ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية اللّه وحـــده للعبـــاد،وتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد.كما يحول دونهم ودون الانضمام العضـــوي إلى التجمع الإسلامي المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته للّه وحده دون العباد..ومن ثم يتحتم على الإسلام في انطلاقه في «الأرض» لتحقيق إعلانه العام بتحرير «الإنســـان» أن يصطدم بالقوة المادية التي تحمي التجمعات الجاهلية والتي تحاول بدورها – في حتميـــة لا فكاك منها – أن تسحق حركة البعث الإسلامي وتخفت إعلانه التحريري،لاستبقاء العباد في رق العبودية للعباد! فأما وعد اللّه للمجاهدين في التوراة والإنجيل.فهو الذي يحتاج إلى شيء من البيان..

إن التوراة والإنجيل اللذين في أيدي اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما اللّه على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام! وحتى اليهـــود والنصـــارى أنفسهم لا يجادلون في أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين و لم يبق إلا ما وعته ذاكـــرة بعد ذاكرة..وهو قليل..أضيف إليه الكثير! ومع ذلك فما تزال في كتب العهـــد القـــديم إشارات إلى الجهاد،والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين،لنصر إلههـــم وديانتـــه وعبادته! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم للّه – سبحانه – وتصورهم للجهاد في سبيله.فأما في الأناجيل التي بين أيدي النصارى اليـــوم فـــلا ذكـــر ولا إشـــارة إلى جهاد..ولكننا في حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية فهـــذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التي لا أصل لها – بشهادة البـــاحثين النصـــارى أنفسهم! – وقبل ذلك بشهادة اللّه سبحانه كما وردت في كتابه المحفوظ الذي لا يأتيـــه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

واللّه سبحانه يقول في كتابه المحفوظ:إن وعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل اللّـــه فيقتلـــون ويقتلون ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن..فهذا إذن هو القول الفصل الذي ليس بعـــده لقائل مقال!

إن الجهاد في سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.كل مؤمن على الإطلاق.منذ كانت الرسل،ومنذ كان دين اللّه..[123]

وهو الذي جعل السحرة بعد إيمانهم لا يهابون الموت ولا بطش فرعون وتنكيله بهم،قال تعالى:{ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) } [طه:٧٠ - ٧٦]

إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله.وتصادف «الزر» الصغير فينبعث النور ويشرق الظلام.إنها لمسة الإيمان للقلب البشري تحوله في لحظة من الكفر إلى الإيمان.

ولكن أنى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف؟ أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا،ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم،نسوا أن اللّه هو مقلب القلوب وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان:«قالَ:آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ؟ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ،فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ،وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى».

«آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ»..قولة الطاغية الذي لا يدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون - وقد لمس الإيمان قلوبهم - أن يدفعوه عنها،والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء.« إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ»..فذلك سر الاستسلام في نظره،لا أنه

[123] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٣ / ١٧١٦)

الإيمان الذي دب في قلوبهم من حيث لا يحتسبون.ولا أنها يــد الــرحمن تكشــف عــن بصائرهم غشاوة الضلال.

ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة ويســلطونه علــى الجســوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح:«فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْــدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُــمْ مِــنْ خِلافٍ،وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ».

ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة.قوة الوحوش في الغابة.القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال،ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب:«وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقــى »! ولكنه كان قد فات الأوان.كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصــغيرة بمصــدرها الهائل.فإذا هي قوية قويمة.وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة.وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة.وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل.ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه:

«قالُوا:لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا،فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ.إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا.إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ،وَاللَّهُ خَيْــرٌ وَأَبْقى ».

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القربى منــه مغنمــا يتسابق إليه المتسابقون.

فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة،وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه:« قالُوا:لَــنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا...» فهي علينا أعز وأغلى وهو جل شــأنه أكبر وأعلى.«فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ» ودونك وما تملكه لنا في الأرض.«إِنَّما تَقْضِي هــذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا».فسلطانك مقيد بها،ومالك من سلطان علينا في غيرها.وما أقصــر الحيــاة الدنيا،وما أهون الحياة الدنيا.وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشــاه قلــب يتصــل باللّه،ويأمل في الحياة الخالدة أبدا.«إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِــنَ السِّحْرِ» مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصــيانا فلعــل بإيماننــا بربنــا يغفــر لنــا

خطايانا.«وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى"خير قسمة وجوارا،وأبقى مغنما وجزاء.إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى...

وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلي:«إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى.وَمَنْ يَأْتِه مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى.جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى».

فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى.فها هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرما هي أشد عذابا وأدوم «فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى » فلا هو ميت فيستريح،ولا هو حي فيتمتع.إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة..وفي الجانب الآخر الدرجات العلى..جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار «وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى» وتطهر من الآثام.

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر،وواجهته بكلمة الإيمان القوية.وباستعلاء الإيمان الواثق.

وبتحذير الإيمان الناصع.وبرجاء الإيمان العميق.

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلانا لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض،وعلى الطمع،في المثوبة والخوف من السلطان.وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان.

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد آخر وحلقة من القصة جديدة.

إنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود،بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة.فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب،والتهديد والوعيد.فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال،والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود.والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول.فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق

في الباطن..إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية.فأما إذا ظل الإيمان مظهرا لم يتجسم في القلب،والحق شعارا لا ينبع من الضمير،فإن الطغيان والباطل قد يغلبان،لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان..[١٢٤]

وهو الذي دفع صاحب يس للصدع بالحق والشهادة في سبيل الله،قال تعالى:{ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) }[يس:٢٠ - ٢٧]

إن هذه المنهجية الفريدة مع صدق الدعوة وإخلاص التوجه،والحرص على الهداية،وظهور الشجاعة،وترتيب الأفكار،وقوة المنطق ترجع إلى تمكن الإيمان الحقيقي في قلب ذلك الرجل الرباني،كما أن المرسلين الذين استطاعوا أن يضموا إلى موكب الإيمان وقافلة الدعوة مثل هذا الرجل المخلص لَدليل على نصر الله لهم وتمكين دعوتهم وظهور حجتهم.إن دعوة الله يستجيب لها من اتصف بصفة الرجولة،وهناك فرق بين الرجولة والذكورة،فإن الذكورة تقابل الأنوثة،فالزوجان هما الذكر والأنثى.

والذكورة صفة جسدية بدنية ليس إلا؛ لكنّ الرجولة تشير إلى الشدة والقوة والتحمُّل والشجاعة والثبات،فهي تشير إلى صفات نفسية،ومزايا معنوية،وفضائل أخلاقية.

ولعله لأجل هذا وردت صفة الرجولة في مقام مدح وثناء وإشارة،قال تعالى:{وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ...} [القصص:٢٠].

وقال تعالى:{وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [يس:٢٠].

وقال تعالى:{وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ} [غافر:٢٨].

---

[١٢٤] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢٣٤٢)

وقال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} [الأحزاب:٢٣].

وقال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ - رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ} [النور:٣٦،٣٧].

وقال تعالى: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [التوبة:١٠٨].

إن خطوة ذلك الرجل المؤمن تعتبر موقفًا إيمانيًا عظيمًا،وتدل على أن الحياة فعلاً مواقف،وأن الرجال بمواقفهم لا بأعمارهم،لقد آمن في وقت المحنة والشدة والابتلاء،واتَّبع المرسلين وهم مستضعفون،وتحدى بذلك القوة المادية الغاشمة،وأعلن عن إيمانه وطلب أن يسمعوه،مع أنه يرى الخطر أمامه،ويتوقع أن يناله الأذى والمكروه،وقد يؤدي موقفه إلى إزهاق روحه،ومع ذلك آمن وأعلن إيمانه،واستعد لتحمل نتيجة موقفه.[١٢٥]

إن الذين يسعون لتمكين شرع الله في دنيا الناس عليهم أن يتصفوا بصفات الرجولة ويحرصوا على ضم من تظهر فيهم هذه الصفات الجميلة إلى صفوفهم.

إن ذلك الرجل الرباني أصبح نبراسًا ومعلمًا بارزًا على طريق الدعوة،يقتدي به الدعاة في انحيازهم إلى جانب الحق والتزامه والدعوة إليه،ولسان حال أحدهم يقول للآخرين: {إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ}.

إن انتصار منهج الله والتمكين له وتعرف الناس عليه،يحتاج إلى رجال يرفعون أصواتهم حتى يسمع الآخرون،إن جمال الحياة ورونقها البهي وحلاوتها النضرة تكون بنصرة الحق ودك الباطل في حصونه.

وإن المواقف الإيمانية ابتغاء مرضاة الله رفعة للداعية في الدنيا والآخرة.

إن أصحاب المواقف الإيمانية هم دائمًا الرابحون،فعندما يدفع الإنسان المؤمن حياته وعمره ودنياه،وهو هبة ومنحة وعطية وفضل من الله مقابل الجنة والنعيم الدائم والخلود الأبدي يكون ربح ربحًا وفيرًا وفاز فوزًا عظيمًا.

---

[١٢٥] - انظر: مع قصص السابقين للخالدى (٢٥٦/٧).

إن أهل الإيمان يكظمون غيظهم،ويحلمون على الجهلة والصبر على دعوة الأشرار وأهـــل البغي والسعي في تخليصهم،ويبتعدون عن الشماتة بالأعداء،ألا ترى كيف تمـــنى الرجـــل الرباني الخير لقتلته،والباغين له الغوائل،وهم كفرة عبده أصنام.[١٢٦]

إن دخول الجنة مع الشهادة في سبيل الله نوع من التمكين،واستئصال أهل الشرك الـــذين عاندوا الدعاة نوع من النصر لأولياء الله.[١٢٧]

وهو الذي دفع أصحاب الأخدود للثبات حتى النهاية،قال تعالى:{ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢) [البروج:١ - ٢٢]}

وفي صحيح مسلم عَنْ صُهَيْبٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَـــبْلَكُمْ لَـــهُ سَاحِرٌ،فَلَمَّا كَبِرَ،قَالَ لِلْمَلِكِ:إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ،فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّـــحْرَ،فَبَعَثَ لَـــهُ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ،فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ،فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ وَأَعْجَبَـــهُ،فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ،وَإِذَا رَجَعَ مِنْ عِنْدِ السَّاحِرِ قَعَدَ إِلَى الرَّاهِبِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ،فَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ،فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ،فَقَالَ لَهُ:إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ:حَبَسَـــنِي أَهْلِـــي،وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ:حَبَسَنِي السَّاحِرُ.فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ

---

[١٢٦] - - المصدر السابق، (٧/٢٦٠).

[١٢٧] - انظر فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم - (١ / ١٩)

النَّاسَ،فَقَالَ:الْيَوْمَ أَعْلَمُ:الرَّاهِبُ أَفْضَلُ أَمِ السَّاحِرُ ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا ثُمَّ قَالَ:اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ،فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا،وَمَضَى النَّاسُ،فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ،فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ:أَيْ بُنَيَّ،أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي،وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى،فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ.فَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ،وَيُدَاوِي سَائِرَ الأَدْوَاءِ.فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ،كَانَ قَدْ عَمِيَ،فَأَتَى الْغُلاَمَ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ،فَقَالَ:مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي،قَالَ:إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ،إِنْ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ،فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ.فَأَتَى الْمَلِكَ يَمْشِي يَجْلِسُ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ،فَقَالَ الْمَلِكُ:فُلاَنُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟ قَالَ:رَبِّي،قَالَ:وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ:رَبِّي وَرَبُّكَ وَاحِدٌ.فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلاَمِ.فَجِيءَ بِالْغُلاَمِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:أَيْ بُنَيَّ،قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ ؟ قَالَ:إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا،إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ.فَأَخَذَهُ،فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ.فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ،فَقِيلَ لَهُ:ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبَى،فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ،فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ،فَشُقَّ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ.ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ،فَقِيلَ:ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبَى،فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ،فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ.ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقِيلَ لَهُ:ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى،فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا،فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ،فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ،فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ،وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ.فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ،فَقَالَ:اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ،فَسَقَطُوا،وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.فَدَفَعَهُ إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:اذْهَبُوا بِهِ،فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ،فَوَسِّطُوا بِهِ الْبَحْرَ،فَلَجِّجُوا بِهِ،فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ،وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ،فَذَهَبُوا بِهِ،فَقَالَ:اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ،وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ قَالَ:كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.،فَقَالَ لِلْمَلِكِ:وَإِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ،قَالَ:وَمَا هُوَ ؟ قَالَ:تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ،ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِكَ،ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ،ثُمَّ قُلْ:بِسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلاَمِ،ثُمَّ ارْمِنِي،فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي.فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،ثُمَّ صَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ،ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ،ثُمَّ

وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ قَوْسِهِ،ثُمَّ،قَالَ:بِسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلاَمِ،ثُمَّ رَمَاهُ،فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ،فَوَضَعَ يَدَهُ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ،فَقَالَ النَّاسُ:آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ،آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ،ثَلاَثًا.فَأُتِيَ الْمَلِكُ،فَقِيلَ لَهُ:أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ،قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ،قَدْ آمَنَ النَّاسُ.فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ،وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ:مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ،فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا،فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا،فَقَالَ لَهَا الْغُلاَمُ:يَا أُمَّهِ اصْبِرِي،فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ."[١٢٨].

إن قصة أصحاب الأخدود – كما وردت في سورة البروج – حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل.فالقرآن بإيرادها في هذا الأسلوب مع مقدمتها والتعقيبات عليها،والتقريرات والتوجيهات المصاحبة لها..كان يخط بها خطوطاً عميقة في تصور طبيعة الدعوة إلى الله،ودور البشر فيها،واحتمالاتها المتوقعة في مجالها الواسع – وهو أوسع رقعة من الأرض،وأبعد مدى من الحياة الدنيا – وكان يرسم للمؤمنين معالم الطريق،ويعدُّ نفوسهم لتلقي أي من هذه الاحتمالات التي يجري بها القدر المرسوم،وفق الحكمة المكنونة في غيب الله المستور.

إنها قصة فئة آمنت بربها،واستعلنت حقيقة إيمانها.ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبارين بطاشين مستهترين بحق"الإنسان"في حرية الاعتقاد بالحق والإيمان بالله العزيز الحميد،وبكرامة الإنسان عند الله عن أن يكون لعبة يتسلى بها الطغاة بآلام تعذيبها،ويتلهون بمنظرها في أثناء التعذيب بالحريق !

وقد ارتفع الإيمان بهذه القلوب على الفتنة،وانتصرت فيها العقيدة على الحياة،فلم ترضخ لتهديد الجبارين الطغاة،و لم تفتن عن دينها،وهي تحرق بالنار حتى تموت.

---

[١٢٨] – صحيح مسلم– المكنز – (٧٧٠٣) وصحيح ابن حبان – (٣ / ١٥٣) (٨٧٣) واللفظ له وهو من إضافتي
المئشار : المنشار –الأخدود : الشق العظيم فى الأرض –القرقور : السفينة قيل الصغيرة وقيل الكبيرة –تقاعست : توقفت ولزمت موضعها وامتنعت عن التقدم –الكنانة : وعاء السهام

لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة،فلم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة،وانطلقت من قيود الأرض وجواذبها جميعاً،وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها.

وفي مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيِّرة الرفيقة الكريمة كانت هناك جبلات جاحدة شريرة مجرمة لئيمة.وجلس أصحاب هذه الجبلات على النار.يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون.جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها النار،والأناسي الكرام يتحولون وقوداً وتراباً.وكلما ألقي فتى أو فتاة،صبية أو عجوز،طفل أو شيخ،من المؤمنين الخيرين الكرام في النار،ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة،وعربد السعار المجنون بالدماء والأشلاء !

هذا هو الحادث البشع الذي انتكست فيه جبلات الطغاة وارتكست في هذه الحمأة،فراحت تلتذ مشهد التعذيب المروع العنيف،بهذه الخساسة التي لم يرتكس فيها وحش قط،فالوحش يفترس ليقتات،لا ليلتذ آلام الفريسة في لؤم وخسة !

وهو ذاته الحادث الذي ارتفعت فيه أرواح المؤمنين وتحررت وانطلقت إلى ذلك الأوج السامي الرفيع،الذي تشرف به البشرية في جميع الأجيال والعصور.

في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان.وإن هذا الإيمان الذي بلغ الذروة العالية،في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية..لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان !

ولا تذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث،كما لا تذكر النصوص القرآنية،أن الله قد أخذ أولئك الطغاة في الأرض بجريمتهم البشعة،كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط.أو كما أخذ فرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر.

ففي حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة !

أفهكذا ينتهي الأمر،وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت إلى ذروة الإيمان ؟ تذهب مع آلامها الفاجعة في الأخدود ؟ بينما تذهب الفئة الباغية،التي ارتكست إلى هذه الحمأة،ناجية ؟

حساب الأرض يحيك في الصدر شيء أمام هذه الخاتمة الأسيفة !

ولكن القرآن يعلّم المؤمنين شيئاً آخر،ويكشف لهم عن حقيقة أخرى،ويبصرهم بطبيعة القيم التي يزنون بها،وبمجال المعركة التي يخوضونها.

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام،ومن متاع وحرمان..ليست هي القيمة الكبرى في الميزان..وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة.والنصر ليس مقصوراً على الغلبة الظاهرة.فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة.

إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة،وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان.وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة،وانتصار العقيدة على الألم،وانتصار الإيمان على الفتنة..وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم،وانتصرت على جواذب الأرض والحياة،وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار..وهذا هو الانتصار..

إن الناس جميعاً يموتون،وتختلف الأسباب.ولكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار،ولا يرتفعون هذا الارتفاع،ولا يتحررون هذا التحرر،ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق..إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت،وتنفرد دون الناس في المجد،المجد في الملأ الأعلى،وفي دنيا الناس أيضاً.إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال !

لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم.ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير،معنى زهادة الحياة بلا عقيدة،وبشاعتها بلا حرية،وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ؟

إنه معنى كريم جداً،ومعنى كبير جداً،هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض،ربحوه وهم يجدون مس النار،فتحرق أجسادهم الفانية،وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار !

ثم إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحدها،وليس هو الحياة الدنيا وحدها.وشهود المعركة ليسوا هم الناس في جيل من الأجيال.إن الملأ الأعلى يشارك في أحداث الأرض ويشهدها ويشهد عليها،ويزنها بميزان غير ميزان الأرض في جيل من أجيالها،وغير ميزان الأرض في

أجيالها جميعاً.والملأ الأعلى يضم من الأرواح الكريمة أضعاف أضعاف ما تضم الأرض من الناس..وما من شك أن ثناء الملأ الأعلى وتكريمه أكبر وأرجح في أي ميزان من رأي أهل الأرض وتقديرهم على الإطلاق !

وبعد ذلك كله هناك الآخرة.وهي المجال الأصيل الذي يلحق به مجال الأرض،ولا ينفصل عنه،لا في الحقيقة الواقعة،ولا في حس المؤمن بهذه الحقيقة.فالمعركة إذن لم تنته،وخاتمتها الحقيقية لم تجيء بعد،والحكم عليها بالجزء الذي عرض منها على الأرض حكم غير صحيح،لأنه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد.

النظرة الأولى هي النظرة القصيرة المدى الضيقة المجال التي تعنّ للإنسان العجول.والنظرة الثانية الشاملة البعيدة المدى هي التي يروض القرآن المؤمنين عليها،لأنها تمثل الحقيقة التي يقوم عليها التصور الإيماني الصحيح.ومن ثم وعد الله للمؤمنين جزاء على الإيمان والطاعة،والصبر على الابتلاء،والانتصار على فتن الحياة..هو طمأنينة القلب:{ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }...[الرعد:٢٨].

وهو الرضوان والود من الرحمن:{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً } [مريم:٩٦].

وهو الذكر في الملأ الأعلى:عَنْ أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِىِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلاَئِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِى.فَيَقُولُونَ نَعَمْ.فَيَقُولُ قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ.فَيَقُولُونَ نَعَمْ.فَيَقُولُ مَاذَا قَالَ عَبْدِى فَيَقُولُونَ حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ.فَيَقُولُ اللَّهُ ابْنُوا لِعَبْدِى بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ ».[أخرجه الترمذي] [١٢٩].

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ النَّبِىُّ - ﷺ -"يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى،وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِى،فَإِنْ ذَكَرَنِى فِى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِى نَفْسِى،وَإِنْ ذَكَرَنِى فِى مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِى مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ،وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا،وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا،وَإِنْ أَتَانِى يَمْشِى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »..[أخرجه الشيخان] [١٣٠].

---

[١٢٩] -سنن الترمذى- المكنز - (١٠٣٧) قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. -الشفير : الطرف

[١٣٠] - صحيح البخارى- المكنز - (٧٤٠٥) وصحيح مسلم- المكنز - (٦٩٨١)

وهو اشتغال الملأ الأعلى بأمر المؤمنين في الأرض:{ الَّذينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بحَمْد رَبِّهِمْ وَيُؤْمنُونَ به وَيَسْتَغْفرُونَ للَّذينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعلْماً فَاغْفرْ للَّذينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ }[غافر:٧]

وهو الحياة عند الله للشهداء:{ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ،فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ،يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران:١٦٩ - ١٧١].

كما كان وعده المتكرر بأخذ المكذبين والطغاة والمجرمين في الآخرة والإملاء لهم في الأرض والإمهال إلى حين..وإن كان أحياناً قد أخذ بعضهم في الدنيا..ولكن التركيز كله على الآخرة في الجزء الأخير:{ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ،مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران:١٩٦ - ١٩٧].

{ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ،مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ }..[إبراهيم:٤٢ - ٤٣].

{ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ،يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ،خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ } [المعارج:٤٢ - ٤٤].

وهكذا اتصلت حياة الناس بحياة الملأ الأعلى،واتصلت الدنيا بالآخرة،ولم تعد الأرض وحدها هي مجال المعركة بين الخير والشر،والحق والباطل،والإيمان والطغيان.ولم تعد الحياة

هَذَا الْحَدِيث مِنْ أَحَادِيث الصِّفَات ، وَيَسْتَحِيل إِرَادَة ظَاهِره ، وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَام فِي أَحَادِيث الصِّفَات مَرَّات ، وَمَعْنَاهُ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِطَاعَتِي تَقَرَّبْت إِلَيْهِ بِرَحْمَتِي وَالتَّوْفِيق وَالْإِعَانَة ، وَإِنْ زَادَ زِدْت ، فَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي وَأَسْرَعَ فِي طَاعَتِي أَتَيْته هَرْوَلَة ، أَيْ صَبَبْت عَلَيْهِ الرَّحْمَة وَسَبَقْته بِهَا ، وَلَمْ أُحْوِجْه إِلَى الْمَشْي الْكَثِير فِي الْوُصُول إِلَى الْمَقْصُود ، وَالْمُرَاد أَنَّ جَزَاءَهُ يَكُون تَضْعِيفه عَلَى حَسَب تَقَرُّبه .شرح النووي على مسلم - (٩ / ٣٥)

الدنيا هي خاتمة المطاف،ولا موعد الفصل في هذا الصراع..كما أن الحياة وكل ما يتعلق بها من لذائد وآلام ومتاع وحرمان، لم تعد هي القيمة العليا في الميزان.

انفسح المجال في المكان،وانفسح المجال في الزمان،وانفسح المجال في القيم والموازين،واتسعت آفاق النفس المؤمنة،وكبرت اهتماماتها،فصغرت الأرض وما عليها،والحياة الدنيا وما يتعلق بها،وكبر المؤمن بمقدار ما رأى وما عرف من الآفاق والحيوات،وكانت قصة أصحاب الأخدود في القمة في إنشاء هذا التصور الإيماني الواسع الشامل الكبير الكريم.

هناك إشعاع آخر تطلقه قصة أصحاب الأخدود وسورة البروج حول طبيعة الدعوة إلى الله،وموقف الداعية أمام كل احتمال.

لقد شهد تاريخ الدعوة إلى الله نماذج منوعة من نهايات في الأرض مختلفة للدعوات..

شهد مصارع قوم نوح،وقوم هود،وقوم شعيب،وقوم لوط،ونجاة الفئة المؤمنة القليلة العدد،مجرد النجاة.ولم يذكر القرآن للناجين دوراً بعد ذلك في الأرض والحياة.وهذه النماذج تقرر أن الله سبحانه وتعالى يريد أحياناً أن يعجِّل للمكذبين الطغاة بقسط من العذاب في الدنيا،أما الجزاء الأوفى فهو مرصود لهم هناك.

وشهد تاريخ الدعوة مصرع فرعون وجنوده،ونجاة موسى وقومه،مع التمكين للقوم في الأرض فترة كانوا فيها أصلح ما كانوا في تاريخهم.وإن لم يرتقوا قط إلى الاستقامة الكاملة،وإلى إقامة دين الله في الأرض منهجاً للحياة شاملاً..وهذا نموذج غير النماذج الأولى.

وشهد تاريخ الدعوة كذلك مصرع المشركين الذين استعصوا على الهدى والإيمان بمحمد - ﷺ - وانتصار المؤمنين انتصاراً كاملاً،مع انتصار العقيدة في نفوسهم انتصاراً عجيباً.وتم للمرة الوحيدة في تاريخ البشرية أن أقيم منهج الله مهيمناً على الحياة في صورة لم تعرفها البشرية قط،من قبل ولا من بعد.

وشهد - كما رأينا - نموذج أصحاب الأخدود..وشهد نماذج أخرى أقل ظهوراً في سجل التاريخ الإيماني في القديم والحديث.وما يزال يشهد نماذج تتراوح بين هذه النهايات

التي حفظها على مدار القرون.و لم يكن بدّ من النموذج الذي يمثله حادث الأخدود،إلى جانب النماذج الأخرى.القريب منها والبعيد..

لم يكن بد من هذا النموذج الذي لا ينجو فيه المؤمنون،ولا يؤخذ فيه الكافرون ! ذلك ليستقر في حس المؤمنين – أصحاب دعوة الله – أنهم قد يدعون إلى نهاية كهذه النهاية في طريقهم إلى الله.وأن ليس لهم من الأمر شيء،إنما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله !

إن عليهم أن يؤدوا واجبهم،ثم يذهبوا،وواجبهم أن يختاروا الله،وأن يؤثروا العقيدة على الحياة،وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة وأن يصدقوا الله في العمل والنية.ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم،كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء.وينتهي بهم إلى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الإيمان،أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه.إنهم أجراء عند الله.أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا،عملوا وقبضوا الأجر المعلوم ! وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير،فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير !

وهم يقبضون الدفعة الأولى طمأنينة في القلب،ورفعة في الشعور،وجمالاً في التصور،وانطلاقاً من الأوهاق والجواذب،وتحرراً من الخوف والقلق،في كل حال من الأحوال.

وهم يقبضون الدفعة الثانية ثناء في الملأ الأعلى وذكراً وكرامة،وهم بعد في هذه الأرض الصغيرة.ثم هم يقبضون الدفعة الكبرى في الآخرة حساباً يسيراً ونعيماً كبيراً.

ومع كل دفعة ما هو أكبر منها جميعاً.رضوان الله،وانهم مختارون ليكونوا أداة لقدره وستاراً لقدرته،يفعل بهم في الأرض ما يشاء.وهكذا انتهت التربية القرآنية بالفئة المختارة من المسلمين في الصدر الأول إلى هذا التطور،الذي أطلقهم من أمر ذواتهم وشخوصهم.فأخرجوا أنفسهم من الأمر البتة،وعملوا أجراء عند صاحب الأمر ورضوا خيرة الله على أي وضع وعلى أي حال.وكانت التربية النبوية تتمشى مع التوجيهات القرآنية،وتوجه القلوب والأنظار إلى الجنة،وإلى الصبر على الدور المختار حتى يأذن الله بما يشاء في الدنيا والآخرة سواء.فعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ،قَالَ:" لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْبَطْحَاءِ

،فَأَخَذَ بِيَدِي ،فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ ،فَمَرَّ بِعَمَّارٍ ،وَأَبِي عَمَّارٍ ،وَأُمِّ عَمَّارٍ ،وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فَقَالَ:" صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ،فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ" [١٣١]..

وعَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِى ظِلِّ الْكَعْبَةِ،قُلْنَا لَهُ أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ « كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِى الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ،فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ،فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ،مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ،لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ،وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ ».[أخرجه البخاري][١٣٢].

إن لله حكمة وراء كل وضع ووراء كل حال،ومدبر هذا الكون كله،المطلع على أوله وآخره،المنسق لأحداثه وروابطه.هو الذي يعرف الحكمة المكونة في غيبه المستور،الحكمة التي تتفق مع مشيئته في خط السير الطويل.وفي بعض الأحيان يكشف لنا – بعد أجيال وقرون – عن حكمة حادث لم يكن معاصروه يدركون حكمته،ولعلهم كانوا يسألون لماذا ؟ لماذا يا رب يقع هذا ؟ وهذا السؤال نفسه هو الجهل الذي يتوقاه المؤمن.لأنه يعرف ابتداء أن هناك حكمة وراء كل قدر،ولأن سعة المجال في تصوره،وبعد المدى في الزمان والمكان والقيم والموازين تغنيه عن التفكير ابتداء في مثل هذا السؤال.فيسير مع دورة القدر في استسلام واطمئنان..لقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة،وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع – وهي تبذل كل شيء،وتحتمل كل شيء – إلى شيء في هذه الأرض،ولا تنظر إلا إلى الآخرة،ولا ترجو إلا رضوان الله،قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت بلا جزاء في هذه الأرض قريب،ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة،وغلبة الإسلام وظهور المسلمين ،بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بالمكذبين الأولين!

---

[١٣١] – معرفة الصحابة لأبي نعيم – (٥ / ٢٨١٣) (٦٦٦٢) صحيح لغيره

[١٣٢] – صحيح البخارى– المكنز – (٣٦١٢)

حتى إذا وجدت هذه القلوب،التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض إلا أن تعطي بلا مقابل – أي مقابل – وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للفصل بين الحق والباطل.حتى إذا وجدت هذه القلوب،وعلم الله منها صدق نيّتها على ما بايعت وعاهدت،آتاها النصر في الأرض،وائتمنها عليه.لا لنفسها،ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه،ولم تتطلع إلى شئ من الغنم في الأرض تعطاه.وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه.

وكل الآيات التي ذكر فيها النصر،وذكر فيها المغانم،وذكر فيها أخذ المشركين في الأرض بأيدي المؤمنين نزلت في المدينة..بعد ذلك..وبعد أن أصبحت هذه الأمور خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه.وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية،تقرره في صورة عملية محددة تراها الأجيال..فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام،إنما كان قدراً من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن !

وهذه اللفتة جديرة بأن يتدبرها الدعاة إلى الله،في كل أرض وفي كل جيل.فهي كفيلة بأن تريهم معالم الطريق واضحة بلا غبش،وأن تثبِّت خطى الذين يريدون أن يقطعوا الطريق إلى نهايته،كيفما كانت هذه النهاية.ثم يكون قدر الله بدعوته وبهم ما يكون،فلا يتلفتون في أثناء الطريق الدامي المفروش بالجماجم والأشلاء،وبالعرق والدماء،إلى نصر أو غلبة،أو فيصل بين الحق والباطل في هذه الأرض..ولكن إذا كان الله يريد أن يصنع بهم شيئاً من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريده الله..لا جزاء على الآلام والتضحيات..لا،فالأرض ليست دار جزاء..وإنما تحقيقاً لقدر الله في أمر دعوته ومنهجه على أيدي ناس من عباده يختارهم ليمضي بهم من الأمر ما يشاء،وحسبهم هذا الاختيار الكريم،الذي تهون إلى جانبه وتصغر هذه الحياة،وكل ما يقع في رحلة الأرض من سراء أو ضراء[١٣٣]

وهو الذي دفع المشطة لتثبت أمام جبروت فرعون ،وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ مَرَّ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ،فَقَالَ:يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الرِّيحُ ؟ قَالَ:هَذِهِ رِيحُ مَاشِطَةِ بِنْتِ فِرْعَوْنَ

[١٣٣] – معالم في الطريق بتحقيقي ص ١٥١ فما بعدها

وَأَوْلَادهَا،بَيْنَمَا هيَ تَمْشُطُ بنْتَ فرْعَوْنَ،إذْ سَقَطَ الْمدْرَى منْ يَدَهَا،فَقَالَتْ:بسْمِ الله،فَقَالَتْ بنْتُ فرْعَوْنَ:أَبي،قَالَتْ:بَلْ،رَبِّي وَرَبُّك اللَّهُ،قَالَتْ:وَإنَّ لَكَ رَبًّا غَيْرَ أَبي ؟ قَالَتْ:نَعَمْ،اللَّهُ،قَالَتْ:فَأُخْبرُ بذَلكَ أَبي،قَالَتْ:نَعَمْ،فَأَخْبَرَتْهُ،فَأَرْسَلَ إلَيْهَا فَقَالَ:أَلَكَ رَبٌّ غَيْري ؟ قَالَتْ:نَعَمْ،رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ،فَأَمَرَ بنُقْرَة منْ نُحَاس،فَأُحْميَتْ،فَقَالَتْ لَهُ:إنَّ لي إلَيْكَ حَاجَةً قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:فَجَعَلَ يُلْقي وَلَدَهَا وَاحدًا وَاحدًا،حَتَّى انْتَهَوْا إلَى وَلَد لَهَا رَضيع،فَقَالَ:يَا أُمَّتَاهُ اثْبُتي فَإنَّكَ عَلَى الْحَقِّ.[134]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺبُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عيرُ أَبي سُفْيَانَ،فَجَاءَ وَمَا في الْبَيْت أَحَدٌ غَيْري،وَغَيْرُ رَسُول الله ﷺ،قَالَ:لاَ أَدْري مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نسَائه،فَحَدَّثَهُ الْحَديثَ،قَالَ:فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺفَتَكَلَّمَ فَقَالَ:إنَّ لَنَا طَلبَةً،فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضرًا،فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا،فَجَعَلَ رجَالٌ يَسْتَأْذنُونَهُ في ظَهْرٍ لَهُمْ في عُلُوِّ الْمَدينَة قَالَ:لاَ إلاَّ مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضرًا فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺوَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْركينَ إلَى بَدْر،وَجَاءَ الْمُشْركُونَ،فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:لاَ يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدٌ منْكُمْ إلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُؤْذنُهُ.فَدَنَا الْمُشْركُونَ،فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:قُومُوا إلَى جَنَّة عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ.قَالَ:يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَاريُّ:يَا رَسُولَ الله،جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ؟ قَالَ:نَعَمْ فَقَالَ:بَخٍ بَخٍ.فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:مَا يَحْملُكَ عَلَى قَوْلكَ بَخٍ بَخٍ قَالَ:لاَ وَاللَّه يَا رَسُولَ الله،إلاَّ،رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ منْ أَهْلهَا.قَالَ:فَإنَّكَ منْ أَهْلهَا.قَالَ:فَأَخْرَجَ تَمَرَات منْ قَرَنه،فَجَعَلَ يَأْكُلُ منْهُنَّ،ثُمَّ قَالَ:لَئنْ أَنَا حَييتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتي هَذه،إنَّهَا لَحَيَاةٌ طَويلَةٌ.قَالَ:ثُمَّ رَمَى بمَا كَانَ مَعَهُ منَ التَّمْر،ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتلَ[135] .

وعَنْ أَنَس،أَنَّ أَنَسَ بْنَ النَّضْر تَغَيَّبَ عَنْ قتَال بَدْر،وَقَالَ:تَغَيَّبْتُ عَنْ أَوَّل مَشْهَد شَهدَهُ النَّبيُّ ﷺ،وَاللَّه لَئنْ أَرَاني اللَّهُ قتَالاً لَيَرَيَنَّ مَا أَصْنَعُ،فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُد انْهَزَمَ أَصْحَابُ النَّبيِّ ﷺ،وَأَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذ يَقُولُ:أَيْنَ أَيْنَ ؟ فَوَالَّذي نَفْسي بيَده،إنِّي لَأَجدُ ريحَ الْجَنَّة،دُونَ أُحُد،قَالَ:فَحَمَلَ،فَقَاتَلَ،فَقُتلَ فَقَالَ سَعْدٌ:وَاللَّه يَا رَسُولَ الله،مَا أَطَقْتُ،مَا أَطَاقَ،فَقَالَتْ

[134] - صحيح ابن حبان - (٧ / ١٦٣)(٢٩٠٣) صحيح

[135] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٤ / ٣٥٣)(١٢٣٩٨) ١٢٤٢٥- وصحيح مسلم- المكتر - (٥٠٢٤)

أُخْتُهُ:وَاللَّه مَا عَرَفْتُ أَخِي إِلاَّ بِحُسْنِ بَنَانه،فَوُجدَ فيه بِضْــعٌ وَثَمَــانُونَ جِرَاحَــةً ضَــرْبَةُ سَيْف،وَرَمْيَةُ سَهْم،وَطَعْنَةُ رُمْحٍ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا،مَا عَاهَــدُوا اللَّــهَ عَلَيْه،فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ،وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ،وَمَا بَــدَّلُوا تَبْــدِيلاً} [الأحــزاب]،قَــالَ حَمَّادٌ:وَقَرَأْتُ فِي مُصْحَف أَبِي،وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَّلَ تَبْدِيلاً.[١٣٦]

وعن إِيَاسَ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ،عَنْ أَبِيه،قَالَ:قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَة مَعَ رَسُول الله ﷺ،فَخَرَجْتُ أَنَا وَرَبَاحٌ غُلاَمُهُ أُنَدِّيه مَعَ الْ إِبِلِ،فَلَمَّا كَانَ بِغَلَسٍ أَغَارَ عَبْدُ الــرَّحْمَنِ بْــنُ عُيَيْنَةَ عَلَى إِبِلِ رَسُول الله ﷺوَقَتَلَ رَاعِيَهَا،وَخَرَجَ يَطْرُدُ بِهَا،وَهُوَ فِي أُنَاسٍ مَعَهُ،فَقُلْتُ:يَــا رَبَاحُ اقْعُدْ عَلَى هَذَا الْفَرَسِ،وَأَلْحِقْهُ بِطَلْحَةَ،وَأَخْبِرْ رَسُــولَ الله ﷺأَنْ قَــدْ أُغِــيرَ عَلَــى سَرْحِه،قَالَ:وَقُمْتُ عَلَى تَلٍّ،فَجَعَلْتُ وَجْهِي قِبَلَ الْمَدِينَة،ثُمَّ نَادَيْتُ ثَــلاَثَ مَــرَّات:يَــا صَبَاحَاهُ،ثُمَّ اتَّبَعْتُ الْقَوْمَ مَعِي سَيْفِي وَنَبْلِي،فَجَعَلْتُ أَرْمِيهِمْ وَأَرْتَجِزُهُمْ،وَذَلكَ حِينَ كَثُــرَ الشَّجَرُ،فَإِذَا رَجَعَ إِلَيَّ فَارِسٌ جَلَسْتُ لَهُ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ،ثُمَّ رَمَيْتُهُ،وَلاَ يُقْبِلُ عَلَيَّ فَارِسٌ،إِلاَّ عَقَرْتُ بِه،فَجَعَلْتُ أَرْمِيه وَأَقُولُ:

أَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ...وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ.

فَأَلْحَقُ بِرَجُلٍ فَأَرْمِيه،وَهُوَ عَلَى رَحْلــه،فَيَقَعُ سَــهْمِي فِــي الرَّحْــلِ حَتَّــى انْتَظَمْــتُ كَتِفَهُ،قُلْتُ:خُذْهَا.وَأَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ فَإِذَا كُنْتُ فِــي الشَّــجَرِ أَرْمِــيهِمْ بِالنَّبْلِ،وَإِذَا تَضَايَقَتِ الثَّنَايَا عَلَوْتُ الْجَبَلَ وَرَدَّيْتُهُمْ بِالْحِجَارَة،فَمَا زَالَ ذَلكَ شَأْنِي وَشَأْنَهُمْ أَتْبَعُهُمْ،وَأَرْتَجِزُ حَتَّى مَا خَلَقَ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ،إِلاَّ خَلَّفْتُهُ وَرَاءَ ظَهْرِي وَاسْتَنْقَذْتُهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ،ثُمَّ لَمْ أَزَلْ أَرْمِيهِمْ حَتَّى أَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثِينَ رُمْحًا وَأَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثِــينَ بُــرْدَةً يَسْتَخِفُّونَ بِهَا لاَ يُلْقُونَ مِنْ ذَلكَ شَيْئًا،إِلاَّ جَمَعْتُ عَلَيْه الْحِجَارَةَ وَجَمَعْتُهُ عَلَــى طَرِيــقِ رَسُول الله ﷺحَتَّى إِذَا امْتَدَّ الضُّحَى أَتَاهُمْ عُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ مُمِدًّا لَهُمْ وَهُمْ فِي ثَنِيَّــةٍ ضَيِّقَة،ثُمَّ عَلَوْتُ الْجَبَلَ ،قَالَ عُيَيْنَةَ:وَأَنَا فَوْقَهُمْ مَا هَذَا الَّذِي أَرَى ؟ قَالُوا:لَقِينَا مِــنْ هَــذَا الْبَرْحَ،مَا فَارَقَنَا مُنْذُ سَحَرَ حَتَّى الآنَ وَأَخَذَ كُلَّ شَيْءٍ مِــنْ أَيْدِينَا،وَجَعَلَــهُ وَرَاءَهُ،فَقَــالَ عُيَيْنَةُ:لَوْلاَ أَنَّ هَذَا يَرَى وَرَاءَهُ طَلَبًا لَقَدْ تَرَكَكُمْ،فَلْيَقُمْ إِلَيْه نَفَرٌ مِنْكُمْ،فَقَامَ إِلَيْه نَفَــرٌ مِــنْهُمْ

---

[١٣٦] - صحيح البخاري- المكتز - (٤٠٤٨) وصحيح ابن حبان - (١١ / ٩٢) (٤٧٧٢)

أَرْبَعَةٌ،فَصَعدُوا في الْجَبَلِ،فَلَمَّا أَسْمَعْتُهُمُ الصَّوْتَ،قُلْتُ لَهُمْ:أَتَعْرِفُوني،قَالُوا:مَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ:أَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ وَالَّذي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّد ﷺلاَ يَطْلُبُني رَجُلٌ منْكُمْ،فَيُدْرِكُني وَلاَ أَطْلُبُهُ فَيَفُوتُني،فَقَالَ رَجُلٌ منْهُمْ:أَظُنُّ،قالَ:فَمَا بَرِحْتُ مَقْعَدي حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى فَوَارِسِ رَسُولِ اللّٰه ﷺيَتَخَلَّلُونَ الشَّجَرَ،وَإِذَا أَوَّلُهُمُ الأَخْرَمُ الأَسَديُّ،وَعَلَى إِثْرِه أَبُو قَتَادَةَ،وَعَلَى إِثْرِه الْمقْدَادُ الْكنْديُّ،قَالَ:فَوَلَّى الْمُشْرِكُونَ مُدْبِرينَ،فَأَنْزِلُ منَ الْجَبَلِ،فَأَعْتَرِضُ الأَخْرَمَ،فَقُلْتُ:يَا أَخْرَمُ احْذَرْهُمْ،فَإِنِّي لاَ آمَنُ أَنْ يَقْتَطعُوكَ،فَاتَّئدْ حَتَّى يَلْحَقَ رَسُولُ اللّٰه ﷺوَأَصْحَابُهُ ،قَالَ:يَا سَلَمَةُ،إِنْ كُنْتَ تُؤْمنُ باللَّه وَالْيَوْمِ الآخرِ،وَتَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ،وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ،فَلاَ تَحُلْ بَيْني وَبَيْنَ الشَّهَادَة،قَالَ:فَخَلَّى عنَانَ فَرَسه،فَلَحقَ بعَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ عُيَيْنَةَ،وَيَعْطفُ عَلَيْه عَبْدُ الرَّحْمَنِ،فَاخْتَلَفَا في طَعْنَتَيْنِ،فَعَقَرَ الأَخْرَمُ بعَبْد الرَّحْمَنِ وَطَعَنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ،فَقَتَلَهُ وَتَحَوَّلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَى فَرَسِ الأَخْرَمِ،فَلَحقَ أَبُو قَتَادَةَ بعَبْد الرَّحْمَنِ،فَاخْتَلَفَا في طَعْنَتَيْنِ،فَعَقَرَ بأَبي قَتَادَةَ،وَقَتَلَهُ أَبُو قَتَادَةَ،وَتَحَوَّلَ أَبُو قَتَادَةَ عَلَى فَرَسِ الأَخْرَمِ،ثُمَّ إِنِّي خَرَجْتُ أَعْدُو في إِثْرِ الْقَوْمِ حَتَّى مَا أَرَى منْ غُبَارِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّٰه ﷺشَيْئًا وَيُعْرِضُونَ قَبْلَ غَيْبُوبَةِ الشَّمْسِ إِلَى شعْبٍ فيه مَاءٌ يُقَالُ لَهُ:ذُو قَرَد،فَأَرَادُوا أَنْ يَشْرَبُوا منْهُ،فَأَبْصَرُوني أَعْدُو وَرَاءَهُمْ،فَعَطَفُوا عَنْهُ وَشُدُّوا في الثَّنيَّة ثَنيَّة ذي ثَبِيرٍ وَغَرَبَت الشَّمْسُ،فَأَلْحَقُ رَجُلاً فَأَرْميه،قُلْتُ:خُذْهَا.وَأَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ قَالَ:يَا ثَكلَتْني أُمِّي أَأَكُوعُ بَكْرَةَ ؟ قُلْتُ:نَعَمْ أَيْ عَدُوَّ نَفْسه،وَكَانَ الَّذي رَمَيْتُهُ بَكْرَةَ،وَأَتْبَعْتُهُ بسَهْمٍ آخَرَ،فَعَلقَ فيه سَهْمَان وَخَلَّفُوا فَرَسَيْنِ،فَجئْتُ بهمَا أَسُوقُهُمَا إِلَى رَسُولِ اللّٰه ﷺ،وَهُوَ عَلَى الْمَاءِ الَّذي عنْدَ ذي قَرَد،فَإِذَا نَبيُّ اللّٰه ﷺفي جَمَاعَة،وَإِذَا بلاَلٌ قَدْ نَحَرَ جَزُورًا ممَّا خَلَّفْتُ وَهُوَ يَشْوِي لرَسُولِ اللّٰه ﷺمنْ كَبدهَا وَسَنَامهَا،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللّٰه،خَلِّني فَأَنْتَخبَ منْ أَصْحَابكَ مائَةَ رَجُلٍ وَآخُذَ عَلَى الْكُفَّارِ،فَلاَ أُبْقي منْهُمْ مُخْبِرًا،إِلاَّ قَتَلْتُهُ،فَقَالَ ﷺ:أَكُنْتَ فَاعلاً ذَلكَ يَا سَلَمَةُ ؟ قُلْتُ:نَعَمْ،وَالَّذي أَكْرَمَ وَجْهَكَ،فَضَحكَ رَسُولُ اللّٰه ﷺحَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجذَهُ في ضَوْءِ النَّارِ،فَقَالَ ﷺ:إِنَّهُمْ يُقْرَوْنَ الآنَ إِلَى أَرْضِ غَطَفَانَ،فَجَاءَ رَجُلٌ منْ غَطَفَانَ،فَقَالَ:نَزَلُوا عَلَى فُلاَنٍ الْغَطَفَانيِّ،فَنَحَرَ لَهُمْ جَزُورًا ،فَلَمَّا أَخَذُوا يَكْشطُونَ جلْدَهَا رَأَوْا غَبَرَةً،فَتَرَكُوهَا وَخَرَجُوا هُرَّابًا،فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَالَ رَسُولُ اللّٰه ﷺ:خَيْرُ فُرْسَاننَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ،وَخَيْرُ رَجَّالَتنَا

سَلَمَةُ،فَأَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺسَهْمَ الرَّاجِلِ وَالْفَارِسِ جَمِيعًا،ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺأَرْدَفَنِي وَرَاءَهُ عَلَى الْعَضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ،فَلَمَّا كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ ضَحْوَةٍ وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ لاَ يُسْبَقُ،فَجَعَلَ يُنَادِي:هَلْ مِنْ مُسَابِقٍ أَلاَ رَجُلٌ يُسَابِقُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَعَلَ ذَلِكَ مِرَارًا وَأَنَا وَرَاءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي،خَلِّنِي فَلأُسَابِقَ الرَّجُلَ،قَالَ:إِنْ شِئْتَ،قُلْتُ:اذْهَبْ إِلَيْكَ فَطَفَرَ عَنْ رَاحِلَتِهِ وَثَنَيْتُ رِجْلِي،فَطَفَرْتُ عَنِ النَّاقَةِ،ثُمَّ إِنِّي رَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا،أَوْ شَرَفَيْنِ – يَعْنِي اسْتَبْقَيْتُ نَفْسِي –،ثُمَّ عَدَوْتُ حَتَّى أَلْحَقَهُ،فَأَصُكُّ بَيْنَ كَتِفَيْهِ بِيَدِي،وَقُلْتُ:سُبِقْتَ وَاللَّهِ حَتَّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ.[137]

على جبا الرَّكِيَّةِ الرَّكِيَّةُ:البئر،وجباها:التراب الذي أُخرج منها وجُعلَ حولها.

أعزل:الأعزل:الذي لا سلاح معه،وقوم عُزَّل،وقد جاء في أحد نسخ مسلم «عُزُل» وأراد به الواحد،ولعله غلط من الكاتب.

ابغني:بمعنى أوجدني وأعطني.

واسَوْنا:من المواساة:المشاركة والموافقة.

تَبيعا التَّبيع:الخادم؛لأنه يتبع الذي يخدُمه.

فكسحت:كسحتُ البيت:كنستُه ونحَّيت ما في أرضه مما يؤذي ساكنه.

ضِغْثا:الضِّغْث:الحزمة المجتمعة من قضبان أو حشيش ونحوه مما يجمع في اليد.

من العَبَلات:العبَلات:أُمية الصغرى من قريش،والنسب إليهم:عَبَليٌّ.

مجفف فرس مجفَّف:عليه تجافيف،وهي ما يستره في الحرب خوفا عليه مما يؤذيه من سلاح وغيره،فهو في الخيل كالمُدَجَّج من الرِّجال،وهو المنغمس في الدرع والسلاح.

بدء الفجور:ابتداؤه وأوله،وثِناه:ثانيه،وقد يمدُّ.

طليعة الطليعة:الجاسوس.

بظهره الظهر:ما يُعَدُّ من الإبل للركوب والأحمال.

أُنَدِّيه قال الأصمعي:التندية بالنون:أن تُورِد الإبل والخيل،حتى تشرب قليلا،ثم ترعى ساعة،ثم تردُّها إلى الماء من يومها،أو من الغد،والإبل تندو من الحَمض إلى الخلة،فتنتقل من

---

[137] – صحيح مسلم– المكنز – (٤٧٧٩) و صحيح ابن حبان – (١٦ / ١٣٣) (٧١٧٣)

جنس من المرعى إلى جنس آخر،وأنكر القتيبي هذا،وقال:الصواب «لأبَدِّيه» بالباء المعجمة بواحدة،أي:لأخرجه إلى البدو،وقال:ولا تكون التندية إلا للإبل خاصة،قال الأزهري:أخطأ القتيبي،والصواب ما قال الأصمعي،وللتندية معنى آخر،وهو تضمير الفرس وإجراؤه،حتى يسيل عرقه،ويقال لذلك العرق إذا سال:النَّدَى،وهذا أشبه بمعنى الحديث،والله أعلم.

سَرْحِه السرح:المواشي السائمة.

على أكمَة الأكمةُ:الرَّابيةُ ونحوها،وجمعها:أُكُم وآكام وإكام.

يا صباحاه يومُ الصَّباح:يومُ الغارة،وكان إذا دهمهم أمر صاحوا:يا صباحاه،يُعْلِمُون قومَهم بما دَهمَهم ونابَهم،ليُبادروا إليه.

يوم الرُّضَع:أراد بقوله:يوم الرُّضَّع:يوم هلاك اللئام،والرُّضع جمع راضع،وأراد بهم:الذي يُرضِعون الإبل ولا يحلبونها خوفا من أن يسمع حلبها من يستمنحهُم ويسألهم لبنا،وقد يكون كناية عن الشدة.

فأصكّ الصَّكُّ:الضرب باليد،وأراد:أنه رماه بسهم.

في رحله:رَحْلُ الناقة:كورها،فأضافه إليه؛لأنه راكب عليه.

وأعْقِرُ بهم عَقَرْتُ به:قتلتُ مركُوبَه،وجعلتُه راجلا.

بُردَة البُرْدَةُ:ضرب من الثياب.

آراما الآرام:جمع إرم،وهو العلم من الحجارة.

قَرَن القَرَن:جبل صغير منفرد.

البَرَح:الشدة،يقال:لقيتُ منه بَرَحا بارِحا،أي:شدة شديدة.

غَلَس:الغَلَس:ظُلْمَةُ آخر الليل.

لا يقطعونك:الاقتطاع:أخذ الشيء والانفراد به،أراد به:لا يرونك منفردا فيطمعوا فيك فيقتلوك.

شِعْب:الشِّعْبُ:الفُرْجَةُ بين الجبلين كالوادي.

فَحَلَّيْتُهم عن الماء:أي:طردتُهم،هكذا جاء لفظ الحديث مُشددا غير مهموز،وبهذا شـــرحه الحميدي في كتابه،والمعروف في اللغة:حَلأتُ الإبل مشددا مهموزا،ولعل الهمزة قد قُلبت ياء،وليس بالقياس؛ لأن الياء لا تُبدل من الهمزة إلا أن يكون ما قبلها مكسورا،نحو إيلاف وبير،وقد جاء شاذا:قَرَيْتُ في قرأتُ،وليس بالكثير.

فَيُسْنِدونَ:وقد تقدَّم في أول هذه الغزوة ذكر «يسندون» وهو الصعود في الجبل.

نُغض:الكتف:الغضروف العريض الذي على أعلاه.

أكْوَعُه بكرة:قوله:أكوعه بكرة،يعني:الأكوع الذي كان قد تبعنا من بكرة،فإنه كـــان أول ما لحقهم قال:

أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضع

فلما عاد:قال لهم هذا القول،فقال له:أنت الذي كنت معنا بكرة؟ قال له في الجواب:نعـــم أكوعك بكرة.

أرْدَوا فرسين:أرديتُه:رميتُه وتركته،والمراد:أنهم من خوفهم تركوا من خيلهم فرســـين،و لم يقفوا عليهما هربا وخوفا أن يلحقهم.

مَذقَة من لبن:لبن ممذوق،أي:مخلوط بماء،والمراد بقوله:«مَذْقَة» شربة قليلة من لبن ممذوق.

لَيُقْرَوْن:القِرى:الضِّيافة ونُزُل الضَّيْف.

فانتخب:الانتخاب:الاختيار،وانْتِقَاءُ الجيِّد.

جزورا:الجزور:البعير ذكرا كان أو أنثى،إلا أن اللفظة مؤنثة.

العَضباء:لقبُ ناقة النبيِّ -ﷺ- و لم تكن عضباء،أي:مشقوقة الأذُن.

شدّا الشدّ:العدو.

فربطتُ:أي:تأخَّرتُ،كأنه ربط نفسه،أي:شدَّها.

شَرَفا الشَّرَفُ:الشَّوطُ والقَدْرُ المعلوم من المسافة.

لولا متَّعْتنا «لولا» هاهنا بمعنى:هَلا،ومتعتنا بمعنى:جعلتنا ننتفع به،فإنـــه -ﷺ- كـــان إذا استغفر في غزوة لأحد على الخصوص،أو ترَّحم [عليه]:عرفوا أنه يموت أو يُقتل،فقالوا لما استغفر له:هلا تركتنا نستمتع بحدائه في طول حياته ؟

يَخْطِر بسيفه:خَطَر بسيفه:إذا هَزّهُ مُعجَبا بنفسه،مُتعرِّضا للمبارزة،ويجوز أن يكـــون أراد به:أنه كان يخطِر في مِشْيَتِه،أي:يتمايل ويمشي مِشْيَةَ المعجَب بنفسه،وسيفُه في يده،فكأنـــه خطر وسيفه معه.

شاكي السلاح:ذو شدَّة وشوكة وحِدَّة في سلاحه.

مُغَامِرُ:رجل مُغامر:إذا كان يَقتحم المهالك.

يَسفُل:سفلتُ له أسفُل في الضرب:إذا عمدتَ أن تضرب أسافِلَه من وسطه إلى قدميه.

حَيْدَرَةَ:اسم للأسد،وذلك أن فاطمةَ بنتَ أسد أُمَّ علي بن أبي طالب لما ولدته سمته باســـم أبيها،وكان أبو طالب غائبا،فلما قدم كره هذا الاسم،فسماه عليا.

السَّندَرة:مِكْيَال ضخم.

كَلَيْث غابات:الليث:الأسد،والغابات جمع غابة،وهي الأجَمَةُ،وأُسود الغابـــات موصـــوفة بالشدة.[١٣٨]

٢٩- استعلاء الإيمان:

قال تعالى:{ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }..[آل عمران:٦]

أول ما يتبادر إلى الذهن من هذا التوجيه أنه ينصـــب علـــى حالـــة الجهـــاد الممثلـــة في القتال..ولكن حقيقة هذا التوجيه ومداه أكبر وأبعد من هذه الحالة المفردة،بكل ملابساتها الكثيرة.

إنه يمثل الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها شعور المؤمن وتصوره وتقديره للأشـــياء والأحداث والقيم والأشخاص سواء.

إنه يمثل حالة الاستعلاء التي يجب أن تستقر عليها نفس المـــؤمن إزاء كـــل شـــيء،وكل وضع،وكل قيمة،وكل أحد،الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان.

---

[١٣٨] - جامع الأصول في أحاديث الرسول - (٨ / ٣١٨)

الاستعلاء على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان.وعلى قيم الأرض التي لم تنبثق من أصل الإيمان.وعلى تقاليد الأرض التي لم يصغها الإيمان،وعلى قوانين الأرض التي لم يشرعها الإيمان،وعلى أوضاع الأرض التي لم ينشئها الإيمان.

الاستعلاء..مع ضعف القوة،وقلة العدد،وفقر المال،كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء.

الاستعلاء الذي لا يتهاوى أمام قوة باغية،ولا عرف اجتماعي ولا تشريع باطل،ولا وضع مقبول عند الناس ولا سند له من الإيمان.

وليست حالة التماسك والثبات في الجهاد إلا حالة واحدة من حالات الاستعلاء التي يشملها هذا التوجيه الإلهي العظيم.

والاستعلاء بالإيمان ليس مجرد عزمة مفردة،ولا نخوة دافعة،ولا حماسة فائرة،إنما هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز في طبيعة الوجود.الحق الباقي وراء منطق القوة،وتصور البيئة،واصطلاح المجتمع،وتعارف الناس،لأنه موصول بالله الحي الذي لا يموت.

إن للمجتمع منطقه السائد وعرفه العام وضغطه الساحق ووزنه الثقيل..على من ليس يحتمي منه بركن ركين،وعلى من يواجهه بلا سند متين...وللتصورات السائدة والأفكار الشائعة إيحاؤهما الذي يصعب التخلص منه بغير الاستقرار على حقيقة تصغر في ظلها تلك التصورات والأفكار،والاستمداد من مصدر أعلى من مصدرها وأكبر وأقوى

والذي يقف في وجه المجتمع،ومنطقه السائد،وعرفه العام،وقيمه واعتباراته،وأفكاره وتصوراته،وانحرافاته ونزواته..يشعر بالغربة كما يشعر بالوهن،ما لم يكن يستند إلى سند أقوى من الناس،وأثبت من الأرض،وأكرم من الحياة.

والله لا يترك المؤمن وحيداً يواجه الضغط،وينوء به الثقل،ويهدّه الوهن والحزن،ومن ثم يجيء هذا التوجيه:{ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }.[آل عمران:١٣٩]

يجيء هذا التوجيه.ليواجه الوهن كما يواجه الحزن.هما الشعوران المباشران اللذان يساوران النفس في هذا المقام..يواجههما بالاستعلاء لا بمجرد الصبر والثبات،والاستعلاء الذي ينظر من عل إلى القوى الطاغية،والقيم السائدة،والتصورات الشائعة،والاعتبارات والأوضاع والتقاليد والعادات،والجماهير المتجمعة على الضلال.

إن المؤمن هو الأعلى..الأعلى سنداً ومصدراً..فما تكون الأرض كلها ؟ وما يكون الناس ؟ وما تكون القيم السائدة في الأرض ؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس ؟ وهو من الله يتلقى،وإلى الله يرجع،وعلى منهجه يسير ؟

وهو الأعلى إدراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود..فالإيمان بالله الواحد في هذه الصورة التي جاء بها الإسلام هو أكمل صورة للمعرفة بالحقيقة الكبرى.وحين تقاس هذه الصورة إلى ذلك الركام من التصورات والعقائد والمذاهب،سواء ما جاءت به الفلسفات الكبرى قديماً وحديثاً،وما انتهت إليه العقائد الوثنية والكتابية المحرفة،وما اعتفسته المذاهب المادية الكالحة..حين تقاس هذه الصورة المشرقة الواضحة الجميلة المتناسقة،إلى ذلك الركام وهذه التعسفات،تتجلى عظمة العقيدة الإسلامية كما لم تتجل قط.وما من شك ان الذين يعرفون هذه المعرفة هم الأعلون على كل من هناك [١٣٩].

وهو الأعلى تصوراً للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص.فالعقيدة المنبثقة عن المعرفة بالله،بصفاته كما جاء بها الإسلام،ومن المعرفة بحقائق القيم في الوجود الكبير لا في ميدان الأرض الصغير.هذه العقيدة من شأنها أن تمنح المؤمن تصوراً للقيم أعلى وأضبط من تلك الموازين المختلفة في أيدي البشر،الذين لا يدركون إلا ما تحت أقدامهم.ولا يثبتون على ميزان واحد في الجيل الواحد.بل في الأمة الواحدة.بل في النفس الواحدة من حين إلى حين.

وهو الأعلى ضميراً وشعوراً،وخلقاً وسلوكاً..فإن عقيدته في الله ذي الأسماء الحسنى والصفات المثلى،هي بذاتها موحية بالرفعة والنظافة والطهارة والعفة والتقوى،والعمل الصالح والخلافة الراشدة.فضلاً على إيحاء العقيدة عن الجزاء في الآخرة.الجزاء الذي تهون

[١٣٩] – يراجع فصل " تيه وركام " في كتاب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ....

أمامه متاعب الدنيا وآلامها جميعاً.ويطمئن إليه ضمير المؤمن،ولو خرج من الـــدنيا بغـــير نصيب.

وهو الأعلى شريعة ونظاماً.وحين يراجع المؤمن كل ما عرفته البشرية قديماً وحديثاً،ويقيسه إلى شريعته ونظامه،فسيراه كله أشبه شيء بمحاولات الأطفال وخبط العميان،إلى جانـــب الشريعة الناضجة والنظام الكامل.وسينظر إلى البشرية الضالة من عل في عطف وإشـــفاق على بؤسها وشقوها،ولا يجد في نفسه إلا الاستعلاء على الشقوة والضلال.

وهكذا كان المسلمون الأوائل يقفون أمام المظاهر الجوفاء،والقوى المتنفجـــة،والاعتبارات التي كانت تتعبد الناس في الجاهلية..والجاهلية ليست فترة من الزمان،إنما هي حالـــة مـــن الحالات تتكرر كلما انحرف المجتمع عن نهج الإسلام،في الماضي والحاضر والمستقبل علـــى السواء..

وهكذا وقف المغيرة ابن شعبة أمام صور الجاهلية وأوضاعها وقيمها وتصوراتها في معسكر رستم قائد الفرس المشهور:

" فعن أبي عثمان النهدي.قال:لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فـــارس حبســـوه واستأذنوا رستم في إجازته،و لم يغيروا شيئاً من شارتهم،تقوية لتهاونهم؛فأقبل المغـــيرة بـــن شعبة،والقوم في زيهم،عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب،وبسطهم على غلـــوة لا يصل إلى صاحبهم؛حتى يمشي عليهم غلوة؛وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي؛حتى جلس معه على سريره وووسادته؛فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوا ومغثوه.فقال:كانت تبلغنا عـــنكم الأحلام؛ولا أرى قوماً أسفه منكم! إنا معشر العرب سواء؛ولا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه؛فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى؛وكان أحسن من الـــذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض،وأن هذا الأمر فيكم فـــلا نصفه،نصـــنعه،و لم آتكم،ولكن دعوتموني اليوم،علمـــت أن أمـــركم لا يســـتقم فـــيكم مضـــمحل،وأنكم مغلوبون؛وأن ملكاً لا يقول على هذه السيرة،ولا على هذه العقول.

فقال السفلة:صدق والله العربي،وقالت الدهاقين:والله لقد رمى بكلام لا يـــزال عبيـــدنا يترعون إليه؛قاتل الله أولينا،ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة ! فمازحـــه

رستم ليمحو ما صنع،وقال له:يا عربي؛إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملـــك،فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك؛فالأمر على ماتحب من الوفاء وقبول الحق؛مـــا هذه المغازل التي معك؟ قال:ما ضر الجمرة ألا تكون طويلة ! ثم راماهم.وقال:مـــا بـــال سيفك رثاً! قال:رث الكسوة،حديد المضربة.ثم عاطاه سيفه،ثم قال له رســـتم:تكلـــم أم أتكلم؟ فقال المغيرة:أنت الذي بعثت إلينا،فتكلم.فأقام الترجمان بينهما،وتكلم رستم،فحمد قومه،وعظم أمرهم وطوله.وقال: لم نزل متمكنين في البلاد،ظاهرين على الأعداء،أشـــرافاً في الأمم؛فليس لأحد من الملوك مثل عزنا وشرفنا وسلطاننا،ننصر على الناس ولا ينصرون علينا إلا اليوم واليومين،أو الشهر والشهرين؛للذنوب؛فإذا انـــتقم الله فرضـــى رد إلينـــا عزنا،وجمعنا لعدونا شر يوم هو آت عليهم.ثم إنه لم يكن في الناس أمة أصغر عندنا أمـــراً منكم؛كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة،لا نراكم شـــيئاً ولا نعـــدكم،وكنتم إذا قطحـــت أرضكم،وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشيء من التمر والشـــعير ثم نردكم،وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلاد،فأنـــا آمر لأميركم بكسوة وبغـــل وألـــف درهم،وآمـــر لكـــل رجـــل مـــنكم بـــوقر تمـــر وبثوبين،وتنصرفون عنا،فإني لست أشتهى أن أقتلكم ولا آسركم.

فتكلم المغيرة بن شعبة،فحمد الله وأثنى عليه،وقال:إن الله خالق كل شئ ورازقه؛فمن صنع شيئاً فإنما هو الذي يصنعه هو له.وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك؛من الظهـــور على الأعداء والتمكن في البلاد وعظم السلطان في الدنيا؛فنحن نعرفه،ولسنا ننكره؛فـــالله صنعه بكم؛ووضعه فيكم وهو له دونكم؛وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال،وضـــيق المعيشة واختلاف القلوب؛فنحن نعرفه؛ولسنا ننكره؛والله ابتلانا بذلك،وصيرنا إليه،والدنيا دول؛و لم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليها؛ولو يـــزل أهـــل رخائهـــا يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا إليها ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوى شـــكر،كان شكركم يقصر عما أوتيتم،وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال؛ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر؛كان عظيم ما تتابع علينا مستجلبا من الله رحمة يرفه بها عنا،ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه؛أو كنتم تعرفوننا به؛إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولاً....ثم ذكـــر مثـــل

الكلام الأول؛حتى انتهى إلى قوله:وإن احتجت إلينا أن نمنعك فكن لنا عبد تؤدى الجزية عن يد وأنت صاغر،وإلا فالسيف إن أبيت! فنخر نخرة،واستشاط غضباً،ثم حلف بالشمس لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم أجمعين."[140].

كذلك وقف ربعي بن عامر مع رستم هذا وحاشيته قبل وقعة القادسية:

قَالُوا:ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ سَعْدٌ رَسُولًا آخَرَ بِطَلَبِه،وَهُوَ رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ،فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَدْ زَيَّنُوا مَجْلِسَهُ بِالنَّمَارِقِ[141] الْمُذَهَّبَةِ وَالزَّرَابِيِّ الْحَرِيرِ،وَأَظْهَرَ الْيَوَاقِيتَ وَاللَّآلِئَ الثَّمِينَةَ،وَالزِّينَةَ الْعَظِيمَةَ،وَعَلَيْهِ تَاجُهُ،وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْتِعَةِ الثَّمِينَةِ،وَقَدْ جَلَسَ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ،وَدَخَلَ رِبْعِيٌّ بِثِيَابٍ صَفِيقَةٍ وَسَيْفٍ وَتُرْسٍ وَفَرَسٍ قَصِيرَةٍ،وَلَمْ يَزَلْ رَاكِبَهَا حَتَّى دَاسَ بِهَا عَلَى طَرَفِ الْبُسَاطِ،ثُمَّ نَزَلَ وَرَبَطَهَا بِبَعْضِ تِلْكَ الْوَسَائِدِ،وَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ سِلَاحُهُ وَدِرْعُهُ وَبَيْضَةٌ عَلَى رَأْسِهِ،فَقَالُوا لَهُ:ضَعْ سِلَاحَكَ.فَقَالَ:إِنِّي لَمْ آتِكُمْ،وَإِنَّمَا جِئْتُكُمْ حِينَ دَعَوْتُمُونِي،فَإِنْ تَرَكْتُمُونِي هَكَذَا وَإِلَّا رَجَعْتُ.فَقَالَ رُسْتُمُ:ائْذَنُوا لَهُ.فَأَقْبَلَ يَتَوَكَّأُ عَلَى رُمْحِهِ فَوْقَ النَّمَارِقِ فَخَرَّقَ عَامَّتَهَا،فَقَالُوا لَهُ:مَا جَاءَ بِكُمْ ؟ فَقَالَ:اللَّهُ ابْتَعَثْنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ،وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا،وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ،فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ،فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ،وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ.قَالُوا:وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ ؟ قَالَ:الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى،وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ.فَقَالَ رُسْتُمُ:قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ،فَهَلْ لَكَمَ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى نَنْظُرَ فِيهِ وَتَنْظُرُوا ؟ قَالَ:نَعَمْ،كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ ؟ أَيَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ ؟ قَالَ:لَا،بَلْ حَتَّى نُكَاتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَا وَرُؤَسَاءَ قَوْمِنَا.فَقَالَ:مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُؤَخِّرَ الْأَعْدَاءَ عِنْدَ اللِّقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ،فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِهِمْ،وَاخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ بَعْدَ الْأَجَلِ.فَقَالَ:أَسَيِّدُهُمُ أَنْتَ ؟ قَالَ:لَا،وَلَكِنَّ الْمُسْلِمُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ يُجِيرُ أَدْنَاهُمْ عَلَى أَعْلَاهُمْ..[142]

---

[140] - تاريخ الرسل والملوك - (٢ / ٢٧٠)

[141] - النمارق : الوسائد والحشايا للاتكاء . والزرابي : البسط المخملة .

[142] - البداية والنهاية لابن كثير - موافقة للمطبوع - (٧ / ٤٦) وتاريخ الرسل والملوك - (٢ / ٢٦٧) حسن

وتتبدل الأحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية،فلا يفارقه شـــعوره بأنه الأعلى.وينظر إلى غالبه من عل ما دام مؤمناً.ويستيقن أنها فترة وتمضي،وإن للإيمـــان كرة لا مفر منها.

وهبها كانت القاضية فإنه لا يحني لها رأساً.إن الناس كلهم يموتون أما هو فيستشهد.وهـــو يغادر هذه الأرض إلى الجنة،وغالبه يغادرها إلى النار.وشتان شتان.وهو يسمع نداء ربـــه الكريم:{ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ،مَتَاعٌ قَليلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَـــنَّمُ وَبِـــئْسَ الْمِهَادُ،لَكِنِ الَّذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدينَ فِيهَا نُزُلاً مِـــنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ } ... [آل عمران:١٩٦ – ١٩٨]

وتسود المجتمع عقائد وتصورات وقيم وأوضاع كلها مغاير لعقيدتـــه وتصـــوره وقيمـــه وموازينه،فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى،وبأن هؤلاء كلهم في الموقف الدون.وينظر إلـــيهم من عل في كرامة واعتزاز،وفي رحمة كذلك وعطف،ورغبة في هدايتهم إلى الخـــير الـــذي معه،ورفعهم إلى الأفق الذي يعيش فيه.

ويضج الباطل ويصخب،ويرفع صوته وينفش ريشه،وتحيط به الهالات المصطنعة التي تغشي على الأبصار والبصائر،فلا ترى ما وراء الهالات من قـــبح شـــائه دميم،وفجـــر كـــالح لئيم..وينظر المؤمن من عل إلى الباطل المنتفش،وإلى الجمـــوع المخدوعـــة،فلا يهـــن ولا يحزن،ولا ينقص إصراره على الحق الذي معه،وثباته على المنهج الذي يتبعه،ولا تضـــعف رغبته كذلك في هداية الضالين والمخدوعين ويغرق المجتمع في شهواته الهابطة،ويمضي مـــع نزواته الخليعة،ويلصق بالوحل والطين،حاسباً أنه يستمتع وينطلق من الأغلال والقيود.وتعز في مثل هذا المجتمع كل متعة بريئة وكل طيبة حلال،ولا يبقى إلا المشـــروع الآســـن،وإلا الوحل والطين..وينظر المؤمن من عل إلى الغارقين في الوحل اللاصقين بالطين.وهو مفـــرد وحيد،فلا يهن ولا يحزن،ولا تراوده نفسه أن يخلع رداءه النظيـــف الطـــاهر،وينغمس في الحمأة،وهو الأعلى بمتعة الإيمان ولذة اليقين.

ويقف المؤمن قابضاً على دينه كالقابض على الجمر في المجتمع الشارد عـــن الـــدين،وعن الفضيلة،وعن القيم العليا،وعن الاهتمامات النبيلة،وعن كل مـــا هـــو طـــاهر نظيـــف

جميل..ويقف الآخرون هازئين بوقفته،ساخرين من تصوراته،ضاحكين من قيمه..فما يهن المؤمن وهو ينظر من عل إلى الساخرين والهازئين والضاحكين،وهو يقول كما قال واحد من الرهط الكرام الذين سبقوه في موكب الإيمان العريق الوضيء،في الطريــق اللاحــب الطويل..نوح عليه السلام..{ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَــا تَسْــخَرُونَ }...[هود:٣٨]

وهو يرى نهاية الموكب الوضيء،ونهاية القافلة البائسة في قوله تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُــوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ،وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ،وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُــوا فَكِهِينَ،وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ،وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ،فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ،عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ،هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُــونَ }..؟ [المطففين:٢٩ - ٣٦]

وقديماً قص القرآن الكريم قول الكافرين للمؤمنين:{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَــاتٍ قَــالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً }..[مريم:٧٣]

أي الفريقين ؟ الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ؟ أم الفقراء الذين يلتفــون حولــه ؟ أي الفريقين ؟ النضر بن الحارث،وعمرو بن هشام،والوليد بن المغيرة،وأبو سفيان بن حرب ؟ أم بلال وعمار وصهيب وخباب ؟ أفلو كان ما يدعو إليه محمد خــيراً أفكــان أتباعــه يكونون هم هؤلاء النفر،الذين لا سلطان لهم في قريش ولا خطر،وهم يجتمعون في بيــت متواضع كدار الأرقم،ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب الندوة الفخمة الضخمة،والمجد والجاه والسلطان ؟!

إنه منطق الأرض،منطق المحجوبين عن الآفاق العليا في كل زمان ومكان.وإنها لحكمــة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء عاطلة من عوامل الإغراء،لا قربى من حاكم،ولا اعتزاز بسلطان،ولا هتاف بلذة،ولا دغدغة لغريزة.وإنما هو الجهــد والمشــقة والجهــاد والاستشهاد..ليقبل عليها من يقبل،وهو على يقين من نفسه أنه يريدها لذاتها خالصــة لله من دون الناس،ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات،ولينصرف عنها من يبتغــي

المطامع والمنافع،ومن يشتهي الزينة والأبهة،ومن يطلب المال والمتاع،ومن يقيم لاعتبـــارات الناس وزناً حين تخف في ميزان الله.

إن المؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته وموازينه من الناس حتى يأسى على تقدير الناس،إنمـــا يستمدها من رب الناس وهو حسبه وكافيه..إنه لا يستمدها من شهوات الخلـــق حـــتى يتأرجح مع شهوات الخلق،إنما يستمدها من ميزان الحق الثابت الـــذي لا يتـــأرجح ولا يميل..إنه لا يتلقاها من هذا العالم الفاني المحـــدود،وإنما تنبثـــق في ضـــميره مـــن ينـــابيع الوجود..فأنّى يجد في نفسه وهناً أو يجد في قلبه حزناً،وهو موصول برب الناس وميـــزان الحق وينابيع الوجود ؟

إنه على الحق..فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وليكن للضلال ســلطانه،وليكن لــه هيلــه وهيلمانه،ولتكن معه جموعه وجماهيره..إن هذا لا يغير من الحق شيئاً،إنه على الحق وليس بعد الحق إلا الضلال،ولن يختار مؤمن الضلال على الحق – وهو مؤمن – ولن يعدل بالحق الضلال كائنة ما كانت الملابسات والأحوال..{ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَـــبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ،رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّـــهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ }.[آل عمران:٨ – ٩][١٤٣]

٣٠– أنها قد تأتي بالمحار،ولكن لا تأتي بالمحال:

ففي العقيدة الإسلامية ما يبهر العقول،وما قد تحار فيه الأفهام،كسائر أمـــور الغيـــب؛من عذاب القبر ونعيمه،والصراط،والحوض،والجنة والنار،وكيفية صفات الله ـــ عز وجل ـــ.

فالعقول تحار في فهم حقيقة هـــذه الأمور،وكيفياتها،ولكنـــها لا تحيلـــها بـــل تســـلِّم لذلك،وتنقاد،وتذعن؛لأن ذلك صدر عن الوحي المنزل،الذي لا ينطق عن الهوى.

قال تعالى:{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْـــكَ الْمَصِـــيرُ} (٢٨٥) سورة البقرة

---

[١٤٣] – معالم في الطريق بتحقيقي – (١ / ١٥٢)

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامت،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺقَالَ:مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ،وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ،أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ.[١٤٤]

٣١- أنها سبب النجاة يوم القيامة:

فمن تسمك بها نجا يوم القيامة،قال تعالى:{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (١٩) سورة آل عمران

ألوهية واحدة..وإذن فدينونة واحدة..واستسلام لهذه الألوهية لا يبقى معه شيء في نفوس العباد ولا في حياقم خارجا عن سلطان اللّه.

ألوهية واحدة..وإذن فجهة واحدة هي صاحبة الحق في تعبيد الناس لها وفي تطويعهم لأمرها وفي إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها وفي وضع القيم والموازين لهم وأمرهم باتباعها وفي إقامة حياقم كلها وفق التعليمات التي ترضاها..

ألوهية واحدة..وإذن فعقيدة واحدة هي التي يرضاها اللّه من عباده.عقيدة التوحيد الخالص الناصع..

ومقتضيات التوحيد هذه التي أسلفنا:«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ»..

الإسلام الذي هو ليس مجرد دعوى،وليس مجرد راية،وليس مجرد كلمة تقال باللسان ولا حتى تصورا يشتمل عليه القلب في سكون ولا شعائر فردية يؤديها الأفراد في الصلاة والحج والصيام..لا.فهذا ليس بالإسلام الذي لا يرضى اللّه من الناس دينا سواه.إنما الإسلام الاستسلام.الإسلام الطاعة والاتباع.الإسلام تحكيم كتاب اللّه في أمور العباد..كما سيجيء في السياق القرآني ذاته بعد قليل.

والإسلام توحيد الألوهية والقوامة..بينما كان أهل الكتاب يخلطون بين ذات اللّه - سبحانه - وذات المسيح - عليه السلام - كما يخلطون بين إرادة اللّه وإرادة المسيح أيضا..ويختلفون فيما بينهم على هذه التصورات اختلافا عنيفا يصل في أحيان كثيرة إلى

[١٤٤] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٥٣٩)(٢٢٦٧٥) ٢٣٠٥١- وصحيح مسلم- المكتر - (١٤٩)

حد القتل والقتال..هنا يبين اللّه لأهل الكتاب وللجماعة المسلمة علة هذا الاختلاف:«وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ.بَغْياً بَيْنَهُمْ».

إنه ليس اختلافا عن جهل بحقيقة الأمر.فقد جاءهم العلم القاطع بوحدانية اللّه،وتفرد الألوهية.وبطبيعة البشرية،وحقيقة العبودية..ولكنهم إنما اختلفوا «بَغْياً بَيْنَهُمْ» واعتداء وظلما حينما تخلوا عن قسط اللّه وعدله الذي تتضمنه عقيدته وشريعته وكتبه.

وقد رأينا فيما نقلناه عن المؤلف المسيحي الحديث كيف كانت التيارات السياسية تخلق هذه الاختلافات المذهبية.وليس هذا إلا نموذجا مما تكرر وقوعه في حياة اليهودية والمسيحية.وقد رأينا كيف كانت كراهية مصر والشام وما إليهما للحكم الروماني سببا في رفض المذهب الروماني الرسمي والتمذهب بمذهب آخر! كما كان حرص بعض القياصرة على التوفيق بين أجزاء مملكته سببا في ابتداع مذهب وسط،يظن أنه يوفق بين الأغراض جميعا!! كأنما العقيدة لعبة تستخدم في المناورات السياسية والوطنية! وهذا هو البغي أشنع البغي.

عن قصد وعن علم! ومن ثم يجيء التهديد القاصم في موضعه المناسب: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ»..

وقد عد الاختلاف على حقيقة التوحيد كفرا وهدد الكافرين بسرعة الحساب كي لا يكون الإمهال – إلى أجل – مدعاة للجاجة في الكفر والإنكار والاختلاف..[١٤٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ نَفَعَتْهُ يَوْمًا مِنْ دَهْرِهِ أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا أَصَابَهُ "[١٤٦]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:مَنْ قَالَ:لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ،دَخَلَ الْجَنَّةَ فَقُلْتُ:وَإِنْ زَنَى،وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ:وَإِنْ زَنَى،وَإِنْ سَرَقَ.[١٤٧]

[١٤٥] -في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١ / ٣٧٩)

[١٤٦] – شعب الإيمان – (١ / ٢٠١) (٩٦) صحيح

[١٤٧] – صحيح ابن حبان – (١ / ٣٩١) (١٦٩) صحيح

وعَنِ ابْنِ شِهَاب،أَنَّ مَحْمُودَ بْنَ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيَّ أَخْبَرَهُ،أَنَّ عِتْبَانَ بْنَ مَالِك وَهُـــوَ مِـــنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُـــولَ اللهِ،إِنِّي أَنْكَرْتُ بَصَرِي،وَأَنَا أُصَلِّي لِقَوْمِي،وَإِذَا كَانَ الأَمْطَارُ سَالَ الْوَادِي الَّـــذِي بَيْنِـــي وَبَيْنَهُمْ،وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ،فَأُصَلِّيَ لَهُمْ،وَدِدْتُ أَنَّكَ يَا رَسُولَ اللهِ تَأْتِي فَتُصَـــلِّي فِي بَيْتِي أَتَّخِذُهُ مُصَلًّى ،قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:سَأَفْعَلُ.قَالَ عِتْبَانُ فَغَدَا رَسُولُ اللهِ ﷺوَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ،فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَأَذِنْتُ لَهُ،فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَـــلَ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ:أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ ؟ قَالَ:فَأَشَرْتُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِـــنَ الْبَيْتِ،فَقَـــامَ رَسُولُ اللهِ ﷺفَكَبَّرَ،وَقُمْنَا وَرَاءَهُ،فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ.قَالَ:وَحَبَسْنَاهُ عَلَى خَزِيرَةٍ صَنَعْنَاهَا لَهُ.قَالَ فَثَابَ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ حَوْلَهُ،حَتَّى اجْتَمَعَ فِي الْبَيْتِ رِجَالٌ ذَوُو عَدَد،قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ:أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخْشُنِ ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ:ذَاكَ مُنَافِقٌ،وَلاَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ،فَقَالَ لَـــهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:لاَ تَقُلْ لَهُ ذَلِكَ،أَلاَ تَرَاهُ قَدْ قَالَ:لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ،يُرِيـــدُ بِـــذَلِكَ وَجْـــهَ اللهِ ؟ قَالُوا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،إِنَّمَا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ لِلْمُنَافِقِينَ،قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّ اللَّـــهَ جَلَّ وَعَلاَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ:لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ،يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ." [١٤٨]

إنه لا سبيل – مع هذه النصوص المتلاحقة – لتأويل حقيقة الإسلام،ولا للـــيّ النصـــوص وتحريفها عن مواضعها لتعريف الإسلام بغير ما عرفه به اللّه،الإسلام الذي يدين به الكون كله.في صورة خضوع للنظام الذي قرره اللّه له ودبره به.

ولن يكون الإسلام إذن هو النطق بالشهادتين،دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا اللّه معناها وحقيقتها.وهي توحيد الألوهية وتوحيد القوامة.ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجـــاه.ودون أن يتبع شهادة أن محمدا رسول اللّه معناها وحقيقتها.وهي التقيد بالمنهج الذي جاء به من عند ربه للحياة،واتباع الشريعة التي أرسله بها،والتحاكم إلى الكتاب الذي حمله إلى العباد.

ولن يكون الإسلام إذن تصديقا بالقلب بحقيقة الألوهية والغيب والقيامـــة وكتـــب اللّـــه ورسله..دون أن يتبع هذا التصديق مدلوله العملي،وحقيقته الواقعية التي أسلفنا..

---

[١٤٨] – صحيح ابن حبان – (١ / ٤٥٧) (٢٢٣) صحيح

ولن يكون الإسلام شعائر وعبادات،أو إشراقات وسبحات،أو تهذيبا خلقيا وإرشادا روحيا..دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية ممثلة في منهج للحياة موصول باللّه الذي تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر،والإشراقات والسبحات،والذي تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد..فإن هذا كله يبقى معطلا لا أثر له في حياة البشر ما لم تنصب آثاره في نظام اجتماعي يعيش الناس في إطاره النظيف الوضيء.[149]

وأن من لا يؤمن بها حالد مخلد في النار،قال تعالى:{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (٨٥) سورة آل عمران

أي:من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده،فعمله مردود غير مقبول،لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله،إخلاصا وانقيادا لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه،وكل دين سواه فباطل،[150]

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم،الذي لا أرجحة فيه ولا تردد،بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله اللّه من الناس - بعد رسالة محمد - ﷺ - وبأن منهجه الذي كلفه اللّه أن يقيم الحياة عليه،منهج متفرد لا نظير له بين سائر المناهج ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه ولا يعفيه اللّه ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه:الاعتقادية والاجتماعية لم يأل في ذلك جهدا،ولم يقبل من منهجه بديلا - ولا في جزء منه صغير - ولم يخلط بينه وبين أي منهج آخر في تصور اعتقادي،ولا في نظام اجتماعي،ولا في أحكام تشريعية،إلا ما استبقاه اللّه في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب...

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو - وحده - الذي يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج اللّه الذي رضيه للناس في وجه العقبات الشاقة،والتكاليف المضنية،والمقاومة العنيدة،والكيد الناصب،والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كثير من

---

[149] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٤٢٣)

[150] - تفسير السعدي - (١ / ١٣٧)

الأحيان..وإلا فما العناء في أمر يغني عنه غيره – مما هو قائم في الأرض من جاهلية..سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة في وثنية الشرك،أو في انحراف أهـــل الكتـــاب،أو في الإلحـــاد السافر..بل ما العناء في إقامة المنهج الإسلامي،إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهـــل الكتاب أو غيرهم قليلة يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة؟

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة،باسم التسامح والتقريب بين أهـــل الأديـــان السماوية،يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح.فالدين هـــو الـــدين الأخير وحده عند اللّه.والتسامح يكون في المعاملات الشخصية،لا في التصور الاعتقـــادي ولا في النظام الاجتماعي..إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن اللّه لا يقبل دينا إلا الإسلام،وبأن عليه أن يحقق منهج اللّه الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بـــديلا ولا يقبل فيه تعديلا – ولو طفيفا – هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهـــو يقـــرر:«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ»..«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْـــهُ»..«وَاحْـــذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ»..«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصـــارى أَوْلِياءَ..بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ»..وفي القرآن كلمة الفصل..ولا على المسلم من تميع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين! ويصور السياق القرآني تلك الحالة التي كانت واقعة والتي يترل القرآن من أجلها بهذا التحذير:«فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُـــوبِهِمْ مَـــرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ،يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ»..

روى ابن جرير،قال:حدثنا أبو كريب،حدثنا إدريس،قال:سمعت أبي،عن عطية بن سعد. قال:جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول اللّه – ﷺ – فقال:يـــا رسول اللّه.إن لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى اللّه ورســـوله مـــن ولايـــة يهود،وأتولى اللّه ورسوله.فقال عبد اللّه بن أبي (رأس النفاق):إني رجل أخاف الدوائر.لا أبرأ من ولاية مواليّ.فقال رسول اللّه – ﷺ – لعبد اللّه بن أبي:«يا أبا الحباب.ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة ابن الصامت فهو لك دونه»! قال:قد قبلت! فأنزل اللّـــه عـــز وجل:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ»...وقال ابن جرير.«حدثنا

هناد،حدثنا يونس بن بكير،حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن الزهري قال:لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من اليهود:أسلموا قبل أن يصيبكم اللّه بيوم مثل يوم بدر.

فقال مالك بن الصيف:أغركم أن أصبتم رهطا من قريش،لا علم لهم بالقتال؟ أما لو أصررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يد أن تقاتلونا.فقال عبادة بن الصامت:يا رسول اللّه إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم،كثيرا سلاحهم،شديدة شوكتهم.وإني أبرأ إلى اللّه ورسوله من ولاية يهود،ولا مولى لي إلا اللّه ورسوله.فقال عبد اللّه بن أبي:لكني لا أبرأ من ولاية يهود.إني رجل لا بد لي منهم.

فقال رسول اللّه – ﷺ -:«يا أبا الحباب أرأيت الذي نفست به من ولاية يهود على عبادة ابن الصامت؟ فهو لك دونه!» فقال:إذن أقبل..

قال محمد بن إسحق:فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول اللّه – ﷺ – بنو قينقاع.فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة.قال:فحاصرهم رسول اللّه – ﷺ – حتى نزلوا على حكمه.فقام إليه عبد اللّه بن أبي بن سلول – حين أمكنه اللّه منهم – فقال:يا محمد أحسن في مواليّ – وكانوا حلفاء الخزرج – قال:فأبطأ عليه رسول اللّه – صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم – فقال:يا محمد أحسن في مواليّ.قال:فأعرض عنه.قال:فأدخل يده في جيب درع رسول اللّه – ﷺ – فقال له رسول اللّه – ﷺ -:«أرسلني» وغضب رسول اللّه – ﷺ – حتى رأوا لوجهه ظللا.ثم قال:«ويحك! أرسلني».قال:لا واللّه لا أرسلك حتى تحسن في موالي.أربعمائة حاسر،وثلاثمائة دارع،قد منعوني من الأحمر والأسود،تحصدهم في غداة واحدة؟ إني امرؤ أخشى الدوائر.قال.فقال رسول اللّه – ﷺ – :«هم لك»..

قال محمد بن إسحق:فحدثني أبي إسحق بن يسار،عن عبادة،عن الوليد بن عبادة بن الصامت،قال:لما حاربت بنو قينقاع رسول اللّه – ﷺ – تشبث بأمرهم عبد اللّه بن أبي وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول اللّه – ﷺ – وكان أحد بني عوف بن الخزرج.له من حلفهم مثل الذي لعبد اللّه بن أبي فجعلهم إلى رسول اللّه – ﷺ – وتبرأ إلى اللّه ورسوله من حلفهم،وقال:يا رسول اللّه أبرأ إلى اللّه ورسوله من حلفهم،وأتولى

اللّه ورسوله والمؤمنين،وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم.ففيه وفي عبد اللّه بن أبي نزلت الآية في المائدة:«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلياءَ،بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ» إلى قوله:«وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّه هُمُ الْغالبُونَ»..

وقال الإمام أحمد:حدثنا قتيبة بن سعيد،حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زيادة،عن محمد بن إسحاق،عن الزهري،عن عودة،عن أسامة بن زيد،قال:«دخلت مع رسول اللّه – ﷺ – على عبد اللّه بن أبي نعوده،فقال له النبي – ﷺ – «قد كنت أنهاك عن حب يهود» فقال عبد اللّه:

فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات..(و أخرجه أبو داود من حديث محمد بن إسحق) فهذه الأخبار في مجموعها تشير إلى تلك الحالة التي كانت واقعة في المجتمع المسلم والمتخلفة عن الأوضاع التي كانت قائمة في المدينة قبل الإسلام وكذلك عن التصورات التي لم تكن قد حسمت في قضية العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الجماعة المسلمة واليهود والتي لا يمكن أن تقوم..غير أن الذي يلفت النظر أنها كلها تتحدث عن اليهود،و لم يجئ ذكر في الوقائع للنصارى..ولكن النص يجمل اليهود والنصارى..ذلك أنه بصدد إقامة تصور دائم وعلاقة دائمة وأوضاع دائمة بين الجماعة المسلمة وسائر الجماعات الأخرى،سواء من أهل الكتاب أو من المشركين (كما سيجيء في سياق هذا الدرس)..ومع اختلاف مواقف اليهود من المسلمين عن مواقف النصارى في جملتها في العهد النبوي،ومع إشارة القرآن الكريم في موضع آخر من السورة إلى هذا الاختلاف في قوله تعالى:«لَتَجدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً للَّذينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذينَ أَشْرَكُوا،وَلَتَجدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً للَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ قالُوا:إِنَّا نَصارى..إلخ»..مع هذا الاختلاف الذي كان يومذاك،فإن النص هنا يسوي بين اليهود والنصارى – كما يسوي النص القادم بينهم جميعا وبين الكفار..فيما يختص بقضية المحالفة والولاء.ذلك أن هذه القضية ترتكز على قاعدة أخرى ثابتة.هي:أن ليس للمسلم ولاء ولا حلف إلا مع المسلم وليس للمسلم ولاء إلا للّه ولرسوله وللجماعة المسلمة..ويستوي بعد ذلك كل الفرق في هذا الأمر..مهما اختلفت مواقفهم من المسلمين في بعض الظروف..

على أن اللّه – سبحانه – وهو يضع للجماعة المسلمة هـذه القاعـدة العامـة الحازمـة الصارمة،كان علمه يتناول الزمان كله،لا تلك الفترة الخاصة من حياة رسول اللّه – ﷺ – وملابساتها الموقوتة..وقد أظهر التاريخ الواقع فيما بعد أن عداء النصـارى لهـذا الـدين وللجماعة المسلمة في معظم بقاع الأرض لم يكن أقل من عداء اليهود..وإذا نحن اسـتثنينا موقف نصارى العرب ونصارى مصر في حسن استقبال الإسلام،فإننا نجد الرقعة النصرانية في الغرب،قد حملت للإسلام في تاريخها كلـه منـذ أن احتكـت بـه مـن العـداوة والضغن،وشنت عليه من الحرب والكيد،ما لا يفترق عن حرب اليهود وكيـدهم في أي زمان! حتى الحبشة التي أحسـن عاهلـها اسـتقبال المهـاجرين المسـلمين واسـتقبال الإسلام،عادت فإذا هي أشد حربا على الإسلام والمسلمين من كل أحد لا يجاريها في هذا إلا اليهود..

وكان اللّه – سبحانه – يعلم الأمر كله.فوضع للمسلم هذه القاعدة العامة.بغض النظر عن واقع الفترة التي كان هذا القرآن يتزل فيها وملابساتها الموقوتة! وبغض النظر عمـا يقـع مثلها في بعض الأحيان هنا وهناك إلى آخر الزمان.

وما يزال الإسلام والذين يتصفون به – ولو أنهم ليسوا من الإسلام في شي ء – يلقون من عنت الحرب المشبوبة عليهم وعلى عقيدتهم من اليهود والنصارى في كل مكـان علـى سطح الأرض،ما يصدق قول اللّه تعالى: «بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ»..وما يحـتم أن يتـدرع المسلمون الواعون بنصيحة ربهم لهم.بل بأمره الجازم،ونهيه القاطع وقضـائه الحاسـم في المفاصلة الكاملة بين أولياء اللّه ورسوله،وكل معسكر آخر لا يرفع راية اللّه ورسوله..

إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعا على أساس العقيدة.فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة..ومن ثم لا يمكـن أن يقوم الولاء – وهو التناصر – بين المسلم وغير المسلم إذ أنهما لا يمكن أن يتناصرا في مجال العقيدة..ولا حتى أمام الإلحاد مثلا – كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن! – وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه؟

إن بعض من لا يقرأون القرآن،ولا يعرفــون حقيقـــة الإســـلام وبعـــض المخـــدوعين أيضا..يتصورون أن الدين كله دين! كما أن الإلحاد كله إلحاد! وأنه يمكن إذن أن يقـــف «التدين» بجملته في وجه الإلحاد.

لأن الإلحاد ينكر الدين كله،ويحارب التدين على الإطلاق..

ولكن الأمر ليس كذلك في التصور الإسلامي ولا في حـــس المســـلم الـــذي يتـــذوق الإسلام.ولا يتذوق الإسلام إلا من يأخذه عقيدة،وحركة بهـــذه العقيدة،لإقامـــة النظـــام الإسلامي.

إن الأمر في التصور الإسلامي وفي حس المسلم واضح محدد..الدين هو الإسلام..ولـــيس هناك دين غيره يعترف به الإسلام..لأن اللّه – سبحانه – يقول هذا.يقول:«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ»..ويقول: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ»..وبعد رسالة محمـــد – ﷺ – لم يعد هناك دين يرضاه اللّه ويقبله من أحد إلا هذا «الإسلام»..في صـــورته الـــتي جاء بها محمد – ﷺ – وما كان يقبل قبل بعثة محمد من النصارى لم يعد الآن يقبل.كمـــا أن ما كان يقبل من اليهود قبل بعثة عيسى عليه السّلام، لم يعد يقبل منهم بعد بعثته..

ووجود يهود ونصارى – من أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ – ليس معناه أن اللّـــه يقبل منهم ما هم عليه أو يعترف لهم بأنهم على دين إلهي..لقد كان ذلك قبل بعثة الرسول الأخير..أما بعد بعثته فلا ديـــن – في التصـــور الإســـلامي وفي حـــس المســـلم – إلا الإسلام..وهذا ما ينص عليه القرآن نصا غير قابل للتأويل..

إن الإسلام لا يكرههم على ترك معتقداتهم واعتناق الإسلام..لأنه «لا إكراه في الـــدين» ولكن هذا ليس معناه أنه يعترف بما هم عليه «دينا» ويراهم على «دين»..

ومن ثم فليس هناك جبهة تدين يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد! هناك «ديـــن» هـــو الإسلام..وهناك «لا دين» هو غير الإسلام..ثم يكون هذا اللادين..عقيدة أصلها سمـــاوي ولكنها محرفة،أو عقيدة أصلها وثني باقية على وثنيتها.أو إلحادا ينكر الأديان..تختلف فيما بينها كلها.ولكنها تختلف كلها مع الإسلام.ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء...

والمسلم يتعامل مع أهل الكتاب هؤلاء وهو مطالب بإحسان معاملتهم – كما سبق – ما لم يؤذوه في الدين ويباح له أن يتزوج المحصنات منهن – على خلاف فقهي فيمن تعتقد بألوهية المسيح أو بنوته،وفيمن تعتقد التثليث أهي كتابية تحل أم مشركة تحرم – وحتى مع الأخذ بمبدأ تحليل النكاح عامة..فإن حسن المعاملة وجواز النكاح،ليس معناها الولاء والتناصر في الدين وليس معناها اعتراف المسلم بأن دين أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ – هو دين يقبله اللّه ويستطيع الإسلام أن يقف معه في جبهة واحدة لمقاومة الإلحاد! إن الإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء.

ودعاهم إلى الإسلام جميعا،لأن هذا هو «الدين» الذي لا يقبل اللّه غيره من الناس جميعا.ولما فهم اليهود أنهم غير مدعوين إلى الإسلام،وكبر عليهم أن يدعوا إليه،جابههم القرآن الكريم بأن اللّه يدعوهم إلى الإسلام،فإن تولوا عنه فهم كافرون! والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام،كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء.وهو غير مأذون في أن يكره أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام.لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه.فالإكراه في الدين فوق أنه منهي عنه،هو كذلك لا ثمرة له.

ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأن ما عليه أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ – هو دين يقبله اللّه..ثم يدعوهم مع ذلك إلى الإسلام!..إنه لا يكون مكلفا بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين.وأنه يدعوهم إلى الدين.

وإذا تقررت هذه البديهية،فإنه لا يكون منطقيا مع عقيدته إذا دخل في ولاء أو تناصر للتمكين للدين في الأرض،مع من لا يدين بالإسلام.

إن هذه القضية في الإسلام قضية اعتقادية إيمانية.كما أنها قضية تنظيمية حركية! من ناحية أنها قضية إيمانية اعتقادية نحسب أن الأمر قد صار واضحا بهذا البيان الذي أسلفناه،وبالرجوع إلى النصوص القرآنية القاطعة بعدم قيام ولاء بين المسلمين وأهل الكتاب.

ومن ناحية أنها قضية تنظيمية حركية الأمر واضح كذلك..فإذا كان سعي المؤمن كله ينبغي أن يتجه إلى إقامة منهج اللّه في الحياة – وهو المنهج الذي ينص عليه الإسلام كما جاء به محمد – ﷺ – بكل تفصيلات وجوانب هذا المنهج،وهي تشمل كل نشاط الإنسان في الحياة..فكيف يمكن إذن أن يتعاون المسلم في هذا السعي مع من لا يؤمن بالإسلام دينا ومنهجا ونظاما وشريعة ومن يتجه في سعيه إلى أهداف أخرى – إن لم تكن معادية للإسلام وأهدافه فهي على الأقل ليست أهداف الإسلام – إذ الإسلام لا يعترف بهدف ولا عمل لا يقوم على أساس العقيدة مهما بدا في ذاته صالحا – «والَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ»..

والإسلام يكلف المسلم أن يخلص سعيه كله للإسلام..ولا يتصور إمكان انفصال أية جزئية في السعي اليومي في حياة المسلم عن الإسلام..لا يتصور إمكان هذا إلا من لا يعرف طبيعة الإسلام وطبيعة المنهج الإسلامي..ولا يتصور أن هناك جوانب في الحياة خارجة عن هذا المنهج يمكن التعاون فيها مع من يعادي الإسلام،أو لا يرضى من المسلم إلا أن يترك إسلامه،كما نص اللّه في كتابه على ما يطلبه اليهود والنصارى من المسلم ليرضوا عنه!..إن هناك استحالة اعتقادية كما أن هناك استحالة عملية على السواء..

ولقد كان اعتذار عبد اللّه بن أبي بن سلول،وهو من الذين في قلوبهم مرض،عن مسارعته واجتهاده في الولاء ليهود،والاستمساك بحلفه معها،هي قوله:إنني رجل أخشى الدوائر! إني أخشى أن تدور علينا الدوائر وأن تصيبنا الشدة،وأن تنزل بنا الضائقة..وهذه الحجة هي علامة مرض القلب وضعف الإيمان..

فالولي هو اللّه والناصر هو اللّه والاستنصار بغيره ضلالة،كما أنه عبث لا ثمرة له..ولكن حجة ابن سلول،هي حجة كل بن سلول على مدار الزمان وتصوره هو تصور كل منافق مريض القلب،لا يدرك حقيقة الإيمان..وكذلك نفر قلب عبادة بن الصامت من ولاء يهود بعد ما بدا منهم ما بدا.لأنه قلب مؤمن فخلع ولاء اليهود وقذف به،حيث تلقاه وضم عليه صدره وعض عليه بالنواجذ عبد اللّه بن أبي بن سلول! إنهما نهجان مختلفان،ناشئان عن تصورين مختلفين،وعن شعورين متباينين،ومثل هذا الاختلاف قائم على مدار الزمان

بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الإيمان! ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينـــهم،المتألبين عليهم،المنافقين الذين لا يخلصون للّه اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم..يهددهم برجاء الفتح أو أمر اللّه الذي يفصل في الموقف أو يكشف المستور من النفاق.[151]

٣٢– التميز:

جاء الإسلام إلى هذه البشرية بتصور جديد لحقيقة الروابط والوشائج،يوم جاءها بتصـــور جديد لحقيقة القيم والاعتبارات،ولحقيقة الجهة التي تتلقى منـــها هـــذه القـــيم وهـــذه الاعتبارات.

جاء الإسلام ليرد الإنسان إلى ربه،وليجعل هذه السلطة هي السلطة الوحيدة التي يتلقـــى منها موازينه وقيمه،كما تلقى منـــها وجـــوده وحياتـــه،والتي يرجـــع إليهـــا بروابطـــه ووشائجه،كما أنه من إرادتها صدر وإليها يعود.

جاء ليقرر أن هناك وشيجة واحدة تربط الناس في الله فإذا انبتَّت هذه الوشيجة فلا صـــلة ولا مودة:{ لا تَجدُ قَوْماً يُؤْمنُونَ باللَّه وَالْيَوْمِ الْآخرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُـــولَهُ وَلَـــوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إخْوَانَهُمْ أَوْ عَشيرَتَهُمْ }...[المجادلة:٢٢]

وأن هناك حزباً واحداً لله لا يتعدد،وأحزاباً أخرى كلها للشيطان وللطاغوت:{ الَّـــذينَ آمَنُوا يُقَاتلُونَ في سَبيلِ اللَّه وَالَّذينَ كَفَرُوا يُقَاتلُونَ في سَبيلِ الطَّـــاغُوت فَقَـــاتلُوا أَوْليَـــاءَ الشَّيْطَان إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَان كَانَ ضَعيفاً }...[النساء:٧٦]

وأن هناك طريقاً واحداً يصل إلى الله وكل طريق آخر لا يؤدي إليه:{ وَأَنَّ هَذَا صـــرَاطي مُسْتَقيماً فَاتَّبعُوهُ وَلا تَتَّبعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكُمْ عَنْ سَبيله }...[الأنعام:١٥٣]

وأن هناك نظاماً واحداً هو النظام الإسلامي وما عداه من النظم فهو جاهلية:{ أَفَحُكْـــمَ الْجَاهليَّة يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ منَ اللَّه حُكْماً لقَوْمٍ يُوقنُونَ } [المائدة:٥٠]

وأن هناك شريعة واحدة هي شريعة الله وما عداها فهو هوى:{ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَـــرِيعَةٍ منَ الْأَمْرِ فَاتَّبعْهَا وَلا تَتَّبعْ أَهْوَاءَ الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ }...[الجاثية:١٨]

---

[151] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٩١٢)

وأن هناك حقاً واحداً لا يتعدد،وما عداه فهو الضلال:{ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ }..[يونس:٣٢]

وأن هناك داراً واحدة هي دار الإسلام،تلك التي تقوم فيها الدولة المسلمة،فتهيمن عليها شريعة الله،وتقام فيها حدوده،ويتولى المسلمون فيها بعضهم بعضاً،وما عداها فهو دار حرب،علاقة المسلم بها إما القتال،وإما المهادنة على عهد أمان،ولكنها ليست دار إسلام،ولا ولاء بين أهلها وبين المسلمين:{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ،وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ،وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ،وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ...} [الأنفال:٧٢ - ٧٥]

بهذه النصاعة الكاملة،وبهذا الجزم القاطع جاء الإسلام..جاء ليرفع الإنسان ويخلصه من وشائج الأرض والطين،ومن وشائج اللحم والدم - وهي من وشائج الأرض والطين - فلا وطن للمسلم إلا الذي تقام فيه شريعة الله،فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط في الله،ولا جنسية للمسلم إلا عقيدته التي تجعله عضواً في"الأمة المسلمة"في"دار الإسلام "،ولا قرابة للمسلم إلا تلك التي تنبثق من العقيدة في الله،فتصل الوشيجة بينه وبين أهله في الله...

ليست قرابة المسلم أباه وأمه وأخاه وزوجه وعشيرته،ما لم تنعقد الآصرة الأولى في الخالق،فتتصل من ثم بالرحم:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ }...[النساء:١]

ولا يمنع هذا من مصاحبة الوالدين بالمعروف مع اختلاف العقيدة ما لم يقفا في الصف المعادي للجبهة المسلمة،فعندئذ لا صلة ولا مصاحبة،وعبد الله بن عبد الله بن أبي يعطينا المثل في جلاء:روى ابن جرير بسنده قال ابن زيد،في قول الله(لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلَّ) قال:كان المنافقون يسمون المهاجرين:الجلابيب؛ وقال:قال ابن أُبي:قد أمرتكم في هؤلاء الجلابيب أمري،قال:هذا بين أمَجٍ وعسفان على الكديد تنازعوا على الماء،وكان المهاجرون قد غلبوا على الماء؛ قال:وقال ابن أُبيّ أيضًا:أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذلَّ لقد قلت لكم:لا تنفقوا عليهم،لو تركتموهم ما وجدوا ما يأكلون،ويخرجوا ويهربوا؛ فأتى عمر بن الخطاب إلى النبيّ – ﷺ – فقال:يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أُبيّ؟ قال:وما ذاك؟ فأخبره وقال:دعني أضرب عنقه يا رسول الله،قال:"إذًا تَرْعَدُ لَهُ آنُفٌ كَثِيرَةٌ بِيَثْرِبَ" قال عمر:فإن كرهت يا رسول الله أن يقتله رجل من المهاجرين،فمرّ به سعد بن معاذ،ومحمد بن مسلمة فيقتلانه فقال رسول الله – ﷺ –:"إِنِي أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ،ادْعُوا لِي عَبْدَ اللهِ بنَ عَبد الله بن أُبَيّ"،فدعاه،فقال:"ألا تَرَى ما يَقُولُ أَبُوكَ؟" قال:وما يقول بأبي أنت وأمي؟ قال:"يَقُولُ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلَّ"؛ فقال:فقد صدق والله يا رسول الله،أنت والله الأعزُّ وهو الأذلُّ،أما والله لقد قَدِمت المدينة يا رسول الله،وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبرّ مني،ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتِيَنَّهما به،فقال رسول الله – ﷺ –:لا؛ فلما قدموا المدينة،قام عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ على بابها بالسيف لأبيه؛ ثم قال:أنت القائل:لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ،أما والله لتعرفنّ العزة لك أو لرسول الله،والله لا يأويك ظله،ولا تأويه أبدًا إلا بإذن من الله ورسوله؛ فقال:يا للخزرج ابني يمنعني بيتي،يا للخزرج ابني يمنعني بيتي،فقال:والله لا تأويه أبدًا إلا بإذن منه؛ فاجتمع إليه رجال فكلموه،فقال:والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله،فأتوا النبيّ – ﷺ – فأخبروه،فقال:"اذْهَبُوا إِلَيْهِ،فَقُولُوا لَهُ خَلِّهِ وَمَسْكَنَهُ"؛ فأتوه،فقال:أما إذا جاء أمر النبيّ – ﷺ – فنعم".[١٥٢]

[١٥٢] – تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة – (٢٣ / ٤٠٥) صحيح مرسل

فإذا انعقدت آصرة العقيدة فالمؤمنون كلهم إخوة،ولو لم يجمعهم نسب ولا صهر:{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ }..على سبيل القصر والتوكيد:{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ }...[الأنفال:٧٢]

وهي ولاية تتجاوز الجيل الواحد إلى الأجيال المتعاقبة،وتربط أول هذه الأمة بآخرها،وآخرها بأولها،برباط الحب والمودة والولاء والتعاطف المكين:
{ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ،وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْأِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [الحشر:٩ - ١٠]

ويضرب الله الأمثال للمسلمين بالرهط الكريم من الأنبياء الذين سبقوهم في موكب الإيمان الضارب في شعاب الزمان:{ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ،قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ،قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ }...[هود:٤٥ – ٤٧]

{ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ }...[البقرة:١٢٤]
{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }...[البقرة:١٢٦]

ويعتزل إبراهيم أباه وأهله حين يرى منهم الإصرار على الضلال:{ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً }...[مريم:٤٨]

ويحكي الله عن إبراهيم وقومه ما فيه أسوة وقدوة:{ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ }.[الممتحنة:٤]

والفتية أصحاب الكهف يعتزلون أهلهم وقومهم وأرضهم ليخلصوا لله بدينهم،ويفرُّوا إلى ربهم بعقيدهم،حين عز عليهم أن يجدوا لها مكاناً في الوطن والأهل والعشيرة.

{ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً،وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً،هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً،وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً }..[الكهف:١٣ – ١٦]

وامرأة نوح وامرأة لوط يفرق بينهما وبين زوجيهما حين تفترق العقيدة:{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ } [التحريم:١٠]

وامرأة فرعون على الضفة الأخرى:{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }...[التحريم:١١]

وهكذا تتعدد الأمثال في جميع الوشائج والروابط..وشيجة الأبوة في قصة نوح،ووشيجة البنوة والوطن في قصة إبراهيم،ووشيجة الأهل والعشيرة والوطن جميعاً في قصة أصحاب الكهف،ورابطة الزوجية في قصص امرأتي نوح ولوط وامرأة فرعون..

وهكذا يمضي الموكب الكريم في تصوره لحقيقة الروابط والوشائج..حتى تجيء الأمة الوسط،فتجد هذا الرصيد من الأمثال والنماذج والتجارب،فتمضي على النهج الرباني للأمة المؤمنة،وتفترق العشيرة الواحدة،ويفترق البيت الواحد،حين تفترق العقيدة،وحيث تنبت الوشيجة الأولى،ويقول الله سبحانه في صفة المؤمنين قوله الكريم:{ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ

إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْأِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }...[المجادلة:٢٢]

وحين انبتَّت وشيجة القرابة بين محمد – ﷺ – وبين عمه أبي لهب،وابن عمه عمرو بن هشام (أبو جهل) وحين قاتل المهاجرون أهلهم وأقرباءهم وقتلوهم يوم بدر..حينئذ اتصلت وشيجة العقيدة بين المهاجرين والأنصار،فإذا هم أهل وإخوة،واتصلت الوشيجة بين المسلمين العرب وإخوانهم:صهيب الرومي،وبلال الحبشي،وسلمان الفارسي.وتوارت عصبية القبيلة،وعصبية الجنس،وعصبية الأرض.وقال لهم رسول الله – ﷺ –:« دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ »[153] ..

وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ « لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ »[154]...فانتهى أمر هذا النتن..نتن عصبية النسب.وماتت هذه النعرة..نعرة الجنس،واختفت تلك اللوثة..لوثة القوم،واستروح البشر أرج الآفاق العليا،بعيداً عن نتن اللحم والدم،ولوثة الطين والأرض..منذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم هو الأرض،إنما عاد وطنه هو"دار الإسلام"الدار التي تسيطر عليها عقيدته وتحكم فيها شريعة الله وحدها،الدار التي يأوي إليها ويدافع عنها،ويستشهد لحمايتها ومد رقعتها..وهي"دار الإسلام"لكل من يدين بالإسلام عقيدة ويرتضي شريعته شريعة،وكذلك لكل من يرتضي شريعة الإسلام نظاماً – ولو لم يكن مسلماً – كأصحاب الديانات الكتابية الذين يعيشون في"دار الإسلام "..والأرض التي لا يهيمن فيها الإسلام ولا تحكم فيها شريعته هي"دار الحرب"بالقياس إلى المسلم،وإلى الذمي المعاهد كذلك..يحاربها المسلم ولو كان فيها مولده،وفيها قرابته من النسب وصهره،وفيها أمواله ومنافعه.

[153] – صحيح البخارى- المكنز – (٤٩٠٥)

[154] – – سنن أبي داود – المكنز – (٥١٢٣) حسن

وكذلك حارب محمد – ﷺ – مكة وهي مسقط رأسه،وفيها عشيرته وأهلــه،وفيها داره ودور صحابته وأموالهم التي تركوها.فلم تصبح دار إسلام له ولأمتــه إلا حــين دانــت للإسلام وطُبِّقت فيها شريعته.

هذا هو الإسلام..هذا هو وحده..فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان،ولا مــيلاداً في أرض عليها لافتة إسلامية وعنوان إسلامي ! ولا وراثة مولد في بيت أبواه مسلمان.

{ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً }.[النساء:٦٥]

هذا هو وحده الإسلام،وهذه هي وحدها دار الإسلام..لا الأرض ولا الجنس،ولا النسب وإلا الصهر،ولا القبيلة،ولا العشيرة.لقد أطلق الإسلام البشر من اللصوق بالطين ليتطلعــوا إلى السماء،وأطلقهم من قيد الدم..قيد البهيمة..ليرتفعوا في عليين.

وطن المسلم الذي يحن إليه ويدافع عنه ليس قطعة أرض،وجنسية المسلم التي يعــرف بهــا ليست جنسية حكم،وعشيرة المسلم التي يأوي إليها ويدفع عنها ليست قرابــة دم،ورايــة المسلم التي يعتز بها ويستشهد تحتها ليست راية قوم،وانتصار المسلم الــذي يهفــوا إليــه ويشكر الله عليه ليس غلبة جيش.إنما هو كما قــال الله عنــه:{ إِذَا جَــاءَ نَصْــرُ اللَّــهِ وَالْفَتْحُ،وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً،فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَــانَ تَوَّاباً }...[سورة النصر]

إنه النصر تحت راية العقيدة دون سائر الرايات.والجهاد لنصرة دين الله وشــريعته لا لأي هدف من الأهداف،والذياد عن"دار الإسلام"بشروطها تلك لا أية دار،والتجرد بعد هــذا كله لله،لا لمغنم ولا لسمعة،ولا حمية لأرض أو قوم،أو ذود عن أهل أو ولد،إلا لحمايتــهم من الفتنة عن دين الله:فعَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – عَنِ الرَّجُــلِ يُقَاتِــلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً أَىُّ ذَلِكَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –"مَــنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِىَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ »[١٥٥]

---

[١٥٥] – – صحيح مسلم– المكنز – (٥٠٢٩)

وفي هذا وحده تكون الشهادة لا في أية حرب لأي هدف غير هذا الهدف الواحد..لله..وكل أرض تحارب المسلم في عقيدته،وتصدُّه عن دينه،وتعطل عمل شريعته،فهي"دار حرب"ولو كان فيها أهله وعشيرته وقومه وماله وتجارته..وكل أرض تقوم فيها عقيدته وتعمل فيها شريعته،فهي"دار إسلام"ولو لم يكن فيها أهل ولا عشيرة،ولا قوم ولا تجارة.الوطن:دار تحكمها عقيدة ومنهاج حياة وشريعة من الله..هذا هو معنى الوطن اللائق"بالإنسان ".والجنسية:عقيدة ومنهاج حياة.وهذه هي الآصرة اللائقة بالآدميين.إن عصبية العشيرة والقبيلة والقوم والجنس واللون والأرض عصبية صغيرة متخلفة..عصبية جاهلية عرفتها البشرية في فترات انحطاطها الروحي،وسماها رسول الله – ﷺ –"منتنة"بهذا الوصف الذي يفوح منه التقزز والاشمئزاز.

ولما ادعى اليهود أنهم شعب الله المختار بجنسهم وقومهم ردَّ الله عليهم هذه الدعوى،ورد ميزان القيم إلى الإيمان وحده على توالي الأجيال،وتغاير الأقوام والأجناس والأوطان:{وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ،فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ،صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ }...[البقرة:١٣٥ – ١٣٨]

فأما شعب الله المختار حقاً فهو الأمة المسلمة التي تستظل براية الله على اختلاف ما بينها من الأجناس والأقوام والألوان والأوطان:{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ }...[آل عمران:١١٠]

الأمة التي يكون من الرعيل الأول فيها أبو بكر العربي،وبلال الحبشي،وصهيب الرومي،وسلمان الفارسي،وإخوانهم الكرام.والتي تتوالى أجيالها على هذا النسق الرائع..الجنسية فيها العقيدة،والوطن فيها هو دار الإسلام،والحاكم فيها هو الله،والدستور فيها هو القرآن.هذا التصور الرفيع للدار وللجنسية وللقرابة هو الذي ينبغي أن يسيطر

على قلوب أصحاب الدعوة إلى الله،والذي ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أوشاب التصورات الجاهلية الدخيلة،ولا تتسرب إليه صور الشرك الخفية:الشرك بالأرض،والشرك بالجنس،والشرك بالقوم،والشرك بالنسب،والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة،تلك التي يجمعها الله سبحانه في آية واحدة فيضعها في كفة،ويضع الإيمان ومقتضياته في كفة أخرى،ويدع للناس الخيار:{ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }...[التوبة:٢٤]

كذلك لا ينبغي أن تقوم في نفوس أصحاب الدعوة إلى الله تلك الشكوك السطحية في حقيقة الجاهلية وحقيقة الإسلام،وفي صفة دار الحرب ودار الإسلام..فمن هنا يؤتى الكثير منهم في تصوراته ويقينه..إنه لا إسلام في أرض لا يحكمها الإسلام،ولا تقوم فيها شريعته،ولا دار إسلام إلا التي يهيمن عليها الإسلام بمنهجه وقانونه،وليس وراء الإيمان إلا الكفر،وليس دون الإسلام إلا الجاهلية..وليس بعد الحق إلا الضلال..[١٥٦]

٣٣- تجمع بين مطالب الروح والجسد:

إن الإسلام نظام للإنسان.نظام واقعي إيجابي.يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه،ويتوافق مع واقعه وضروراته،ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيرة في شتى البقاع وشتى الأزمان،وشتى الأحوال.

إنه نظام واقعي إيجابي،يلتقط الإنسان من واقعه الذي هو فيه،ومن موقفه الذي هو عليه،ليرتفع به في المرتقى الصاعد،إلى القمة السامقة.في غير إنكار لفطرته أو تنكر وفي غير إغفال لواقعه أو إهمال وفي غير عنف في دفعه أو اعتساف! إنه نظام لا يقوم على الحذلقة الجوفاء ولا على التظرف المائع ولا على «المثالية» الفارغة ولا على الأمنيات الحالمة،التي تصطدم بفطرة الإنسان وواقعه وملابسات حياته،ثم تتبخر في الهواء! وهو نظام يرعى خلق الإنسان،ونظافة المجتمع،فلا يسمح بإنشاء واقع مادي،من شأنه انحلال الخلق،وتلويث

[١٥٦] - معالم في الطريق بتحقيقي - (١ / ١٢٧) -جِنْسِيّة الْمُسْلِم وَعَقِيدَتُه

المجتمع،تحت مطارق الضرورة التي تصطدم بذلك الواقع.بل يتوخى دائما أن ينشئ واقعا يساعد على صيانة الخلق،ونظافة المجتمع،مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع.

فإذا استصحبنا معنا هذه الخصائص الأساسية في النظام الإسلامي،ونحن ننظر إلى مسألة تعدد الزوجات..فماذا نرى؟

نرى..أولا..أن هناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة – تاريخية وحاضرة – تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج،على عدد الرجال الصالحين للزواج..والحد الأعلى لهذا الاختلال الذي يعتري بعض المجتمعات لم يعرف تاريخيا أنه تجاوز نسبة أربع إلى واحد.وهو يدور دائما في حدودها.فكيف نعالج هذا الواقع،الذي يقع ويتكرر وقوعه،بنسب مختلفة.هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الإنكار؟

نعالجه بهز الكتفين؟ أو نتركه يعالج نفسه بنفسه؟ حسب الظروف والمصادفات؟! إن هز الكتفين لا يحل مشكلة! كما أن ترك المجتمع يعالج هذا الواقع حسبما اتفق لا يقول به إنسان جاد،يحترم نفسه،ويحترم الجنس البشري! ولا بد إذن من نظام،ولا بد إذن من إجراء..

وعندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات:

١ – أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج..ثم تبقى واحدة أو أكثر – حسب درجة الاختلال الواقعة – بدون زواج،تقضي حياتها – أو حياتهن – لا تعرف الرجال!

٢ – أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زواجا شرعيا نظيفا.ثم يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر،من هؤلاء اللواتي ليس لهن مقابل في المجتمع من الرجال.فيعرفن الرجل خدينا أو خليلا في الحرام والظلام!

٣ – أن يتزوج الرجال الصالحون – كلهم أو بعضهم – أكثر من واحدة.وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل،زوجة شريفة،في وضح النور لا خدينة ولا خليلة في الحرام والظلام!

الاحتمال الأول ضد الفطرة،وضد الطاقة،بالقياس إلى المرأة التي لا تعرف في حياتها الرجال.ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدق به المتشدقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل

والكسب.فالمسألة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحيون المتحذلقون المتظرفون الجهال عن فطرة الإنسان.وألف عمل،وألف كسب لا تغني المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبيعية..سواء في ذلك مطالب الجسد والغريزة،ومطالب الروح والعقل،من السكن والأنس بالعشير..والرجل يجد العمل ويجد الكسب ولكن هذا لا يكفيه،فيروح يسعى للحصول على العشيرة،والمرأة كالرجل - في هذا - فهما من نفس واحدة! والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام النظيف وضد قاعدة المجتمع الإسلامي العفيف وضد كرامة المرأة الإنسانية.والذين لا يحفلون أن تشيع الفاحشة في المجتمع،هم أنفسهم الذين يتعاملون على اللّه،ويتطاولون على شريعته.لأنهم لا يجدون من يردعهم عن هذا التطاول.بل يجدون من الكائدين لهذا الدين كل تشجيع وتقدير! والاحتمال الثالث هو الذي يختاره الإسلام.يختاره رخصة مقيدة.لمواجهة الواقع الذي لا ينفع فيه هز الكتفين ولا تنفع فيه الحذلقة والادعاء.يختاره متمشيا مع واقعيته الإيجابية،في مواجهة الإنسان كما هو - بفطرته وظروف حياته - ومع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر،ومع منهجه في التقاط الإنسان من السفح،والرقي به في الدرج الصاعد إلى القمة السامقة.ولكن في يسر ولين وواقعية! ثم نرى..ثانيا..في المجتمعات الإنسانية.قديما وحديثا.وبالأمس واليوم والغد.إلى آخر الزمان.واقعا في حياة الناس،لا سبيل إلى إنكاره كذلك أو تجاهله.

نرى أن فترة الإخصاب في الرجل تمتد إلى سن السبعين أو ما فوقها.بينما هي تقف في المرأة عند سن الخمسين أو حواليها.فهناك في المتوسط عشرون سنة من سني الإخصاب في حياة الرجل لا مقابل لها في حياة المرأة.

وما من شك أن من أهداف اختلاف الجنسين ثم التقائهما،امتداد الحياة بالإخصاب والإنسال،وعمران الأرض بالتكاثر والانتشار.فليس مما يتفق مع هذه السنة الفطرية العامة أن نكف الحياة عن الانتفاع بفترة الإخصاب الزائدة في الرجال.ولكن مما يتفق مع هذا الواقع الفطري أن يسن التشريع - الموضوع لكافة البيئات في جميع الأزمان والأحوال - هذه الرخصة - لا على سبيل الإلزام الفردي،ولكن على سبيل إيجاد المجال العام الذي يلبي هذا الواقع الفطري،ويسمح للحياة أن تنتفع به عند الاقتضاء..وهو توافق بين واقع الفطرة

وبين اتجاه التشريع ملحوظ دائما في التشريع الإلهـي.لا يتـوافر عـادة في التشـريعات البشرية،لأن الملاحظة البشرية القاصرة لا تنتبه له،ولا تدرك جميـع الملابسـات القريبـة والبعيدة،ولا تنظر من جميع الزوايا،ولا تراعي جميع الاحتمالات.

ومن الحالات الواقعية – المرتبطة بالحقيقة السالفة – ما نراه أحيانا من رغبة الزوج في أداء الوظيفة الفطرية،مع رغبة الزوجة عنها – لعائق من السن أو من المـرض – مـع رغبـة الزوجين كليهما في استدامة العشرة الزوجية وكراهية الانفصال – فكيف نواجه مثل هذه الحالات؟

نواجهها بهز الكتفين وترك كل من الزوجين يخبط رأسه في الجدار؟! أو نواجهها بالحذلقة الفارغة والتظرف السخيف؟

إن هز الكتفين – كما قلنا – لا يحل مشكلة.والحذلقة والتظرف لا يتفقان مع جدية الحياة الإنسانية،ومشكلاتها الحقيقية..

وعندئذ نجد أنفسنا – مرة أخرى – أمام احتمال من ثلاثة احتمالات:

١ – أن نكبت الرجل ونصده عن مزاولة نشاطه الفطري بقوة التشريع وقوة السـلطان! ونقول له:عيب يا رجل! إن هذا لا يليق،ولا يتفق مع حق المرأة الـتي عنـدك ولا مـع كرامتها!

٢ – أن نطلق هذا الرجل يخادن ويسافح من يشاء من النساء!

٣ – أن نبيح لهذا الرجل التعدد – وفق ضرورات الحال – ونتـوقى طـلاق الزوجـة الأولى..

الاحتمال الأول ضد الفطرة،وفوق الطاقة،وضد احتمال الرجل العصبي والنفسي.وثمرتـه القريبة – إذا نحن أكرهناه بحكم التشريع وقوة السلطان – هي كراهية الحياة الزوجية التي تكلفه هذا العنت،ومعاناة جحيم هذه الحياة..وهذه ما يكرهه الإسلام،الذي يجعـل مـن البيت سكنا،ومن الزوجة أنسا ولباسا.

والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام الخلقي،وضد منهجه في ترقية الحياة البشـرية،ورفعها وتطهيرها وتزكيتها،كي تصبح لائقة بالإنسان الذي كرمه اللّه على الحيوان! والاحتمـال

الثالث هو وحده الذي يلبي ضرورات الفطرة الواقعية،ويلبي منهج الإسلام الخلقي،ويحتفظ للزوجة الأولى برعاية الزوجية،ويحقق رغبة الزوجين في الإبقاء على عشرتهما وعلى ذكرياتهما،وييسر على الإنسان الخطو الصاعد في رفق ويسر وواقعية.

وشيء كهذا يقع في حالة عقم الزوجة،مع رغبة الزوج الفطرية في النسل.حيث يكون أمامه طريقان لا ثالث لهما:

١ – أن يطلقها ليستبدل بها زوجة أخرى تلبي رغبة الإنسان الفطرية في النسل.

٢ – أو أن يتزوج بأخرى،ويبقي على عشرته مع الزوجة الأولى.

وقد يهذر قوم من المتحذلقين – ومن المتحذلقات – بإيثار الطريق الأول.ولكنّ تسعا وتسعين زوجة – على الأقل – من كل مائة سيتوجهن باللعنة إلى من يشير على الزوج بهذا الطريق! الطريق الذي يحطم عليهن بيوتهن بلا عوض منظور – فقلما تجد العقيم وقد تبين عقمها راغبا في الزواج – وكثيرا ما تجد الزوجة العاقر أنسا واسترواحا في الأطفال الصغار،تجيء بهم الزوجة الأخرى من زوجها،فيملأون عليهم الدار حركة وبهجة أيا كان ابتئاسها لحرمانها الخاص.

وهكذا حيثما ذهبنا نتأمل الحياة الواقعية بملابساتها العملية،التي لا تصغي للحذلقة،ولا تستجيب للهذر،ولا تستروح للهزل السخيف والتميع المنحل في مواضع الجد الصارم..وجدنا مظاهر الحكمة العلوية،في سن هذه الرخصة،مقيدة بذلك القيد:

«فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ – مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ – فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً» فالرخصة تلبي واقع الفطرة،وواقع الحياة وتحمي المجتمع من الجنوح – تحت ضغط الضرورات الفطرية والواقعية المتنوعة – إلى الانحلال أو الملال..والقيد يحمي الحياة الزوجية من الفوضى والاختلال،ويحمي الزوجة من الجور والظلم ويحمي كرامة المرأة أن تتعرض للمهانة بدون ضرورة ملجئة واحتياط كامل.ويضمن العدل الذي تحتمل معه الضرورة ومقتضياتها المريرة.

إن أحدا يدرك روح الإسلام واتجاهه،لا يقول:إن التعدد مطلوب لذاته،مستحب بلا مبرر من ضرورة فطرية أو اجتماعية وبلا دافع إلا التلذذ الحيواني،وإلا التنقل بين الزوجات،كما يتنقل الخليل بين الخليلات.

إنما هو ضرورة تواجه ضرورة،وحل يواجه مشكلة.وهو ليس متروكا للهوى،بلا قيد ولا حد في النظام الإسلامي،الذي يواجه كل واقعيات الحياة.

فإذا انحرف جيل من الأجيال في استخدام هذه الرخصة.إذا راح رجال يتخذون من هذه الرخصة فرصة لإحالة الحياة الزوجية مسرحا للذة الحيوانية.إذا أمسوا يتنقلون بين الزوجات كما يتنقل الخليل بين الخليلات.

إذا أنشئوا «الحريم» في هذه الصورة المريبة..فليس ذلك شأن الإسلام وليس هؤلاء هم الذين يمثلون الإسلام..إن هؤلاء إنما انحدروا إلى هذا الدرك لأنهم بعدوا عن الإسلام،و لم يدركوا روحه النظيف الكريم.

والسبب أنهم يعيشون في مجتمع لا يحكمه الإسلام،ولا تسيطر فيه شريعته.مجتمع لا تقوم عليه سلطة مسلمة،تدين للإسلام وشريعته وتأخذ الناس بتوجيهات الإسلام وقوانينه،وآدابه وتقاليده.

إن المجتمع المعادي للإسلام المتفلت من شريعته وقانونه،هو المسئول الأول عن هذه الفوضى.هو المسئول الأول عن «الحريم» في صورته الهابطة المريبة.هو المسئول الأول عن اتخاذ الحياة الزوجية مسرح لذة بهيمية.

فمن شاء أن يصلح هذه الحال فليرد الناس إلى الإسلام،وشريعة الإسلام،ومنهج الإسلام فيردهم إلى النظافة والطهارة والاستقامة والاعتدال..من شاء الإصلاح فليرد الناس إلى الإسلام لا في هذه الجزئية ولكن في منهج الحياة كلها.فالإسلام نظام متكامل لا يعمل إلا وهو كامل شامل..

والعدل المطلوب هو العدل في المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة.أما العدل في مشاعر القلوب وأحاسيس النفوس،فلا يطالب به أحد من بني الإنسان،لأنه خارج عن إرادة الإنسان..وهو العدل الذي قال اللّه عنه في الآية الأخرى في هذه السورة:«وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا

أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ - وَلَوْ حَرَصْتُمْ - فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ،فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ»..هــذه الآية التي يحاول بعض الناس أن يتخذوا منها دليلا على تحــريم التعــدد.والأمــر لــيس كذلك.وشريعة اللّه ليست هازلة،حتى تشرع الأمر في آية،وتحرمه في آية،بهذه الصورة التي تعطي باليمين وتسلب بالشمال! فالعدل المطلوب في الآية الأولى والذي يتعين عدم التعدد إذا خيف ألا يتحقق هو العدل في المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة،وســائر الأوضــاع الظاهرة،بحيث لا ينقص إحدى الزوجات شيء منها وبحيث لا تؤثر واحدة دون الأخرى بشيء منها..على نحو ما كان النبي - ﷺ - وهو أرفع إنسان عرفته البشرية،يقوم بــه.في الوقت الذي لم يكن أحد يجهل من حوله ولا من نسائه،أنه يحب عائشة - رضي اللّه عنها - ويؤثرها بعاطفة قلبية خاصة،لا تشاركها فيهــا غيرهــا..فــالقلوب ليســت ملكــا لأصحابها.إنما هي بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء..وقد كــان - ﷺ - يعرف دينه ويعرف قلبه.فكان يقول:«اللهم هذا قسمي فيما أملك،فلا تلمني فيما تملــك ولا أملك»..

ونعود فنكرر قبل أن نتجاوز هذه النقطة،أن الإسلام لم ينشئ التعدد إنما حدده.ولم يــأمر بالتعدد إنما رخص فيه وقيده.وأنه رخص فيه لمواجهة واقعيات الحياة البشرية،وضــرورات الفطرة الإنسانية.هذه الضرورات وتلك الواقعيات التي ذكرنا بعض ما تكشف لنا حــتى الآن منها.وقد يكون وراءها غيرها تظهره أطوار الحياة في أجيال أخــرى،وفي ظــروف أخرى كذلك.كما يقع في كل تشريع أو توجيه جاء به هذا المنهج الرباني،وقصر البشر في فترة من فترات التاريخ،عن استيعاب كل ما وراءه من حكمة ومصلحة.

فالحكمة والمصلحة مفترضتان وواقعتان في كل تشريع إلهي،سواء أدركهمــا البشــر أم لم يدركوهما،في فترة من فترات التاريخ الإنســاني القصــير،عن طريــق الإدراك البشــري المحدود![١٥٧]

وقال تعالى:«يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ،وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّــدُورِ،وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ»..جاءتكم في ذلك الكتاب الذي ترتابون فيه.جاءتكم الموعظة «مــن

[١٥٧] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٥٧٩)

ربكم» فليس هو كتابا مفترى،وليس ما فيه من عند بشر.جـاءتكم الموعظـة لتحيـي قلوبكم،وتشفي صدوركم من الخرافة التي تملؤها،والشك الذي يسيطر عليها،والزيغ الذي يمرضها،والقلق الذي يحيرها.جاءت لتفيض عليها البرء والعافية واليقين والاطمئنان والسلام مع الإيمان.وهي لمن يرزق الإيمان هـدى إلى الطريـق الواصـل،ورحمة مـن الضـلال والعذاب:«قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا،هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ»...
فبهذا الفضل الذي آتاه اللّه عباده،وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمـان..فبـذلك وحده فليفرحوا.

فهذا هو الذي يستحق الفرح.لا المال ولا أعراض هذه الحياة.إن ذلك هو الفرح العلـوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة،فيجعل هـذه الأعـراض خادمة للحياة لا مخدومة ويجعل الإنسان فوقها وهـو يسـتمتع بهـا لا عبـدا خاضـعا لها.والإسلام لا يحقر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها.إنما هو يزنها بوزنها ليستمتع بها الناس وهـم أحـرار الإرادة طلقـاء اليـد،مطمحهم أعلـى مـن هـذه الأعراض،وآفاقهم أسمى من دنيا الأرض.الإيمان عندهم هو النعمة،وتأدية مقتضيات الإيمان هي الهدف.والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم.

عن عقبة بن الوليد عن صفوان بن عمرو:سمعت أيفع بن عبد اللّه الكلاعي يقول:لما قـدم خراج العراق إلى عمر – رضي اللّه عنه – خرج عمر ومولى له،فجعل عمر يعد الإبل فإذا هي أكثر من ذلك،فجعل يقول:الحمد للّه تعالى.ويقول مولاه:هذا واللّه من فضـل اللّـه ورحمته،فقال عمر:كذبت ليس هذا هو الذي يقول اللّه تعالى:«قُلْ:بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِـهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ».

هكذا كان الرعيل الأولون ينظرون إلى قيم الحياة.كانوا يعدون الفضـل الأول والرحمـة الأولى هي ما جاءهم من اللّه من موعظة وهدى.فأما المال،وأما الثراء،وأما النصر ذاته فهو تابع.لذلك كان النصر يأتيهم،وكان المال ينثال عليهم،وكان الثراء يطلبهم..إن طريق هذه الأمة واضح.إنه في هذا الذي يسنه لها قرآنها،وفي سيرة الصدر الأول الذين فهمـوه مـن رجالها..هذا هو الطريق.

إن الأرزاق المادية،والقيم المادية،ليست هي التي تحدد مكان النـــاس في هـــذه الأرض..في الحياة الدنيا فضلا عن مكـــانهم في الحيـــاة الأخـــرى..إن الأرزاق المادية،والتيســـيرات المادية،والقيم المادية،يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية – لا في الآخـــرة المؤجلـــة ولكن في هذه الحياة الواقعة – كما نشهد اليوم في حضارة المادة الكالحة! إنه لا بد مـــن قيم أخرى تحكم الحياة الإنسانية وهذه القيم الأخرى هي التي يمكن أن تعطـــي لـــلأرزاق المادية والتيسيرات المادية قيمتها في حياة الناس وهي التي يمكن أن تجعل منها مادة ســـعادة وراحة لبني الإنسان.

إن المنهج الذي يحكم حياة مجموعة من البشر هو الذي يحـــدد قيمـــة الأرزاق الماديـــة في حياتهم.هو الذي يجعلها عنصر سعادة أو عنصر شقاء.كما يجعلها سببا للرقي الإنســـاني أو مزلقا للارتكاس! ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين في حياة أهله:

«يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ،وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّـــدُورِ،وَهُدىً وَرَحْمَـــةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.قُلْ:بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ»..

ومن هنا كان الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة يدركون هذه القيمة العليا،فيقول عمـــر – رضي اللّه عنه – عن المال والأنعام:«ليس هذا هو الذي يقول اللّه تعالى:«قُلْ:بِفَضْلِ اللَّـــهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ»..

لقد كان عمر – رضي اللّه عنه – يفقه دينه.كان يعرف أن فضل اللّه ورحمتـــه يتمـــثلان بالدرجة الأولى في هذا الذي أنزله اللّه لهم:موعظة من ربهم،وشفاء لما في الصـــدور،وهدى ورحمة للمؤمنين.لا فيما يجمعون من المال والإبل والأرزاق! لقد كانوا يدركون قيمة النقلة البعيدة التي نقلها لهم هذا الدين،من وهدة الجاهلية التي كانوا فيها..وإنهـــا لنقلـــة بعيـــدة بالقياس إلى الجاهلية في كل زمان ومكان ..بما فيها جاهلية القرن العشرين.

إن النقلة الأساسية التي تتمثل في هذا الدين هي إعتاق رقاب العباد من العبوديـــة للعبـــاد وتحريرهم من هذه العبودية،وتعبيدهم للّه وحده،وإقامة حياتهم كلها على أســـاس هـــذا الانطلاق الذي يرفع تصوراتهم،ويرفع قيمهم،ويرفع أخلاقهم.ويرفع حياتهم كلـــها مـــن العبودية إلى الحرية..

ثم تجيء الأرزاق المادية والتيسيرات المادية،والتمكين المادي،تبعـــا لهـــذا التحـــرر وهـــذا الانطلاق.كما حدث في تاريخ العصبة المسلمة،وهي تكتسح الجاهليـــات حولهـــا،وتهيمن على مقاليد السلطان في الأرض،وتقود البشرية إلى اللّه،لتستمتع معها بفضل اللّه..

والذين يركزون على القيم المادية،وعلى الإنتاج المادي،ويغفلون تلـــك القيمـــة الكـــبرى الأساسية،هم أعداء البشرية الذين لا يريدون لها أن ترتفع على مستوى الحيـــوان وعلـــى مطالب الحيوان.

وهم لا يطلقونها دعوة بريئة ولكنهم يهدفون مـــن ورائهـــا إلى القضـــاء علـــى القـــيم الإيمانية،وعلى العقيدة التي تعلق قلوب الناس بما هو أرفع من مطالب الحيـــوان – دون أن تغفل ضروراتهم الأساسية – وتجعل لهم مطالب أساسية أخرى إلى جوار الطعام والمسكن والجنس التي يعيش في حدودها الحيوان! وهـــذا الصـــياح المســـتمر بتضـــخيم القـــيم المادية،والإنتاج المادي،بحيث يطغى الانشغال به على حياة الناس وتفكيرهم وتصـــوراتهم كلها..وبحيث يتحول الناس إلى آلات تلهث وراء هذه القيمة،وتعدها قيمة الحياة الكبرى وتنسى في عاصفة الصياح المستمر..الإنتاج..الإنتاج..كل القـــيم الروحيـــة والأخلاقيـــة وتدوس هذه القيم كلها في سبيل الإنتاج المادي..هذا الصياح ليس بريئا إنما هـــو خطـــة مدبرة لإقامة أصنام تعبد بدل أصنام الجاهلية الأولى وتكون لها السيادة العليا على القـــيم جميعا! وعند ما يصبح الإنتاج المادي صنما يكدح الناس حوله ويطوفون بـــه في قداســـة الأصـــــنام فـــإن كـــــل القـــــيم والاعتبـــــارات الأخـــــرى تـــــداس في ســـــبيله وتنتهك..الأخلاق.الأسرة.الأعراض.الحريات.الضمانات...

كلها..كلها إذا تعارضت مع توفير الإنتاج يجب أن تداس! فماذا تكون الأرباب والأصنام إن لم تكن هي هذه؟ إنه ليس من الحتم أن يكون الصنم حجرا أو خشبا.فقد يكون قيمة واعتبارا ولا فتة ولقبا! إن القيمة العليا يجب أن تبقى لفضل اللّه ورحمته المتمثلين في هـــداه الذي يشفي الصدور،ويحرر الرقاب،ويعلي من القيم الإنسانية في الإنسان.وفي ظل هـــذه القيمة العليا يمكن الانتفاع برزق اللّه الذي أعطاه للناس في الأرض وبالتصنيع الذي يـــوفر الإنتاج المادي وبالتيسيرات المادية التي تقلل من شدة الكدح وبسائر هذه القيم التي تـــدق

الجاهلية حولها الطبول في الأرض! وبدون وجود تلك القيمة العليا وسيادها تصبح الأرزاق والتيسيرات والإنتاج لعنة يشقى بها الناس لأنها يومئذ تستخدم في إعلاء القيم الحيوانية والآلية،على حساب القيم الإنسانية العلوية.

وصدق اللّه العظيم:« يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ،وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ،وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ قُلْ:بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ»..[158]

٣٤- تعترف بالعواطف الإنسانية،وتوجهها الوجهة الصحيحة:

فالعواطف أمر غريزي،ولا يتجرد منه أي إنسان سوي،والعقيدة الإسلامية ليست عقيدة هامدة جامدة،بل هي عقيدة حيَّة،تعترف بالعواطف الإنسانية،وتقدرها حق قدرها،وفي الوقت نفسه لا تطلق العنان لها،بل تُقوِّمها،وتسمو بها،وتوجهها الوجهة الصحيحة،التي تجعل منها أداة خير وتعمير،بدلاً من أن تكون معولَ هدمٍ وتدمير.

فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا عَبْدَ اللهِ،أَيُّ عُرَى الْإِسْلَامِ أَوْثَقُ ؟"قَالَ:قُلْتُ:اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ:" الْوَلَايَةُ فِي اللهِ،الْحَبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ،يَا عَبْدَ اللهِ،أَتَدْرِي أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟"قُلْتُ:اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:" فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ أَعْلَمُهُمْ بِالْحَقِّ إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ،وَإِنْ كَانَ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ،وَإِنْ كَانَ يَزْحَفُ عَلَى سِتَّةٍ "[159]

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:أَتَدْرُونَ أَيُّ عُرَى الإِيمَانِ أَوْثَقُ ؟ قُلْنَا:الصَّلاَةُ قَالَ:الصَّلاَةُ حَسَنَةٌ وَلَيْسَ بِذَاكَ قُلْنَا:الصِّيَامُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى ذَكَرْنَا الْجِهَادَ،فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الْحَبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ.[160]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:لَمَّا مَاتَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ،قَالَتِ امْرَأَةٌ:هَنِيئًا لَكَ الْجَنَّةُ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ،فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺنَظَرَ غَضْبَانَ،فَقَالَ:وَمَا يُدْرِيكِ ؟ قَالَتْ:يَا رَسُولَ

---

[158] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٣ / ١٧٩٩)

[159] - شعب الإيمان - (١٢ / ٧٣) (٩٠٦٤) حسن

[160] - مسند الطيالسي - (٢ / ١١٠)(٧٨٣) حسن لغيره

اللهِ،فَارِسُكَ وَصَاحِبُكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:وَاللَّهِ،إِنِّي رَسُولُ اللهِ،وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي فَأَشْفَقَ النَّاسُ عَلَى عُثْمَانَ،فَلَمَّا مَاتَتْ زَيْنَبُ ابْنَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:الْحَقِي بِسَلَفِنَا الْخَيْرِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ،فَبَكَتِ النِّسَاءُ،فَجَعَلَ عُمَرُ يَضْرِبُهُنَّ بِسَوْطِهِ،فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ،وَقَالَ:مَهْلاً يَا عُمَرُ،ثُمَّ قَالَ:ابْكِينَ،وَإِيَّاكُنَّ وَنَعِيقَ الشَّيْطَانِ،ثُمَّ قَالَ:إِنَّهُ مَهْمَا كَانَ مِنَ العَيْنِ وَالْقَلْبِ،فَمِنَ اللهِ،وَمِنَ الرَّحْمَةِ،وَمَا كَانَ مِنَ اليَدِ وَاللِّسَانِ،فَمِنَ الشَّيْطَانِ.[١٦١]

٣٥- الجمع بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب:

فهم لا ينكرون الأسباب،ولا تأثيرها إذا ثبتت شرعاً أو قدراً،ولا يَدعُون الأخذ بالأسباب،وفي الوقت نفسه لا يلتفتون إليها.

ولا يرون أن هناك تنافياً بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب؛لأن نصوص الشرع حافلة بالأمر بالتوكل على الله،والأخذ بالأسباب المشروعة أو المباحة في مختلف شؤون الحياة،فقد أمرت بالعمل،والسعي في طلب الرزق،والتزود للأسفار،واتخاذ العدد في مواجهة العدو.قال ـــ تعالى ـــ:{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (١٠) سورة الجمعة.

وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي.التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض،من عمل وكد ونشاط وكسب.وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر.وهي ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى.وذكر اللّه لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش،والشعور باللّه فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة.ولكنه - مع هذا - لا بد من فترة للذكر الخالص،والانقطاع الكامل،والتجرد الممحض.كما توحي هاتان الآيتان.

وكَانَ عَرَّاكُ بْنُ مَالِكٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ،فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ،فَقَالَ:"اللَّهُمَّ،أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ،وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي فَارْزُقْنِي

[١٦١] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (١ / ٦٣١)(٢١٢٧) حسن

مِنْ فَضْلِكَ،وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ". [١٦٢] ..وهذه الصورة تمثل لنا كيف كان يأخذ الأمر جدا،في بساطة تامة،فهو أمر للتنفيذ فور سماعه بحرفيته وبحقيقته كذلك![١٦٣]

وروي عن بعض السلف أنه قال:من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة،بارك الله له سبعين مرة،لقول الله تعالى:{ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ }[١٦٤]

وقال:{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } (١٥) سورة الملك.

أي:فسافروا حيث شئتم من أقطارها،وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات،واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئًا،إلا أن ييسره الله لكم؛ ولهذا قال:{ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ } فالسعي في السبب لا ينافي التوكل،فعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ،قَالَ:إِنَّهُ سَمِعَ نَبِيَّ اللهِ ﷺيَقُولُ:لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ،لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا.[١٦٥]

فأثبت لها رواحا وغدوا لطلب الرزق،مع توكلها على الله،عز وجل،وهو المسَخِّر المسير المسبب.{ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } أي:المرجع يوم القيامة.[١٦٦]

فإذا استيقظ ضميره لهذه الحقيقة الهائلة أذن له الخالق الرحمن الرحيم بالمشي في مناكبها والأكل من رزقه فيها:«فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ».والمناكب المرتفعات،أو الجوانب.وإذا أذن له بالمشي في مناكبها فقد أذن له بالمشي في سهولها وبطاحها من باب أولى.فمتى أذن له في الشموس منها فقد أذن له في الذلول! والرزق الذي فيها كله من خلقه،وكله من ملكه،وهو أوسع مدلولا مما يتبادر إلى أذهان الناس من كلمة الرزق.فليس هو المال الذي يجده أحدهم في يده،ليحصل به على حاجياته ومتاعه.إنما هو كل ما أودعه

---

[١٦٢] - تفسير ابن أبي حاتم - (١٢ / ٣١٣) بلا سند

[١٦٣] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٥٧٠)

[١٦٤] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٨ / ١٢٣)

[١٦٥] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (١ / ١٣٩)(٢٠٥) صحيح

[١٦٦] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٨ / ١٧٩)

اللّه هذه الأرض،من أسباب الرزق ومكوناته.وهي في الأصل ترجع إلى طبيعــة تكــوين الأرض من عناصرها التي تكونت منها،وطبيعة تقسيم هذه العناصر بهــذه النســب الــتي وجدت بها.ثم القدرة التي أودعها اللّه النبات والحيوان – ومنه الإنسان – على الانتفــاع بهذه العناصر.

وفي اختصار نشير إلى أطراف من حقيقة الرزق بهذا المعنى:«تعتمد حياة كل نبات كمــا هو معروف على المقادير التي تكاد تكون متناهية في الصغر من ثاني أكســيد الكربــون الموجود في الهواء،والتي يمكن القول بأنها تتنسمها.ولكي نوضح هذا التفاعل الكيمــاوي المركب المختص بالتركيب الضوئي بأبسط طريقة ممكنة نقول:«إن أوراق الشــجر هــي رئات،وإن لها القدرة في ضوء الشمس على تجزئة ثاني أكسيد الكربون العنيد إلى كربــون وأكسجين.وبتعبير آخر يلفظ الأكسجين ويحتفظ بالكربون متحدا مع هيــدروجين المــاء الذي يستمده النبات من جذوره (حيث يفصل الماء إلى هيدروجين وأكسجين).

وبكيمياء سحرية تصنع الطبيعة من هذه العناصر سكرا أو سليلوزا ومواد كيمائية أخــرى عديدة،وفواكه وأزهارا.

ويغذي النبات نفسه،وينتج فائضا يكفي لتغذية كل حيوان على وجه الأرض.وفي الوقت نفسه يلفظ النبات الأكسجين الذي نتنسمه والذي بدونه تنتهي الحياة بعد خمس دقائق.

«وهكذا نجد أن جميع النباتات والغابات والأعشاب وكل قطعة من الطحلب،وكــل مــا يتعلق بمياه الزرع،تبني تكوينها من الكربون والماء على الأخص.والحيوانات تلفــظ ثــاني أكسيد الكربون،بينما تلفظ النباتات الأكسجين.ولو كانت هذه المقايضة غير قائمــة،فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأكسجين،أو كل ثــاني أكســيد الكربون تقريبا.ومتى انقلب التوازن تماما ذوى النبات أو مات الإنسان،فيلحق به الآخــر وشيكا.وقد اكتشف أخيرا أن وجود ثاني أكسيد الكربون بمقادير صــغيرة هــو أيضــا ضروري لمعظم حياة الحيوان،كما اكتشف أن النباتات تستخدم بعض الأكسجين.

«ويجب أن يضاف الهيدروجين أيضا،وإن كنا لا نتنسمه.فبدون الهيدروجين كان المـاء لا يوجد.ونسبة الماء من المادة الحيوانية أو النباتية هي كبيرة لدرجة تدعو إلى الدهشةو لا غنى عنه مطلقا»

وهناك دور الأزوت أو النتروجين في رزق الأرض.

« وبدون النتروجين في شكل ما لا يمكن أن ينمو أي نبات من النباتات الغذائية.وإحدى الوسيلتين اللتين يدخل بها النتروجين في التربة الزراعية هي طريق نشاط جراثيم «بكتريا» معينة تسكن في جذور النباتات البقلية،مثل البرسيم والحمص والبسـلة والفـول وكـثير غيرها.وهذه الجراثيم تأخذ نتروجين الهواء وتحيله إلى نتروجين مركب قابـل لأن يمتصـه النبات وحين يموت النبات يبقى بعض هذا النتروجين المركب في الأرض.

«وهناك طريقة أخرى يدخل بها النتروجين إلى الأرض.وذلك عـن طريـق عواصـف الرعد.وكلما ومض برق خلال الهواء،وحد بين قـدر قليـل مـن الأكسـجين وبـين النتروجين،فيسقطه المطر إلى الأرض كنتروجين مركب » (أي في الصورة التي يسـتطيع النبات امتصاصها لأنه لا يقدر على امتصاص النتروجين الخالص من الهواء ونسـبته فيـه حوالي ٧٨ كما أسلفنا).

والأرزاق المخبوءة في جوف الأرض من معادن جامدة وسائلة كلها ترجـع إلى طبيعـة تكوين الأرض والأحوال التي لابستها.ولا نطيل شرحها.فالرزق في ضوء هذه البيانـات السريعة أوسع مدلولا مما يفهمه الناس من هذا اللفظ.وأعمق أسبابا في تكوين الأرض ذاتها وفي تصميم الكون كله.وحين يأذن اللّه للناس في الأكل منه،فهو يتفضل بتسـخيره لهـم وتيسير تناوله كما يمنح البشر القدرة على تناولها والانتفاع بها:«فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ»..

وهو محدود بزمن مقدر في علم اللّه وتدبيره زمن الابتلاء بالموت والحياة،وبكل ما يسخره اللّه للناس في هذه الحياة.فإذا انقضت فترة الابتلاء كان الموت وكان ما بعـده:«وَإِلَيْـهِ

النُّشُورُ»..إليه..وإلّا فإلى أين إن لم يكن إليه؟ والملك بيده؟ ولا ملجأ منه إلا إليه؟ وهـــو على كل شيء قدير؟[١٦٧]

وقال:تعالى ــ:{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُـــوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَـــا أُوْلِي الأَلْبَابِ} (١٩٧) سورة البقرة.

إنه يدعوهم إلى التزود في رحلة الحج..زاد الجسد وزاد الروح..فقد ورد أن جماعـــة مـــن أهل اليمن كانوا يخرجون من ديارهم للحج ليس معهم زاد،يقولون:نحج بيـــت اللّـــه ولا يطعمنا! وهذا القول – فوق مخالفته لطبيعة الإسلام التي تأمر باتخـــاذ العـــدة الواقعيـــة في الوقت الذي يتوجه فيه القلب إلى اللّه ويعتمد عليه كل الاعتماد – يحمل كذلك رائحـــة عدم التحرج في جانب الحديث عن اللّه،ورائحة الامتنان على اللّه بأنهم يحجون بيته فعليه أن يطعمهم!! ومن ثم جاء التوجيه إلى الزاد بنوعيه،مع الإيحاء بالتقوى في تعبير عام دائـــم الإيحاء:«وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى.وَاتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ»..والتقوى زاد القلـــوب والأرواح.منه تقتات.وبه تتقوى وترف وتشرق.وعليه تستند في الوصول والنجاة.وأولـــو الألباب هم أول من يدرك التوجيه إلى التقوى،وخير من ينتفع بهذا الزاد.[١٦٨]

وقال ــ تعالى ــ:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} (٦٠) سورة الأنفال.

فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد والنص يأمر بإعداد القـــوة علـــى اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ويخص «رباط الخيل» لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة..ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونهـــا في ذلـــك الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة – تعالى اللّه عن ذلك علوا كـــبيرا – والمهم هو عموم التوجيه:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»..

---

[١٦٧] - في ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٦٣٨)

[١٦٨] - في ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع - (١ / ١٩٧)

إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في «الأرض» لتحرير «الإنسان»..وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة:أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها،ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها..والأمر الثاني:أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على «دار الإسلام» التي تحميها تلك القوة..والأمر الثالث:أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي،وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» كله في «الأرض» كلها..والأمر الرابع:أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية،فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية للّه وحده ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه..إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب،وتنظيما للشعائر،ثم تنتهي مهمته! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية.فلا مفر للإسلام – لإقرار منهجه الرباني – من تحطيم تلك القوى المادية،وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى،وتقاوم المنهج الرباني..

وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة..ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني.ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية اللّه وحده وتحطيم ألوهية العبيد! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ولا لتقرير سلطان زعيم،أو دولة،أو طبقة،أو جنس! إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية..إنما ينطلق بمنهج من صنع اللّه العليم الحكيم الخبير البصير ولتقرير ألوهية اللّه وحده وسلطانه لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعبيد..

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع وهم يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عن المد الإسلامي! والجهاد الإسلامي.

ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة.فالنص يقول:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»..

فهي حدود الطاقة إلى أقصاها.بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القـــوة يدخل في طاقتها.

كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعـــداد القـــوة:«تُرْهِبُـــونَ بِـــهِ عَـــدُوَّ اللَّـــهِ وَعَدُوَّكُمْ،وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ»..

فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء اللّه الذين هـــم أعـــداء العصـــبة المســـلمة في الأرض.الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم،أو لم يجهروا لهم بالعداوة،واللّه يعلم سرائرهم وحقائقهم.وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولـــو لم تمتـــد بالفعل إليهم.والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء،وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض ولتكون كلمة اللّه هي العليا،وليكون الدين كله للّه.

ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالا،وكان النظام الإسلامي كلـــه يقـــوم علـــى أســـاس التكافل،فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل اللّه:«وَما تُنْفِقُـــوا مِنْ شَيْءٍ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ»..وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة في سبيله،من كل غاية أرضية،ومن كل دافع شخصي ومن كل شعور قـــومي أو طبقي،ليتمحض خالصا للّه «في سبيل اللّه» لتحقيق كلمة اللّه،ابتغاء رضوان اللّه.

ومن ثم ينفي الإسلام من حسابه - منذ الوهلة الأولى - كل حرب تقـــوم علـــى أمجـــاد الأشخاص والدول.

وكل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق.وكل حرب تقوم للقهر والإذلال.وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن،أو قوم على قوم،أو جنس على جـــنس،أو طبقـــة علـــى طبقة..ويستبقي نوعا واحدا من الحركة..حركة الجهاد في سبيل اللّه..واللّه - سبحانه - لا يريد تسويد جنس ولا وطن ولا قوم ولا طبقة ولا فرد ولا شعب.إنما يريد أن تســـود ألوهيته وسلطانه وحاكميته.وهو غني عن العالمين.ولكن سيادة ألوهيته هي وحدها الـــتي تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين.[١٦٩]

[١٦٩] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٣ / ١٥٤٣)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ،وَكُلٌّ عَلَى خَيْرٍ،احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَلاَ تَعْجِزْ،فَإِنْ غَلَبَكَ شَيْءٌ،فَقُلْ:قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ،وَإِيَّاكَ وَ اللَّوَّ،فَإِنَّ اللَّوَ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ.[170]

٣٦- الجمع بين التوسع في الدنيا والزهد بها:

فأهل السنة والجماعة لا ينكرون على من يتوسع في الدنيا،ويسعى في كسب الرزق،بل يرون أنه ينبغي للإنسان أن يكفي نفسه ومن يعول،ويستغني عن الناس،ويقطع الطمع مما في أيديهم،على ألا تكون الدنيا أكبر همه،ولا مبلغ علمه،وعلى ألا يكتسب المال من غير حله،كما لا يعيبون على من آثر الكفاف،ورضي بالقليل من متاع الدنيا،لأنهم يرون أن الزهد إنما هو زهد القلب،وهو أن يترك الإنسان ما لا ينفع في الآخرة.

أما إذا توسع العبد في الدنيا،وجعلها في يده لا في قلبه،يرفد بها الإخوان،ويتصدق على الفقراء والمساكين،ويعين بها على نوائب الحق ــ فذلك من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء.كما هو حال الصديق،وعمر،وعثمان،وعلي،وعبدالرحمن بن عوف،وغيرهم من أثرياء الصحابة من المهاجرين والأنصار ــ رضي الله عنهم ــ.وكحال ابن المبارك ــ رحمه الله ــ فلقد كان من أغنى أهل زمانه،وهو في الوقت نفسه من أزهدهم إن لم يكن أزهدهم.

٣٧- الجمع بين الخوف والرجاء والحب:

فهم يجمعون بين هذه الأمور،ويرون أنه لا تنافي ولا تعارض بينها.قال ــ سبحانه وتعالى ــ في وصف عباده الأنبياء والمرسلين:(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) [الأنبياء:٩٠].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ،قَالَ:خَطَبَنَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَقَالَ:" أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ،وَأَنْ تُثْنُوا عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ،وَتَخْلِطُوا الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ،وَتَجْمَعُوا الْإِلْحَافَ بِالْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَثْنَى عَلَى زَكَرِيَّا وَأَهْلِ بَيْتِهِ،فَقَالَ:{ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء:٩٠]،ثُمَّ اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ

---

[170] - صحيح مسلم- المكنز - (٦٩٤٥) وصحيح ابن حبان - (١٣ / ٢٨) (٥٧٢١)

أَنَّكُمْ تَغْدُونَ وَتَرُوحُونَ فِي أَمَلٍ قَدْ غُيِّبَ عَنْكُمْ عَلمَهُ،فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَنْقَضِي آجَالُكُمْ إِلَّا وَأَنْتُمْ فِي عَمَلِ اللهِ فَافْعَلُوا،وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ إِلَّا بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ،فَسَارِعُوا فِي مُهْلِ إِيَّاكُمْ قَبْلَ أَنْ تَنْقَضِيَ آجَالُكُمْ فَتَرَدُّكُمْ إِلَى أَسْوَأَ أَعْمَالِكُمْ،فَإِنَّ أَقْوَامًا جَعَلُوا آجَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ فَأَنْهَاكُمْ أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمُ الْوَحَا الْوَحَا،ثُمَّ النَّجَا النَّجَا،فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ طَالِبًا حَثِيثًا مَرَّهُ سَرِيعٌ – يَعْنِي الْمَوْتَ – "[171]

وقال في معرض الثناء على سائر عباده المؤمنين:(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [السجدة:١٦].

وهناك مقولة مشهورة عند السلف،وهي قولهم:" من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق،ومن عبده بالخوف فهو حروري،ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء،ومن عبده بالخوف،والحب،والرجاء فهو مؤمن موحِّد ".[172]

٣٨- الوسطية والشهادة على الناس:

قال تعالى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (١٤٣) سورة البقرة

إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعا،فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهمفتفصل في أمرها،وتقول:هذا حق منها وهذا باطل.لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها.وهي شهيدة على الناس،وفي مقام الحكم العدل بينهم..وبينما هي تشهد على الناس هكذا،فإن الرسول هو الذي يشهد عليها فيقرر لها

[171] - شعب الإيمان - (١٣ / ١٦١) (١٠١٠٩) حسن

[172] - الدرر السنية كاملة - (٢٣ / ٨٠) وشرح الطحاوية - ط الأوقاف السعودية - (١ / ٣١٣) وشرح الفتوى الحموية - (١ / ٤٦٥)

موازينها وقيمها ويحكم على أعمالها وتقاليدها ويزن ما يصدر عنها،ويقول فيه الكلمة الأخيرة..

وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها..لتعرفها،ولتشعر بضخامتها.ولتقدر دورها حق قدره،وتستعد له استعدادا لائقا..

وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل،أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد،أو من الوسط بمعناه المادي الحسي..

«أُمَّةً وَسَطاً»..في التصور والاعتقاد..لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي.إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد،أو جسد تتلبس به روح.وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد،وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها،وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع،بلا تفريط ولا إفراط،في قصد وتناسق واعتدال.

«أُمَّةً وَسَطاً»..في التفكير والشعور..لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة...ولا تتبع كذلك كل ناعق،وتقلد تقليد القردة المضحك..إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب وشعارها الدائم:الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها،في تثبت ويقين.

«أُمَّةً وَسَطاً»..في التنظيم والتنسيق..لا تدع الحياة كلها للمشاعر،والضمائر،ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب.إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب،وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب وتزاوج بين هذه وتلك،فلا تكل الناس إلى سوط السلطان،ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان..ولكن مزاج من هذا وذاك.

«أُمَّةً وَسَطاً»..في الارتباطات والعلاقات..لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته،ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ولا تطلقه كذلك فردا أثرا جشعا لا هم له إلا ذاته..إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه.

ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو،ومن المنشطات ما يثير رغبـــة الفـــرد في خدمـــة الجماعة وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادما للجماعة،والجماعة كافلـــة للفرد في تناسق واتساق.

«أُمَّةً وَسَطاً»..في المكان..في سرة الأرض،وفي أوسط بقاعها.وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة الـــتي تتوســـط أقطـــار الأرض بـــين شـــرق وغرب،وجنوب وشمال،وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعا،وتشهد على الناس جميعا وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكـــر من هنا إلى هناك وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء.

«أُمَّةً وَسَطاً»..في الزمان..تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها وتحرس عهد الرشد العقلـــي من بعدها.

وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهـــد طفولتـــها وتصدها عن الفتنة بالعقل والهـــوى وتـــزاوج بـــين تراثهـــا الروحـــي مـــن عهـــود الرسالات،ورصيدها العقلي المستمر في النماء وتسير بها على الصراط السوي بـــين هـــذا وذاك.

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه اللّه لها،إلا أنها تخلت عـــن منهج اللّه الذي اختاره لها،واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هـــي الـــتي اختارهـــا اللّـــه لها،واصطبغت بصيغات شتى ليست صبغة اللّه واحدة منها! واللّه يريد لهـــا أن تصـــطبغ بصبغته وحدها.

وأمة تلك وظيفتها،وذلك دورها،خليقة بأن تحتمـــل التبعـــة وتبـــذل التضـــحية،فللقيادة تكاليفها،وللقوامة تبعاتها،ولا بد أن تفتن قبـــل ذلـــك وتبتلى،ليتأكـــد خلوصـــها للّـــه وتجردها،واستعدادها للطاعة المطلقة للقيادة الراشدة.[١٧٣]

عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يُدْعَى نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَـــوْمَ الْقِيَامَـــةِ فَيُقَالُ:هَلْ بَلَّغْتَ ؟ فَيَقُولُ:نَعَمْ،فَتُدْعَى أُمَّتُهُ فَيُقَالُ:هَلْ بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ:مَـــا أَتَانَـــا مِـــنْ

[١٧٣] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ١٣٠)

نَذِيرٍ،وَمَا أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ قَالَ:فَيُقَالُ:مَنْ شُهُودُكَ ؟ قَالَ:فَيَقُولُ:مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ قَالَ:فَيُؤْتَى بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ،وَذَلِكُمْ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ،وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة:١٤٣] "،قَالَ:الْوَسَطُ الْعَدْلُ،قَالَ:فَيُدْعَوْنَ فَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالْبَلاَغِ،قَالَ:ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ.[174]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَمَعَهُ الرَّجُلُ،وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلاَنِ،وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ،فَيُدْعَى قَوْمُهُ،فَيُقَالُ لَهُمْ:هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ:لاَ.فَيُقَالُ لَهُ:هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ ؟ فَيَقُولُ:نَعَمْ.فَيُقَالُ لَهُ:مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ فَيَقُولُ:مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ.فَيُدْعَى مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ،فَيُقَالُ لَهُمْ:هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ ؟ فَيَقُولُونَ:نَعَمْ.فَيُقَالُ:وَمَا عِلْمُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ:جَاءَنَا نَبِيُّنَا،فَأَخْبَرَنَا:أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا،فَذَلِكَ قَوْلُهُ:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} قَالَ:يَقُولُ:عَدْلاً،{لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ،وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة:١٤٣] [175]

٣٩- التوازن:

مع شمول هذه العقيدة وترابطها فهي تتسم أيضاً بالتوازن.

ويبدو هذا التوازن كذلك على مجموعة من المحاور المختلفة ومجموعة من المجالات:

١- توازن بين الروح والجسد أو عالم المعنويات وعالم الحس.

٢- توازن بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

٣- توازن بين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب.

٤- توازن بين جوانب الحياة المختلفة:السياسية والاقتصادية والاجتماعية..إلخ.

ولنقل كلمة سريعة عن كل مجال من هذه المجالات:

١- الإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله.وهناك توازن دقيق بين عنصريه المكونين له،يختل إذا أعطينا أحدهما من العناية والالتفاف أكثر من حقه.والجاهليات دائماً

---

[174] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٤ / ٨٥)(١١٢٨٣) ١١٣٠٣- وشعب الإيمان - (١ / ٤٢٢)(٢٦٠) صحيح

[175] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٤ / ١٤٨)(١١٥٥٨) ١١٥٧٩- صحيح

تختل في هذا الأمر فتؤكد على جانب الروح وحدها كالهندوكية والبوذية او جانب الجسد وحده كالجاهلية المعاصرة في شرق أوربا وغربها سواء.

ومن خصائص العقيدة الإسلامية أنها توازن بينهما التوازن الصحيح.فمن ناحية هي تمزج بين عالم الجسد وعالم الروح وتشركهما معاً في مجال العمل ومجال التعبد سواء،ومن ناحية أخرى تعطي كلاً منهما حقه.فلا تشغل الإنسان بعالم الحس وتكبت روحه كالجاهلية المعاصرة،ولا تشغله بأمور روحه على حساب كيانه المادي ومطالب جسده كالجاهلية الهندوكية والبوذية:عَنْ أَنَسٍ،أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – ﷺ – قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:لاَ أَتَزَوَّجُ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ:أُصَلِّي وَلاَ أَنَامُ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ:أَصُومُ وَلاَ أُفْطِرُ،فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ – ﷺ – فَقَالَ:مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا،لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ،وَأُصَلِّي وَأَنَامُ،وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ،فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي."[١٧٦]

وتقوم الحضارة الإسلامية المنبثقة من العقيدة على أساس الجانب المادى والروحى سواء

١- يتطلب الإسلام الإيمان بالغيب،لأنه عن طريقه يؤمن بالله واليوم الآخر،ولكنه لا يطلب منه أن يهمل عالم الشهود.بل إنه فى عرضه لحقائق العقيدة بكثير من الإشارة إلى آيات الله فى الكون لكى يتدبرها الإنسان ويصل عن طريق تدبرها إلى الإيمان بالله. ومن هنا لا يلجأ الإسلام إلى الغيبوبة الروحية التى يقع فيها بعض المتطرفين فى العبادة زعماً منهم أنهم يستغنون بشهود الذات الإلهية عن شهود الكون الذى خلقه الله،وكذلك لا يقبل أن ينشغل الإنسان بالكون المشهود عن عالم الغيب فيقطع صلته بالله واليوم الآخر كما تصنع جاهلية اليوم

٢- قلنا من قبل إن الإسلام لا يفصل بين الدنيا والآخرة،ونقول هنا:إن هذا الربط ذاته هو الذى يوازن بين الدنيا والآخرة فى هذه العقيدة،إذ يحدث عدم التوازن حين تنفصل عن الآخرة فى حس الإنسان،فيقوم بأعمال على أنها للدنيا وحدها منفصلة عن الآخرة،وأعمال أخرى على أنها للآخرة وحدها منفصلة عن الدنيا،عندئذ لابد أن يحدث الاختلال فى حسه فتغلب مجموعة من الأعمال على الأخرى.فإما أن تجذبه الدنيا رويداً رويداً حتى

[١٧٦] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٤ / ٦١٧)(١٣٥٣٤) ١٣٥٦٨- صحيح

ينسى الآخرة،وإما أن تجذبه الآخرة رويداً رويداً حتى ينسى الدنيا.وكلاهما فى نظر الإسلام اختلال.فالأول ينشغل بالسعى وراء الرزق والحصول على أكبر قدر من متاع الدنيا،والآخر يزهد فى متاع الدنيا وينشغل عن طلب الرزق وتعمير الأرض.ويصبح كل منهما مقصراً وآثماً فى حق الله.

إنما يحدث التوازن الذى تشير إليه الآية:{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (٧٧) سورة القصص

حين ترتبط الدنيا والآخرة فى حس الإنسان فيعمل للآخرة وهو يعمل للدنيا فى ذات الوقت.فلا يهمل العبادة ولا يهمل عمارة الأرض.

وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم.المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة.ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة.بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا ،كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها.

لقد خلق اللّه طيبات الحياة ليستمتع بها الناس وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها ،فتنمو الحياة وتتجدد ،وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض.ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة ،فلا ينحرفون عن طريقها ،ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها.والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم ،وتقبل لعطاياه ،وانتفاع بها.فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها اللّه بالحسنى.

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان ،ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة ،التي لا حرمان فيها ،ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة.

«وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ»..فهذا المال هبة من اللّه وإحسان.فليقابل بالإحسان فيه.إحسان التقبل وإحسان التصرف ،والإحسان به إلى الخلق ،وإحسان الشعور بالنعمة ،وإحسان الشكران.

«وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ»..الفساد بالبغي والظلم.والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة اللّه ومراعاة الآخرة.[١٧٧]

وإذا كان ربنا – عز وجل – يوصينا بأن نبتغي الآخرة،فهذا لا يعني أن نترك الدنيا:{ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...} [القصص:٧٧] لكن هذه الآية يأخذها البعض دليلاً على الانغماس في الدنيا ومتعها.

وحين نتأمل { وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...} [القصص:٧٧] نفهم أن العاقل كان يجب عليه أنْ ينظر إلى الدنيا على أنها لا تستحق الاهتمام،لكن ربه لفته إليها ليأخذ بشيء منها تقتضيه حركة حياته.فالمعنى:كان ينبغي عليَّ أنْ أنساها فذكِّرني الله بها.

ولأهل المعرفة في هذه المسألة مَلْمح دقيق:يقولون:نصيبك من الشيء ما ينالك منه،لا عن مفارقة إنما عن ملازمة ودوام،وعلى هذا فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التي تبقى لك،وتظل معك،وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة،فكأن نصيبك من الدنيا يصُبُّ في نصيبك من الآخرة،فتخدم دنياك آخرتك.......

أو:يكون المعنى موجهاً للبخيل الممسك على نفسه،فيُذكِّره ربه { وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...} [القصص:٧٧] يعني:خُذْ منها القَدْر الذي يعينك على أمر الآخرة،لذلك قالوا عن الدنيا:هي أهم من أن تُنْسى – لأنها الوسيلة إلى الآخرة – وأتفه من أن تكون غاية؛ لأن بعدها غاية أخرى وأبقى وأدوم.

ثم يقول سبحانه:{ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ..} [القصص:٧٧] الحق سبحانه يريد أنْ يتخلَّق خَلْقه بخُلُقه.

فكما أحسن الله إليك أحسنْ إلى الناس،وكما تحب أنْ يغفر الله لك،اغفر لغيرك إساءته { أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ...} [النور:٢٢].

وما دام ربك يعطيك،فعليك أنْ تعطي دون مخالفة الفقر؛ لأن الله تعالى هو الذي استدعاك للوجود؛ لذلك تكفَّل بنفقتك وتربيتك ورعايتك.لذلك حين ترى العاجز عن

[١٧٧] - في ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع - (٥ / ٢٧١١)

الكسب – وقد جعله ربه على هذه الحال لحكمة – حين يمد يده إليك،فاعلم أنه يمدُّها لله،وأنك مناول عن الله تعالى.

ونلحظ هذا المعنى في قوله تعالى:{ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً..}[الحديد:١١].

فسمَّى الصدقة قرضاً لله،لماذا؟ لأن هذا العبد عبدي،مسئول مني أن أرزقه،وقد ابتليتُه لحكمة عندي – حتى لا يظنّ أحد أن المسألة ذاتية فيه،فيعتبر به غيره – فمَنْ إذن يقرضني لأسُدَّ حاجة أخيكم؟

وقال تعالى:{ يُقْرِضُ اللَّهَ...}[الحديد:١١] مع أنه سبحانه الواهب؛ لأنه أراد أن يحترم ملكيتك،وأن يحترم انتفاعك،وسَعْيك..كما لو أراد والد أنْ يُجري لأحد أبنائه عملية جراحية مثلاً وهو فقير وإخوته أغنياء،فيقول لأولاده:اقرضوني من أموالكم لأجري الجراحة لأخيكم،وسوف أردُّ عليكم هذا القرض.إذن:فالمال مال الله،وأنت مناول عن الله تعالى.[١٧٨]

٣- تحدثنا فى باب الإيمان بالقدر عن التوازن فى حس المسلم بين الإيمان بالقدر وبين الأخذ بالأسباب.وهو من أجمل خصائص العقيدة الإسلامية.إن المتواكلين يزعمون أنهم يتوكلون على الله ثم يهملون الأخذ بالأسباب.إن المتواكلين يزعمون أنهم يتوكلون على الله ثم يهملون الأخذ بالأسباب جملة فيصيبهم ما يصيبهم من فقر ومرض وجهل وعجز وهوان فى الأرض.وإن الجاهلية الأوربية من جانب آخر تأخذ بالأسباب منقطعة عن الله وقدره،فتنتج إنتاجاً مادياً ضخماً ما يصيبها من قلق واضطراب وأمراض عصبية ونفسية وجنون وانتحار وضياع لأنها تفقد الطمأنينة التى يجدها المؤمن لذكر الله ولقدر الله.

والإسلام يوازن موازنة جميلة بين هذين الحدين المتطرفين،فهو يعلم الناس أن هناك سننا ربانية يدير الله بها الكون المادى والحياة البشرية.وأنه لابد من اتباع هذه السنن ومجاراتها إذا رغبنا فى الوصول إلى نتائج معينة،ومقتضى ذلك هو الأخذ بالأسباب.ولكنه فى الوقت ذاته يربى المؤمن على ألا يتكل على الأسباب الظاهرة فيحبط عمله،إنما يظل قلبه موصولا

---

[١٧٨] - دروس وعبر من قصة قارون - (١ / ١٢٤)

بالله،متطلعا إليه أن ينجح مسعاه ويوصله إلى النتائج المرغوبة.وبذلك يتوازن الإنسان فى سعيه فى الأرض لا يهمل الأسباب ويتواكل،ولا يكف عن التطلع إلى قدر الله.
٤- أخيراً نقول:إن هذه العقيدة توازن بين جوانب الحياة الإنسانية المختلفة فلا يطغى منها جانب على جانب.فكما أن الجانب الروحى لا يطغى على الجانب المادى،فكذلك لا يطغى الجانب السياسى على الاقتصادى،ولا الاقتصادى على الخلقى وهكذا.بل تتوازن جوانب الحياة كلها على محور العقيدة الرئيس الذى مقتضاه الإيمان بالله والالتزام بما أنزل الله،فتسير كلها متوازية متوازنة فى آن واحد.[١٧٩]

٤٠- التناسق بين الإيمان والعمل الصالح وبين العمل والإنتاج:

نحب أن نؤكد أهمية التناسق في منهج اللّه بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس،وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة في الأرض فهذا التناسق هو الذي يحقق شرط اللّه لأهل الكتاب - ولكل جماعة من الناس - أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا،وأن تكفر عنهم سيئاتهم ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضي - بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة - وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان..

ولكننا مع هذا التوكيد لا نحب أن ننسى أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هي الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية..فهذا يتضمن في ثناياه العمل والإنتاج والترقية والتطوير للحياة..فضلا على أن للصلة باللّه مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة ويرفع كل قيم الحياة ويقوّم كل موازين الحياة..

فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي وفي المنهج الإسلامي،وكل شيء فيه يجيء تبعا له،ومنبثقا منه ومعتمدا عليه..ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق.

وينبغي أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة باللّه وإقامة شريعة اللّه في الحياة..كل أولئك ثمرته للإنسان،وللحياة الإنسانية.فاللّه - سبحانه - غني عن العالمين..وإذا شدد المنهج الإسلامي في هذه الأسس،وجعلها مناط العمل والنشاط ورد كل عمل وكل نشاط

[١٧٩] - ركائز الإيمان بتحقيقي ص (٤٢٧- ٤٣٠)

لا يقوم عليها،وعده باطلا لا يقبل،وحابطا لا يعيش،وذاهبا مع الريح..فليس هذا لأن اللّه سبحانه يناله شيء من إيمان العباد وتقواهم وعبادتهم له وتحقيق منهجه للحياة..ولكن لأنه – سبحانه – يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهاج..

فعَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،عَنْ جِبْرَئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى،أَنَّهُ قَالَ:" يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظْلِمُوا،يَا عِبَادِي إِنَّكُمُ الَّذِينَ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،وَأَنَا الَّذِي أَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَلَا أُبَالِي،فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ،يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُ،فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ،يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُ،فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ،يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ،وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ،كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ لَمْ يَزِدْ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا،يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ،وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ،كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا،يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ،وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ،اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي،فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْبَحْرُ أَنْ يُغْمَسَ فِيهِ الْمِخْيَطُ غَمْسَةً وَاحِدَةً،يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْفَظُهَا عَلَيْكُمْ،فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ،وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ".[١٨٠]

وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج اللّه في الحياة والحكم بشريعة اللّه..فهي كلها لحسابنا نحن..لحساب هذه البشرية..في الدنيا والآخرة جميعا..وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا..

ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول:إن هذا الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب.

فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج اللّه المتمثل في ما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل.

وما أنزل إليهم من ربهم – وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة – فأولى بالشرط الذين أنزل إليهم القرآن..أولى بالشرط الذين يقولون:إنهم مسلمون..فهؤلاء هم الذين يتضمن

---

[١٨٠] -صحيح مسلم- المكنز – (٦٧٣٧) وشعب الإيمان – (٩ / ٣٠٠) (٦٦٨٦)

دينهم بالنص:الإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل من قبل،والعمل بكل ما أنزل إليهم وما استبقاه اللّه في شرعهم من شرع من قبلهم..وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل اللّه غيره من أحد..وقد انتهى إليه كل دين قبله و لم يعد هناك دين يقبله اللّه غيره..

أو يقبل من أحد غيره.

فهؤلاء أولى أن يكون شرط اللّه وعهده لهم..وهؤلاء أولى أن يرتضوا ما ارتضاه اللّه منهم،وأن يستمتعوا بما يشرطه اللّه لهم من تكفير السيئات ودخول الجنة في الآخرة ومن الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا..

إنهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه اللّه لهم بدلا من الجوع والمرض والخوف والشظف الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي – أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح – وشرط اللّه قائم والطريق إليه معروف..لو كانوا يعقلون..[181]

فلينظر الناس فإن الله تعالى أطعمهم في الرزق الوفير الميسور من أسبابه التي يعرفونها ويرجونها وهي المطر الغزير،الذي تنبت به الزروع،وتسيل به الأنهار،كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التي يحبونها – وهي البنين – والأموال التي يطلبونها ويعزونها:«يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ،وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً»..

وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق.وفي القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى اللّه،وبين تيسير الأرزاق،وعموم الرخاء...جاء في موضع:«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ،وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ»..

وجاء في موضع:«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ.وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ...»»..

وجاء في موضع:«أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ،وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ...».

---

[181] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ٩٣٥)

إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية،وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين..وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت وبخاصة في نفوس الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا والذين لم تصقل أرواحهم وتشف حتى ترى هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها..[١٨٢]

وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة،قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد اللّه،ومن سنة الحياة كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون.والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد.وما من أمة قام فيها شرع اللّه،واتجهت اتجاها حقيقيا للّه بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية اللّه..ما من أمة اتقت اللّه وعبدته وأقامت شريعته،فحققت العدل والأمن للناس جميعا،إلا فاضت فيها الخيرات،ومكن اللّه لها في الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء.

ولقد نشهد في بعض الفترات أمما لا تتقي اللّه ولا تقيم شريعته وهي - مع هذا - موسع عليها في الرزق،ممكن لها في الأرض..ولكن هذا إنما هو الابتلاء:«وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» ثم هو بعد ذلك رخاء مؤوف،تأكله آفات الاختلال الاجتماعي والانحدار الأخلاقي،أو الظلم والبغي وإهدار كرامة الإنسان..

وأمامنا الآن دولتان كبيرتان موسع عليهما في الرزق،ممكن لهما في الأرض.إحداهما رأسمالية والأخرى شيوعية[١٨٣].

وفي الأولى يهبط المستوي الأخلاقي إلى الدرك الأسفل من الحيوانية،ويهبط تصور الحياة إلى الدرك الأسفل كذلك فيقوم كله على الدولار!!

وفي الثانية تهدر قيمة «الإنسان» إلى درجة دون الرقيق وتسود الجاسوسية ويعيش الناس في وجل دائم من المذابح المتوالية ويبيت كل إنسان وهو لا يضمن أنه سيصبح ورأسه بين كتفيه لا يطيح في همة تحاك في الظلام![١٨٤]

---

[١٨٢] - فى ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع - (٤ / ١٩٠٣)

[١٨٣] - سقطت الشيوعية بلا رجعة

[١٨٤] - فى ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٧١٣)

فالاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقا للثواب في الآخرة فحسب – كما يعتقد بعض الناس – إنما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا.والحافز على إصلاحها وإنمائها.على أن يراعى في هذا النماء أنه ليس هدفا في ذاته،إنما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالإنسان الذي نفخ اللّه فيه من روحه،وكرمه على كثير من خلقه،ورفعه عن درك الحيوان لتكون أهداف حياته أعلى من ضرورات الحيوان ولتكون دوافعه وغاياته أرفع من دوافع الحيوان وغاياته.

ومن ثم كان مضمون الرسالة أو مضمون آيات الكتاب المحكمة المفصلة،بعد توحيد الدينونة للّه،وإثبات الرسالة من عنده..الدعوة إلى الاستغفار من الشرك والتوبة..وهما بدء الطريق للعمل الصالح.والعمل الصالح ليس مجرد طيبة في النفس وشعائر مفروضة تقام.إنما هو الإصلاح في الأرض بكل معاني الإصلاح،من بناء وعمارة ونشاط ونماء وإنتاج.والجزاء المشروط:«يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى،وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ»..

والمتاع الحسن قد يكون بالنوع كما يكون بالكم في هذه الحياة الدنيا.أما في الآخرة فهو بالنوع والكم وبما لم يخطر على قلب بشر.فلننظر في المتاع الحسن في هذه الحياة.

إننا نشاهد كثيرا من الطيبين الصالحين،المستغفرين التائبين،العاملين في الحياة..مضيقا عليهم في الرزق.

فأين إذن هو المتاع الحسن؟

وهو سؤال نعتقد أنه يتحرك على ألسنة الكثيرين! ولا بد لإدراك المعنى الكبير الذي يتضمنه النص القرآني أن ننظر إلى الحياة من زاوية أوسع،وننظر إليها في محيطها الشامل العام،ولا نقتصر منها على مظهر عابر.

إنه ما من جماعة يسود فيها نظام صالح،قائم على الإيمان باللّه،والدينونة له وحده،وإفراده بالربوبية والقوامة،وقائم على العمل الطيب المنتج في الحياة..إلا كان لها التقدم والرخاء والحياة الطيبة بصفة عامة كجماعة وإلا ساد فيها العدل بين الجهد والجزاء والرضى والطمأنينة بالقياس إلى الأفراد بصفة خاصة.فإذا شاهدنا في جماعة ما أن الطيبين العاملين المنتجين مضيق عليهم في الرزق والمتاع الطيب،فذلك شاهد على أن هذه الجماعة لا يسودها النظام المستمد من الإيمان باللّه،القائم على العدل بين الجهد والجزاء.

على أن الأفراد الطيبين الصالحين المنتجين في هذه الجماعة يمتعون متاعا حسنا،حتى لو ضيق عليهم في الرزق،وحتى لو كانت الجماعة تطاردهم وتؤذيهم،كما كان المشركون يؤذون القلة المؤمنة،وكما تؤذي الجاهليات القلة الداعية إلى اللّه.وليس هذا خيالا وليس ادعاء.فطمأنينة القلب إلى العاقبة،والاتصال باللّه،والرجاء في نصره وفي إحسانه وفضله..عوض عن كثير ومتاع حسن للإنسان الذي يرتفع درجة عن الحس المادي الغليظ.

ولا نقول هذا لندعو المظلومين الذين لا يجدون جزاء عادلا على جهدهم إلى الرضى بالأوضاع المنافية للعدالة.فالإسلام لا يرضى بهذا،والإيمان لا يسكت على مثل تلك الأوضاع.والجماعة المؤمنة مطالبة بإزالتها وكذلك الأفراد،ليتحقق المتاع الحسن للطيبين العاملين المنتجين.إنما نقوله لأنه حق يحس به المؤمنون المتصلون باللّه،المضيق عليهم في الرزق،وهم مع هذا يعملون ويجاهدون لتحقيق الأوضاع التي تكفل المتاع الحسن لعباد اللّه المستغفرين التائبين العاملين بهدى اللّه.

«وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ»..خصصها بعض المفسرين بجزاء الآخرة.وأرى أنها عامة في الدنيا والآخرة،على النحو الذي فسرنا به المتاع الحسن في الدنيا وهو متحقق في جميع الأحوال.وذو الفضل يلقى جزاءه في اللحظة التي يبذل فيها الفضل.يجده رضى نفسيا وارتياحا شعوريا،واتصالا باللّه وهو يبذل الفضل عملا أو مالا متجها به إلى اللّه[185].

٤١- تتميز بالسهولة واليسر:

العقيدة الإسلامية ليس فيها ألغاز،ولا فلسفات،ولا غموض،فالعقيدة في الكتاب والسنة وعلى ألسنة أكثر السلف،سهلة ميسورة يفهمها العامي بقدر والمثقف بقدر،وطالب العلم بقدر،والعالم الراسخ بقدر،كلٌّ يفهمها،ليس في ثوابت العقيدة ما لا يُفهم،ليس فيها ما هو عسير بعكس عقائد أهل الأهواء والبدع،وهذا أمر عجيب،كل أهل الأهواء والبدع يوجد في أصولهم ما لا يفهمه إلا الخاصة منهم بدون استثناء،لا يفهمه العوام،ولا حتى طلاب العلم إلا المتخصص منهم،ما عدا العقيدة الإسلامية،عقيدة أهل السنة والجماعة،العقدية

[185] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ١٨٥٤)

الحق تتميز بالسهولة واليسر والإحكام والوضوح،وأيضاً ثبوت المصطلحات،أصول العقيدة كلها،مصطلحاتها الشرعية ثابتة إلى قيام الساعة،لا تختلف من بين وقت ووقت.[١٨٦]

هذه بعض ما تيسر ذكره من خصائص هذه العقيدة الإسلامية العظيمة.

ونسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يوفقنا إلى الحق ويرزقنا اتباعه،ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه،والحمد لله رب العالمين.



[١٨٦] - http://www.imam.ws/cat/ ،

أهم المصادر

١. فى ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع –
٢. تفسير الشعراوي
٣. أيسر التفاسير لأسعد حومد
٤. تفسير ابن كثير – دار طيبة –
٥. تفسير ابن أبي حاتم
٦. تفسير السعدي
٧. تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة –
٨. التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج
٩. شعب الإيمان
١٠. صحيح البخارى– المكنز –
١١. صحيح مسلم– المكنز –
١٢. صحيح ابن حبان
١٣. الْأَمْوَالُ لِلْقَاسِمِ بْنِ سَلَّامٍ
١٤. الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ
١٥. شرح الطحاوية في العقيدة السلفية
١٦. منهاج السنة النبوية
١٧. درء التعارض بين العفل والنقل
١٨. سير أعلام النبلاء
١٩. مسند أحمد (عالم الكتب)
٢٠. الواضح في أركان الإيمان للمؤلف
٢١. ركائز الإيمان لمحمد قطب بتحقيقي
٢٢. المفصل في عوامل النصر والهزيمة للمؤلف
٢٣. أخبار مكة للفاكهي
٢٤. المعجم الكبير للطبراني
٢٥. معرفة الصحابة لأبي نعيم

٢٦. المستدرك للحاكم
٢٧. مصنف ابن أبي شيبة
٢٨. مع قصص السابقين للخالدى
٢٩. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم
٣٠. سنن الترمذى- المكنز
٣١. شرح النووي على مسلم
٣٢. معالم في الطريق بتحقيقي
٣٣. جامع الأصول في أحاديث الرسول
٣٤. خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
٣٥. تاريخ الرسل والملوك
٣٦. البداية والنهاية لابن كثير - موافقة للمطبوع -
٣٧. سنن أبي داود - المكنز -
٣٨. مسند الطيالسي
٣٩. الدرر السنية كاملة
٤٠. شرح الطحاوية - ط الأوقاف السعودية
٤١. شرح الفتوى الحموية
٤٢. دروس وعبر من قصة قارون للمؤلف
٤٣. العقيدة وأثرها في بناء الأجيال للشهيد عبد الله عزام
٤٤. المكتبة الشاملة ٣
٤٥. برنامج قالون

الفهرس العام